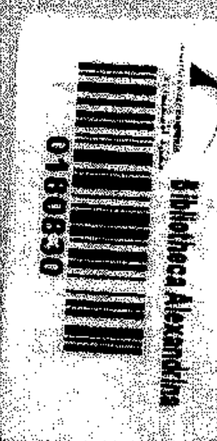
إدارة العقل البشري الجديد



بشير البرغوثي




MOHAMED KHATAB

إدارة

العقل البشري

الجديـــد

رؤيـة إسلاميـة

دراسة مقارنة

بشير شريف البرغوثي

دار زهران

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٠/٨/٢٣١٩)

٦٥٨,٤٠٩
برغ البرغوثي ، بشير شريف
ادارة العقل البشري الجديد: رؤية اسلامية/ بشير شريف البرغوثي. عمان : دار زهران ، ٢٠٠٠
٠-٣٥٨ ص.
ر.أ(٢٠٠٠/٨/٢٣١٩)
الواصفات : / الادارة//الادارة التنفيذية//اتخاذ القرارات/

*تم إعداد البيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

ليس هذا بحثا في أي فرع من فروع العلوم أو المعرفة، بل إنه محاولة لفتح نافذة للحوار على الناظم الذي يلم شعث العلوم والمعارف كلها دون أن يلقى الإهتمام المناسب: إنه التفكير، الأب الشرعي للمعرفة وللعلوم.

لقد ظللنا نتحدث عن الفلسفة أمدا طويلا على أنها أم المعرفة، متناسين العقل والتفكير. وهكذا، فهذا الجهد – إضافة إلى كل جهود الآخرين – هو مجرد محاولة صادقة لرد الإعتبار إلى العقل البشري. ليس من الحكمة أن يحاكم هذا الجهد في ضوء المعايير الأكاديمية الصارمة، التي طال عليها الأمد فتحجرت وحجرت عقولنا معها، ولذلك خلت هذه المحاولة من شكليات الإنشغال بالمراجع والهوامش والحواشي لصالح البحث عن نتائج عملية قدر الإمكان

وليس المقصود هنا إدانة الإدارة السابقة للعقل البشري، بل محاولة البحث عن صيغ معاصرة لإدارة هذا العقل نحو ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

لقد قضينا زمنا طويلا ونحن نحاول جعل الأجهزة الحديثة، تقوم مقام العقل في الإبداع، وجعل العقل يقوم مقام الأجهزة في الحفظ والاسترجاع، فكدنا نخسر الأمرين معا.

إن صلب هذه الدراسة يدور حول التكامل الذي لم يتوفر للعقل البشري إلا في ظل القرآن الكريم...وكما ستبين الدراسة، فإن دهاقنة النظام العقلي الجديد الذين يصرون على مهاجمة الأحادية في التفكير، وينتقدون التصنيفات القطعية الجامدة، لا

يلبثون إلا أن يقعوا أسارى لها حين يتحدثون عن منطق الماء الجديد مقابل منطق الصخر القديم، إنهم يهاجمون الجدل ويمارسونه، إذ لا تستقيم الحياة بالصخر وحده، ولا بالماء وحده، بل تقوم على تكامل العناصر كلها. ماء ونارا، وترابا وصخرا، وإيمانا وكفرا، وليلا ونهارا، وأنثى وذكرا....الخ

إن عظمة التفكير الإسلامي تأتي في عدم قفزه فوق ما هو مطروح ومحاولة تجاهله، بل محاولة محاورته وصولا إلى الحقائق التي لا بد منها لسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة. وليس لنا إلا صدق المحاولة.

المحتويات

الفصل الأول:-

مقدمة تمهيدية عامة

كل فاصلة زمنية يمكن أن تكون نقطة بؤرية ومحطة تحول في حياة أي فرد أو جماعة ، هذا ما نريد من هذا الكتاب : أن نساعد في تعميق الشعور الفردي والجمعي بأن هذا العالم يمكن أن يكون مكانا أفضل لممارسة حياتنا ومعتقداتنا .

إن ضغوط التطور وظهور قيم جديدة ، وتطبيق شعور جمعي جديد ، كل ذلك مما لا بد أن يؤدي إلى هذا الهدف . ولكن علينا أن نتذكر : أن علينا أن نبذل قصارى جهودنا ، وأن لا نشعر عند أي لحظة أن ليس هناك ما نستطيع عمله . وإنما يجب أن نشعر أننا نستطيع عمل المزيد ، وان الوقت قصير ، فهناك نهضة عالمية جديدة وشاملة ، بدأت بالفعل منذ أواخر القرن العشرين ، وان التغيرات تتسارع على شكل متوالية هندسية لا عددية . وان من يتخلف الآن ساعة ، قد يفوته القطار إلى قيام الساعة !

وإن قيام كل شخص بعمله يجب أن يكون مصحوبا بالنقد الذاتي الحاد ، وحساب النفس العسير للذات ولكل المؤسسات المحيطة . إن الرضا عن الأداء الفردي أو الجمعي أصبح جريمة لا تغتفر ، وإلا فما معنى ازدياد الجدل وارتفاع وتأثر النقاش بشكل يتناسب طرديا مع زيادة حدة المشاكل :

- ما معنى حديث الجميع في هذا العالم عن السلام الكوني ، في الوقت الذي تندلع فيه الحروب لأتفه الأسباب في بقاع كثيرة في هذا العالم ؟

– وما معنى العولمة الإقتصادية في ظل اتساع الفوارق بين دول الشمال والجنوب ؟

– وما معنى الحديث عن ارتفاع متوسط الأعمار في معظم الدول في الوقت الذي نشهد فيه ظهور أمراض جديدة ، وتتسع غوائل المخدرات فيه يوميا ؟

– وما معنى الحديث عن تقدم التخطيط الإقتصادي في الوقت الذي تتزايد فيه الهوة اتساعا بين الحيوب وبين المستودعات ؟ ما معنى كل دراسات الجدوى الإقتصادية طالما أن المخزونات الفائضة في المستودعات من بعض السلع تزيد عن حاجة سكان الأرض ... وقبل أن تفغروا أفواهكم دهشة نقول إن ترسانات الأسلحة (وهي سلع أيضا) تكفي لتدمير كوكب حجمه أضعاف حجم كوكبنا الأرضي . ولكن هناك فوائض من السلع في كل دول العالم ، تجعل أي طفل يضحك من قدرة الأكاديميين على تسويق فرضياتهم بين الناس ، وفي أوساط طلابهم .

– وما معنى الحديث عن حل أزمات السكن ، وما معنى إقامة كل مشاريع الإسكان ، إذا كان المواطن العادي لا يستطيع الحصول على مسكن لائق إلا بشق الأنفس ؟ هل يدرك المخططون أبعاد مشاكل السكن على الأمن الإقتصادي والإجتماعي للمدن والدول.

وما معنى الحديث عن التطوير المدرسي ، إذا كان التفكير مشطوبا من المناهج المدرسية ؟ أين هي مادة التفكير بين مواد القراءة والكتابة والحساب والتربية البدنية واللغة والفن ؟ ألا تلاحظون أننا تعلمنا كل هذه المواد دون أن نتعلم كيف نفكر في مختلف المواقف ؟ بل وفي مختلف هذه المواد . إننا نتعلم مبادئ

الإقتصاد والمحاسبة والإدارة والتسويق ، ولكننا لا نتعلم كيف نفكر عندما نمارس أعمالنا في هذه التخصصات وغيرها .

هذا هو محور هذا الكتاب : لن نأخذ دورنا في بناء أنفسنا والعالم من حولنا إن لم نعرف كيف أن نفكر في الأيام المقبلة .

إن المشكلة الأساسية التي تواجه الإنسان ظلت على حالها دون حل ، على الرغم من كل مظاهر التقدم العلمي ، وتتمثل هذه المشكلة في رضا الإنسان عن عقله وعن تفكيره وعن معتقداته . ومن المفارقات المهمة ، أن الإنسان قد يحسد أو يغبط أي شخص على أية نعمة أنعم الله بها على ذلك الشخص ، باستثناء نعمة العقل ، حيث نجد أغلبية البشر زاهدة فيها ومعرضة عنها ، وفرحة بما لديها من عقل ، ومن معتقدات أفرزها هذا العقل . ويعني ما سبق : انه لا بد للتطوير العقلي كي يحصل من الإعتراف بضرورته أولا ، إذ لا يمكن أن نطور تفكيرنا (وعقولنا) إذا كنا قانعين بما لدينا . إن المريض الذي يؤمن انه سليم معافى ، من الصعب أن يسير إلى عيادة الطبيب طوعا ، ومن الصعب أن يتجاوب مع العلاج ...إنه لا يشعر بأهمية كل ذلك . يجب أن نعترف أولا ، أننا نعاني من قصور لا بد من علاجه ، ويجب أن نعترف أيضا ، أن لدى كل واحد منا منجما من ذهب (حقيقي) لا يستعمل منه إلا النزر اليسير ولا يسبر أغواره ومكامنه .

ومقابل ذلك ، فإننا نسمع بين الفينة والفينة من يردد مقولات من مثل أن (العقل العربي) قاصر ، أو غير قادر على المنافسة ، وأن (العقل الغربي) أكثر إبداعا . إن كل هذه المقولات هي مقولات عنصرية لا أساس لها على أرض الواقع. وحتى عندما ينجرف (مفكرون) كبار إلى الحديث عن أزمة العقل العربي

أو ما يشبه ذلك من العناوين التي تستهوي بعض النخب الفكرية ، فإننـــا يجـــب أن نبادر فورا إلى نبذ مثل هذه التصورات . ليس هناك عقل عربي ، وآخر أوروبي ، وثالث أمريكي ،هناك عقل بشري . تماما كما أنه لا توجد للدم هويـــــة قوميـــة أو عرقية ، فإنه لا يوجد لهذه الآلة البشرية – العقل – هويات من أي نوع ، باســتثناء أنها آلة إنسانية عامة ، قد يحسن الإنسان استخدامها ، وقد يسيء . ولا يوجد (فكر) إنساني تم إنتاجه من مصنع عقلي واحد. إن من يعاملون التفكير الإنســــاني علـــى أساس (شهادة المنشأ) يغالون في تبسيط الفكر الإنساني الذي لا يمكن أن يــــأتي إلا نتيجة التفاعل المستمر ، داخل نفس العقل ، ومع التجارب العقلية الأخرى . وهكـذا قد نجد فكرة ما نستطيع أن يعطيها شهادة منشأ محدد ، فنقول إنها فكرة فلان ، أمـا التفكير فهو نهج لا بد من التفاعل المستمر . وفي القرآن الكريم ، نجــد أن الفكــر نادرا ما يأتي بمعنى العقل الذي يولد مرة واحدة ، بل إن اللفظة الأكثر اســـتخداما هي (يتفكر) بما توحيه من استمرارية وتواصل . أما إساءة البعــض فـــي تطبيـــق بعض قوانين حقوق الملكية الفكرية فليست حجة صالحة في هذا المقام .... لأن من (يسرق) آلاف الأفكار ومئات الكتب ، فإنه يعتبر باحثا !!

إن أي مفكر لا يمكن أن يبدأ من الصفر ...وإذا كانت البداية (المستقلة) مـــن الصفر مستحيلة ، وغير مجدية في مجال النهضة والتجارب العلمية المادية ، فإنـــها اكثر عدمية في مجال التفكير . وهكذا ، لا نجد ضيرا من أن نعلن أننا ننطلق فــــي تفكيرنا ، وفي الطروحات اللاحقة عن إدارة العقل البشري من المفهوم الإســــلامي للتفكير كمنهج لا بد أن يؤدي إلى الوصول إلى الحقائق الكفيلة بإسعاد الإنسان فـــي العالمين الأرضي والسماوي . وهكذا فإن الحوار مع أي مفكر (غير مسلم) لا يعني رصد النواحي التي يتفق فيها مع الإسلام ، أو تصيد بواطن الإختلاف ، أو محاولة

إثبات ما نعتقد انه ثابت من صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، بـــل إن الـــهدف الذي يرمي إليه الحوار التالي هو التقاط بعض التطبيقات العلمية في مختلف نواحي الحياة مما نستطيع أن ننطلق فيه من فكرنا الإسلامي الأصيـــل ، وبشـــكل يوطـــد قناعاتنا الموجودة أصلا ، بأن الفكر الإسلامي ليس فكرا من العصور الوســـطى ، وانما هو فكر العصور التالية ، الذي يسعى غير المسلمين لبلورته ضمن محـاولات التجربة والخطأ ، في ظل عدم وجود نظرية شمولية لديهم في هذا المجـــال . إن تفاصيلهم تؤكد صدق ومصداقية موروثنا ، فأين مساهماتنا نحن كأفراد مســلمين ؟ إن تفاصيلهم ليست حجة على الإسلام ، أو معه ، بل إنها حجة علينا كوننا أجدنـــا التعامل مع الفكر الإسلامي كمرجعية دينية فقط ، وليس هذا عيبا ، ولكـــن الفكـــر الإسلامي مرجعية دنيوية أيضا ، تستطيع التعامل مع الوقائع اليومية والتطـــورات الفكرية الأخرى ، حتى لو كانت قد تطورت بعيدا عن سياق التفكير الإســـلامي : وليست هذه القدرة لأي من الأديان الأخرى ...وقد عشنا كثيرا من هذه التجـارب ، ولكننا لم نتوقف عندها مطولا ، ألم نلاحظ مثلا كثرة الكتابات والمناقشـــات التـــي دارت حول القرآن ،والماركسية ...هل يمكن أن تجري مناقشة مماثلة بين التـــوراة (أو حتى التلمود) وبين الماركسية ؟ أو هل يمكن إجراء دراســـة حـــول الإعجـــاز العلمي في التوراة ؟ ولماذا قبل بعضنا بفكرة تعارض الدين والعلـــم ...لمجـــرد أن الكنيسة لم تقتنع بأن الأرض كروية ؟

ومن الناحية الشكلية ، فقد اطلقت على هذا الحوار اسم الدراســـة فـــي تجـــن مقصود على أساليب البحث العلمي (الصارمة) المتبعـــة فـــي بعـــض مؤسســـاتنا الأكاديمية ، لأن المهم هو المعتقدات – كحالة فكرية موجودة – بصرف النظر عن كون هذا أو ذاك قد اعتقدها أو عارضها . إن الأمر أشبه بالفارق بين البحث عـــن

تطبيقات جديدة لقانون الجاذبية ، وبين الإصرار على نسبة قانون الجاذبيـــة إلـــى نيوتن ، كلما تطرقنا إلى موضوع ذي علاقة بالجاذبية . إنني أريد من الســـاعة أن تطلعني على الوقت لأن من يسألني غير مهتم بمنشأ ساعتي بل يريـــد أن يعـــرف الوقت فقط . إن القول هو المهم وليس القائل . لنتذكر ذلك في كـــل مؤسســـاتنا . فالعبرة بالنتائج ، والأعمال بخواتيمها ، إن الحديث هنا هو عن فكر يتفاعل بشـــكل تختلط معه الحدود وتتقاطع التخوم إلى حد شائك بعيد . أما التوثيق الـــذي يصـــر البعض على انه (التوثيق العلمي)، فإنه توثيق تاريخي مكانه رفـــوف المكتبـــات ، وأجهزة الحاسوب . إن نقل الأقوال كما هي ، دون معاملة عقلية ، هو عمل يســـير أقصى ما يهدف له هو التمكن من استرجاع هذه المعلومات متى أردناها، إن هـــذا العمل يتعلق بالتاريخ وبالماضي أكثر من تعلقه بالعلم وبالمستقبل. أمـــا إذا أردنـــا البحث في تطوير مهارات التفكير ، فإننا بحاجة إلـــى معاملـــة هـــذه المعلومـــات ومعالجتها في دهاليز أدمغتنا ، وهناك سنجد أن التفاعل (الكيميائي) يلغي كثيرا مـــن صفات العناصر الداخلة فيه ، ويحدث صفات جديدة للمركب الجديد . وهذا يختلـــف عن المخاليط . إننا لا نرغب في حصول أي تفاعل بين حبر وورق الكتـــاب (لأن هذا يؤدي إلى ضياع المعلومات المطلوب حفظها) الـــواردة والموجـــودة، وكلمـــا ازدادت رغبتنا في الحصول على أعلى حد من الفائدة ، كلما تحتـــم علينـــا إزالـــة الحدود بين هذه الفكرة وتلك لأن عدم احتدام هذا التفاعل في العقل ســـيؤدي إلـــى ضياع فرص الخروج بمعلومات جديدة .

ويبقى السؤال : لماذا تصر بعض مؤسساتنا العلمية على أن يقوم العقـــل مقـــام الحاسوب ، ويقوم الحاسوب مقام العقل ...ألا يؤدي ذلك إلى إفساد عمل الطرفيـــن معا ؟ إن ما يقوله دي.بونو هنا مدهش تماما : إن الحاسوب هو آلة فـــي منتـــهى

التعقيد ، ولكن عملها في غاية البساطة . أما العقل البشري فهو آلـة فـي منتـهى البساطة من حيث التكوين ، وعلى غاية التعقيد من حيث العمل .

تقوم هذه الدراسة في معظمها على عرض ومناقشة أهم مبادئ النظـام العقلـي الجديد كما وردت في كتاب المفكر د.إدوار دي بونو المالطي المولد ، الأمريكـي التأثر والتأثير ، والذي يمكن اعتباره بحق فيلسوف النظام العالمي أو النظام العقلـي الجديد ، ذلك النظام الذي فصله دي بونو في كتابه "أنا على صواب ... أنت علـى خطأ" والذي حاول الإنتقال فيه من هذا العصر إلى عصر النهضة الجديـدة القـائم على منطق الماء لا على منطق الصخر . فمن هو دي بونو ؟

ولد إدوارد دي بونو في مالطا ، وبعد أن تلقى تعليمه الأساسـي فـي كليـة القديس إدوارد – مالطا ، وفي جامعة رويال في مالطا ، حيث حصل على درجـة علمية في الطب ، فإنه مضى إلى كنيسة كريست بجامعة اكسفورد كبـاحث علـى حساب ما تسمى ببعثات رودس – بعثات المحميات البريطانية إلى جامعة اكسفورد حيث حصل على درجة شرف في علم النفس وعلم وظائف الأعضاء ، ثم علـى دكتوراة في الطب . كما أنه يحمل درجة دكتوراة من كامبرج . وعمل فـي عـدة وظائف تدريسية في جامعات اكسفورد ولندن وكامبرج وهارفارد .

إن د. إدوارد دي بونو يعتبر مرجعا بارزا في التعليم المباشر للتفكير كمـهارة . وقد نظم مفهوم "التفكير الجانبي "(الذي دخل قاموس اكسفورد الانجلـيزي) ، كمـا طور د.دي بونو تقنيات للتفكير المتأني الخلاق ، وقد كتب خمسة وأربعيـن كتابـا ترجمت إلى سبع وعشرين لغة ، وقد أصبحت تعاليمه في التفكـير محـل سـعي

الكثير من كبريات الشركات فى العالم من أمثال آ.بى . أم ،ون. ن. تي-اليابـــان، وشيل، وايريكسون ، وماك كنيساس ، وجيبا-جيجي ، وفورد وكثير غيرها .

ويدير د. دي بونو أكبر برنامج لمناهج تعليم التفكير في المدارس والتي أصبحـــت تطبق في دول كثيرة في أنحاء العالم . وهـــو أيضـــا مؤسـس معـــهد الأبحـــاث المعرفية(1969)، والمنتدى الإبداعي العالمي الذي يضم الكثير من كبريات الشركات في العالم .كما أنه أقام مكتب الإبداع العالمي في نيويورك لمساعدة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة على توليد أفكار جديدة .

إن عمل د. دي بونو يستند إلى فهمه للعقل على أنه نظام معلومات ذاتي التنظيـم ولكن الخطورة في هذا العمل تكمن في التطبيقات العملية لهذا الفهم ، وبخاصة في المجالات السياسية والإعلامية . ويمكن القول إن هذا النظام الذي وضعــــه د. دي بونو على مدار سنوات طويلة (حوالي 30سنة)شكل القاعدة الفلسفية للنظام العقلـــي العالمي الجديد ، والذي جاء النظام الدولي الجديد كتطبيق سياســـي لـــه ، كمـــا أن العولمة الإقتصادية تستند إليه كثيرا.

إن من المثير للإنتباه أن التطبيقات السياسية والاقتصادية لعمـــل دي.بونـــو قـــد حظيت باهتمام عربي واسع ، أما النظام العقلي نفسه فلم تتم مناقشته حتى الآن .

الفصل الثاني:

مقدمات حوارية

في هذه الدراسة نحاول مناقشة طروحات دي بونو ، دون التسليم بما ورد في كتابه ، ولكن دون الإعتماد أو الإستناد إلى مواقف مسبقة شخصية أو تعصبية من أي نوع...أي أن التوجه الذي تم اعتماده هنا هو التركيز على الفكرة ، لا على المفكر ، وعلى القول لا على القائل بصرف النظر عن مواقف الكاتب أو تحيزاته . مع التنبيه إلى الأهمية المتزايدة لأفكار دي بونو في الغرب،ولا أدل على ذلك من:-

1-التطبيقات الاقتصادية والسياسية والإعلامية......... الخ المختلفة التي أخذنا نلحظها منذ نهايات القرن العشرين ، وكثير منها مستقى من تعليمات دي بونو . أي أننا نتناول هذا العمل من واقع موقعه في التأثير على مراكز صناعة القرارات المهمة ، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

2-المناقشات الواسعة على الصعيد الأكاديمي لهذه الطروحات في الغرب ، الأمر الذي يبدو جليا في تقديم ثلاثة من الحائزين عل جائزة نوبل لهذا العمل موضع البحث ، ونوردها تاليا كما هي [*] :

---

[*] **وردت المقدمات الثلاثة في كتاب دي . بونو " أنا على صواب ... أنت على خطأ".**

أولا: تقديم ايفار جايفر

د.إدوارد دي بونو هو رجل ذو رسالة انه يريد تعليم الناس كيف يفكرون بشكل خلاق . إنه موجد طريقة التفكير الجانبي ، وهي أداة تتعلق بالمفـــاهيم وتســتخدم لتعزيز التفكير الإبداعي . علي أن أعترف أنني كنت متشككا جدا عندما قدمت إلـى هذا النظام للمرة الأولى ، أما بعد قراءة هذا الكتاب فقد آمنت به. أن هناك كثـيرا من القصص المتداولة عن علماء كانت لديهم ومضات قوية مفاجئة مـــن الرؤيــة الداخلية تبدو وكأنها لم تأت من أي مكان . ولكن الحقيقة هي أن العلماء عادة مــا تستحوذ عليهم أفكارهم بحيث يظلون يقلبونها في عقولهم بإستمرار ســواء كــانوا يقودون سيارتهم ، أو يأكلون ، أو وهم نائمون ،أو وهم يمارسون الحب. إن هــذه العمليات التأملية تسمح لنبضات لا رابط بينها كي تقـــدح الزنـــاد فـــي الدمـــاغ* و..."وجدتها" ! إذ أن حلا غير متوقع يظهر فجأة . وفي التفكير الجانبي فإن هــذه الطريقة التي تبدو وكأنها حصلت مصادفة ، تحل محلها طريقة قصدية تؤدي إلـــى حل المشاكل بشكل موصف مسبقا وبطريقة منظمة .

في كتاب "أنا على صواب-أنت على خطأ" ، يؤكد د. إدوارد دي بونـــو علـــى مفاهيم عديدة بشأن السلوك الإنساني ، وعلى سبيل المثال ، فإن روح الدعابة كانت سابقا مهملة إلى حد كبير في الفلسفة ويعتبرها دي بونو ذات أهمية مركزية في فهم

---

* **على الرغم من أن مصطلح العصف الفكري قد لاقى قبولا حسنا، وبخاصة لدى العاملين في الأوساط التربوية والتعليمية، إلا أن قدح زناد الفكر، أكثر تعبيرا عــن الحالة العقلية المقصودة. بالمصطلح الإنجليزي** Brain Stormming .

التفكير الخلاق ، ووجهة نظره هذه ربما يمكن الظفر بها بشكل أفضل بتلخيص مقولة ديكارات :"أنا أضحك ، فأنا موجود".

حقا أن الأمور المعقدة يمكن أن نوضح بمصطلحات بسيطة إذا كان من يعرضها لديه فهم شامل للموضوع. ودي بونو هو استاذ في هذا الفن،

وهو يصف بعبارات واضحة كيف ولماذا تفكر المخلوقات الإنسانية . وإن كتابه "أنا على صواب ، أنت على خطأ" هو ذو أهمية كبرى لكل من يريد أن يفهم الفكر والسلوك الإنساني .

وإضافة إلى المناقشة المستفيضة للكثير من نواحي العقل الإنساني ، فإن دي بونو يدير كتابه بنشاط كي يشرك القارئ معه . وعلى سبيل المثال فإنه يوضح بذكاء أنه إذا تمكنا من فهم الدماغ، فإن ذلك ستكون له نتائج هائلة على الشؤون الإنسانية . وبعد ذلك يفاجئ القارئ ، لا بل أنه ربما يصدمه بعبارة تبدو متناقضة في ظاهرها ، مفادها أنا بالفعل نعرف كيف يعمل الدماغ . وطبيعي أنه مخطئ هنا ولكنه مصيب أيضا ، فرغم أننا لن نفهم تفاصيل كيفية عمل الدماغ، لفترة طويلة قادمة ، إلا أن دي بونو يجادل قائلا إن هذا لا يهم ، لأننا نفهم ذلك من حيث المبدأ. وهو يؤكد على أن الدماغ ليس منطقيا بالوراثة ، بل أنه أكثر قربا إلى آلية تدرك النماذج ، وهي تتحرك من حالة إلى حالة بأسلوب غير قابل للتوقع [*]، وعلى سبيل

[*] إن هذه التنقلات لها نسقها، وهي قابلة للتوقع، ولكن المشكلة أننا لم نصل بعد إلى الإحاطة الكافية بأساليب عمل الدماغ البشري، وبقينا عاجزين حتى الآن عن إدراك التناسق والترتيب المدهش الذي يعمل الدماغ البشري بمقتضاه .

المثال ، فمن ناحية ما : إنك إذا شممت رائحة خبز طازج ، (أو أي شيء آحر قد يهز ذاكرتك)، فإنك ترجع إلى السابعة من عمرك فجأة ، وتجد نفسك وقد نقلت إلى مطبخ أمك . وفي الناحية الأخرى ، فإن دي بونو يوضح أن"كل فكرة ذات قيمة ، يجب أن تكون منطقية من حيث الرؤية .

المتأخرة" وان الأوراق العلمية هي مثال جيد على ذلك ، إنها تكتب بطريقة منطقية رائعة ، ولكن التقدم العلمي الذي سبق هذه الأوراق جاء معتمدا على الحدس، والمصادفات والخيال والحظ .

لقد حدثت مؤخرا الكثير من النقاشات في دوائر الذكاء الاصطناعي حول ما إذا كان يمكن أولا يمكن للحواسيب أن تتعلم كيف تفكر مثل البشر. والحواسيب بالطبع ، خبيرة في الجداول واللوغاريتمات (أي الاستغلال المنطقي) ولكن هذه اللوغاريتمات لا يمكن أن تعادل التفكير الخلاق ، كما يبين روجر بين روز في كتابه "إمبراطور العقل الجديد" ، ولكن هناك أساليب جديدة في التعامل مع الحواسيب–أو ما تسمى بالشبكات العصبية ، التي تحاول بشكل بدائي تقليد الخلايا العصبية في الدماغ الإنساني . ويمكن العثور على وصف رائع ومسل لهذه الطريقة في كتاب دي بونو حيث يوصف الدماغ على سبيل التشبيه بأنه شاطئ ملئ بالأخطبوطات . رغم أن شبكات الحاسوب العصبية لا تزال في مرحلتها الإبتدائية في الوقت الحاضر ، إلا أن حقيقة كونها منظمة ذاتيا تجعلها مشابهة للدماغ* .

*** نلاحظ أن الكاتب قد أخطأ هنا في نقطة جوهرية وهي أن الشرط الأساسي لسلامة عمل أي حاسوب هو عدم حصول تفاعل – وبخاصة كيميائي – بين السطح الذي يحتفظ بالمعلومات، وبين أية ظواهر خارجة أخرى، إذا أردنا=**

نقطة أخرى جديدة بالذكر أوردها دي بونو هي الدور الفريد من نوعه ، ولكـن المحدد الذي تلعبه اللغة في الإتصالات الإنسانية . ويشعر دي بونو أننا وقعنا فـي أشراك لغاتنا ، ويقول ،"في أحد مفاهيمها ، فإن اللغة هي متحف للجـهل" وكمثـال على ذلك ، فإن الكلمات تتجه إلى الاستقطاب والتصنيف : فأنت إما أن تكون مذنبـا أو بريئا ، مخطئا أو مصيبا ، سعيدا أو حزينا ، ويسمي د.بونو هذا التصنيف بأنـه التمييز القاطع (knife edge discrimination) إن نظام منطقنا التقليدي* يقتصر على

=الحصول على استرجاع سليم للمعلومات المحفوظة . أما الدماغ البشري ، فـإن عمله يقوم على التفاعل بين السطح الذي يحتفظ بالمعلومات، والمعلومات، والبيئة (الداخلية والخارجية). في الحاسوب هناك تجميد للمعلومات ومحاولة لاسترجاعها كما هي، أما الدماغ فيقوم عملـه علـى التفـاعل وتغـيير المعلومـات . أي أن الاسترجاع أو التذكير جزء من عمل الدماغ البشري، ولكنه ليس العمـل الوحيـد لهذا الدماغ .

*** واضح أن دعاة النظام العقلي الجديد يبذلون قصارى جهودهم لإلغاء المطلقـات من التفكير الإنساني . ولكن كل هذه المحاولات لا تصمد أمام الواقع ، إن هنـاك مفترقات خطيرة في الطبيعة وفي حياة الإنسان لا يستقيم التعبير عنها لغويـا إلا باللجوء إلى المطلقات ، والى التصنيف القاطع، فقد تكون أمام جسم إنسان يصعب علينا أن نضعه ضمن تصنيف الأحياء أو الأموات فترة طويلة، ولكننا في النهايـة لا بد أن نصل إلى حكم قاطع في لحظة ما ، فنقول إنه ميت ، أو انـه حـي . ولا نريد الخوض هنا في تفاصيل وجود سلوك خير وسلوك آخر شرير من وجهة نظر الأديان السماوية . ولكننا نقول إن وجود طائفة واسعة من الألوان لا ينفي وجـود الأسود والأبيض، وإن وجود لحظات يختلط فيها الأمـر علينـا فـلا نسـتطيع=**

هذا التقسيم ويعتمد عليه ، والذي يشير إليه المؤلف على أنه "منطق صخر" مناقض لمنطق الماء الذي ليس مطلقا ، ولكنه متغير حسب الظـــروف والمحتويـــات . إن الإدارات والذكريات وتجارب الحياة تلعب دورا في الاتصالات والتعابير الإنســانية أكبر بكثير مما يعتقد الناس . وعلى سبيل المثال ، فإن معظم العاملين في الفنـــون يعتمدون على الثقافة ، رغم أن الفن العظيم قد يخاطب الوجود (الإنساني)إذا مـــس العوامل الإنسانية المشتركة .

وإذا كنا أسارى شراكنا اللغوية ، فكيف لي أن أصف على أفضـــل وجـــه كتاب (أنا على صواب-أنت على خطأ) إنه أكثر من عنوان آسر ، وهو يدعـــو إلى ما لا يقل عن ثورة في تفكيرنا (إن دي بونو يشير بشـــجاعة إلـــى نهضـــة جديدة)وأن هذه كلمات كبيرة وعناوين عريضة ، وقد تبدو مدوية بالنســـبة إلـــى البعض ، ولكننا نعيش في وقت غاية في الإثارة ، وهو زمان غير عـــادي . وأن القطار الذي يقودنا باتجاه المستقبل انطلق للتو ، وأن د.دي بونو هـــو بالتـــأكيد واحد من المسافرين ،وهو يعترف لميخائيل غورباتشيف* بأنه زميل سفر علـــى نفس القطار" .

=اعتبارها ليلا أو نهارا ، لا يعني أن ليس هنالك نهار وان ليس هنـــالك ليـــل . هناك مراحل لا بد فيها وعندها من إصدار الأحكام القطعية .

*** ميخائيل غورباتشيف (M.Gorbachve) سياسي سوفييتي من مواليـــد ســـنة 1931، أصبح أمين عام الحزب الشيوعي السوفييتي سنة 1985،ومنذ مطلع ســـنة1987 بـــدأ غورباتشيف باتخاذ خطوات تقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية، ضمن فلســـفة إعادة البناء التي انتهجها ، حيث حاول التخلص من السيطرة المركزية= =للدولـــة**

ثانيا : تقديم بريان جوزفين

((إن فرضية إدوارد دي بونو فى هذا الكتاب هي أننا نعطي وزنا كبيرا للنتائج التي تستند إلى المنطق . أن التفكير المنطقي هو تفكير يعتمد على الإفتراضات وعلى تقييم صدق أو زيف هذه الإفتراضات . والفائدة الأولى لهذا التفكير تأتي في المواقف التي يمكن الركون فيها إلى أن الحقائق سوف تبقى حقائق وبكلمات أخرى في الظروف التي من غير المحتمل أن يحدث فيها شيء جديد فعلا أو غير متوقع .

أما الوجه الآخر للأمور استنادا إلى مشروع د. دي بونو فهو الإدراك فعندما ننظر إلى العالم من حولنا ، فإننا نرى إن كنا متيقنين بما يكفي ، ما يحدث في هذا العالم فعلا ، حتى لو لم يكن هذا الذي يحدث فعلا هو نفس ما نتوقع أن نراه هناك.

وعندما نحول انتباهنا من العالم حولنا إلى عالم الاحتمالات الذي يمكننا أن نصله بعقولنا . فإن الإدراك لا يعمل بشكل جيد تقريبا . إذ نفشل غالبا في رؤية ماهو واضح حتى يكون الوقت قد فاتنا . أو حتى يراه شخص غيرنا ،وفي

على الإقتصاد والإعلام ، ولكنه لم ينجح في خلق أو حتى وضع تصور لبدائل بنفس القوة ، إلى أن هدده شبح الفوضى والحرب الأهلية في الإتحاد السوفييتي كله إلى أن تفكك وانهار . لقد لاحظ العالم وتابع كل التطورات السياسية والإقتصادية الناجمة عن تطبيق النظام العقلي الجديد ، ولكن قليلين فقط هم الذين انتبهوا إلى الفلسفة العقلية التي ولدت هذه التطبيقات .

أغلب الأحيان ، فإن ما نراه على أنه القضية...لا يكـون هـو القضيـة علـى الإطلاق .

ما هو سبب ذلك ؟ استنادا إلى د.دي بونو فإن السبب هو معتقداتنا الصارمـة "ومنطقنا الصخري". إن هذه تستولي على عقولنا ، وتقرر لنا كيف نصل إلـى إدراك الأشياء .

أما هذا الكتاب فله نصيب أكبر في طبيعة التحليل وتشخيص أنواع المواقـف التي تؤدي إليها نماذج التفكير الصارمة ، مبينا كيف أن الأمور يمكن أن تسـير في الاتجاه الخاطئ ، وكيف يمكن لها أن تتم بشكل مختلف . وعلى سبيل المثال، ففور أن تأتينا الفكرة ، بأن فكرة ما قد اقترحت علينا للتو ، إنما هي نفس الفكرة التي سبق أن سمعنا بها من قبل ، فإننا نتجه إلى التفكير بأن " لا جديد في هـذه الفكرة"، وهكذا نحجم عن التفكير فيها أكثر . ولكن وجود عادات مختلفة للتفكـير سوف تحد من مثل هذه الاستجابة الآلية بحيث تسمح للعقل بأن يمكث مع الفكرة الجديدة برهة من الوقت حتى يراها بوضوح * .

---

* **" هذا الشيء هو نفس ذلك " هي العبارة التي تسمعها كلما تشابهت الأمور على الناس – أو عندما يحاول إنسان أن يقنعك أن فكرتك غير جديدة، وأن سلعتك غير مميزة، وأن خدمتك ليست نسيج وحدها . ونلاحظ أن الباعة ومندوبي المبيعـات يسمعون هذه الجملة كلما عرض الواحد منهم سلعة أو خدمة على زبون أو علـى زبون محتمل، فهذا يقول إن نفس هذه السلعة عرضت عليه قبل سنوات، وآخـر يقول إن جاره حصل على نفس الخدمة بسعر أقل. إن هناك نمطا تفكيريا يمنـع=**

إنني لا أعتقد أن شيئا مثل التفكير الجانبي لم يكن موجدا قبل أن يخترع إدوارد دي بونو هذا المصطلح . بل أن هناك الكثير من الناس الذين يفكرون بطرق غير تقليدية ، وغالبا ما يحالفهم النجاح ، دون أي استخدام من جانبهم لأية تقنيات خاصة من تقنيات "التفكير الجانبى". وهناك أساليب أخرى (مثل التأمل)في التعامل مع مشكلة إدراك الطاقة الكامنة للعقل ، ولكن ثقافتنا هي ثقافة مشككة حيال أية أنواع من التفكير التي تعمل بطرق مختلفة عن المنطق ، وإلى حد كبير جدا ، فإن التفكير المنطقي هو النوع الوحيد من التفكير الذي يتم تشجيعه في نظامنا التعليمي . وإن د.دي بونو يحسن صنعا عندما يكشف بكل وضوح أخطاء هذا النظام الذي يعتمد بشكل حصري على ناحية واحدة من العقل فقط .

=الإنسان من رؤية التميز والتمايز بين الأشياء المتشابهة. وهنا يجد المبدع سواء كان مفكرا أم بائعا – أنه تعرض للبخس، وان الطرف المقابل قد غمطه حقه، أو لم يستطع أن يلتقط الفرق بين هذا - الجديد – المعروض أمامه، وذاك القديم الموجود في عقله . إن الدين الإسلامي يحث على المسلمين على أن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يقدروا قيمة الأشياء بصفتها نعما من نعم الله عليهم. فالمسلم لا يمط شفتيه عندما تعرض عليه سلعة قد تفيد في تسيير أو تيسيير أمور الحياة الإنسانية . وهكذا، فهو يقابل من يعرض عليه سلعة أو خدمة أو فكرة بكل تقدير دون أن يمنعه ذلك من أن يكون كتسا فطنا، يدرك الفروق بين الأشياء دقيقها وجليلها.

كما أن الكتاب يقترح نماذج مختلفة لكيفية عمل الدماغ.وتستخدم هذه النمـــاذج بتبسيط "منطقية" عمليات الإدراك التي توضح نواحي ذكية من العقل رغم كونها غير منطقية .

ولكن العلماء التقليديين لم يذهبوا حتى الآن شأوا بعيدا في تطبيـــق مثـل هـذه النماذج كبديل عن النماذج المنطقية التقليدية على أرض الواقع ، فمثل هذا النوع من التطبيق الواسع النطاق المبني على فهم طبيعة التفكير-لا يزال بعيدا عنا *.

---

* ولكن ما تم تناسيه هنا أن النظام العقلي الجديد كما طرحه دي . بونـــو ليـس جديدا على الفكر الإنساني. لقد سلمت أوروبا – والغرب عموما – مقاليد التفكـير لقواعد المنطق اليوناني، ولكن= الفكر الإسلامي كان قد اصطدم مع هذا المنطـق، ووضع بديلا متكاملا له كما سيتضح لاحقا في كثير من المسائل .

إن الفكر الغربي هو الذي يبحث عن بديل للمنطق اليوناني، أما الفكر الإســلامي فإن بديله موجود، ويتمثل في إعمال العقل – وليس المنطق. والفكر الغربي هـو الذي سلم بالديمقراطية اليونانية، وأخذ يبحث الآن عن بدائل لـــها ، أمــا الفكـر الإسلامي فإن بديله جاهز بشكل متكامل ضمن ثلاثة محاور:

-تعظيم دور أهل الإختصاص.

-عدم إهمال أية آراء مهما بدت خارجة على النظام العـــام أو نسـق التفكـير الموجود من خلال الشورى .

-اتخاذ القرار بعد المرحلتين السابقتين .

وعندما نقرأ في الفصول القادمة عن أزمة الديمقراطية، فإن أهمية هـذا البديـل الإسلامي تغدو أكثر وضوحا.

ثالثا: تقديم شيلدون لي جلاشو

من الواضح أن النهضة الأخيرة قد استندت إلى إكتشاف طريق التفكير اليونانية القديمة (حوالي400 قبل الميلاد) من منطق وحكم ، وجدل ، وحقيقة وأهمية الإنسان "هذا ما يقوله د.دي بونو الطبيب الأستاذ في فن تدريس التفكير الخلاق . فهل ما زالت هذه النماذج عملية في عالم اليوم المتغير؟

إن العادات القديمة تبدو متناقضة ، وغير ملائمة ، بل إنها ربما تكون خطوة من حيث أن صراعاتنا الاجتماعية لا تزال بدائية كما كانت منذ الأزل ، رغم أن قدراتنا الفنية في متابعة هذه الصراعات أصبحت لا حدود لها . "أنا على صواب، أنت على خطأ" ، كتاب يشير عنوانه إلى لب نماذج التفكير القديمة وهو يصدر دعوة واضحة لنهضة جديدة . إن عادات تفكير اليوم ، لا يمكن أن تظل تعتمد التلاعب بالكلمات ، ولكنها يجب أن تتساوق مع أحدث التطورات التي نشهدها في علوم الأعصاب ، ويجب أن تساير الطريقة التي يخلق بها الدماغ الإنساني الإدراك . إن ما يدفع د. دي بونو لذلك هو أن الشغل الشاغل لكل من يعيش في الديمقراطيات أن يفكر بشكل أفضل ، وعلى أي حال ، فإن ما يقوده بشكل مطلق هو منطقه الخاص المؤدي إلى نبذ الشكل الحالي للحكومات الغربية الحالية حين يقول عن الديمقراطية "إنها طريقة ممتازة تضمن أن لا يتم حدوث شيء * ".

*** وهذا طبيعي طالما أن كل اختصاص لا يملك أكثر من صوت واحد، وطالما أن النخبة القيادية لا تملك أكثر من صوت، وبالتالي ، فإن الهدف يكون الفوز بأكبر=**

إن د. دي بونو يقول إن المنطق المـــائي المســتند إلــى الإدراك يجــب أن يستأصل المنطق الصخري الصدامي الذي تعودنا عليه ، وان يحل محله . وهــو يعتقد أن الوقت قد حان للنهضة الجديدة ، بسبب ما أصبحنا نعرفــــه الآن عــن الدماغ كنظام ذاتي التنظيم .ومن المؤكد أن عمليات تفكيرنا يجـــب أن تحــاكي آليات ادمغتنا لا أن تظل تحاكي الأنماط السابقة المهلكة التي قادتنا إلى الحروب، والبؤس وإفساد كوكبنا . إن الحواسيب الجديدة التي تستند إلى الشبكات العصبيــة تعدنا بأن تفكر مثلنا .

إن د.دي بونو يخاطب المشكلة المناقضة لنظام عمل الدماغ والتي تســتند إلــى تقاليد اللغة لا إلى كيفية عمل الدماغ وهو يود أن يصمم نظام برمجـــة أفضــل للدماغ " .

وليس د.دي بونو وحيدا في مهاجمة الاستراتيجيات المستندة إلى اللغة التـــي توارثناها . إن علماء النفس المؤيدين للحركة النسوية ، وبخاصة ساندرا هاردنغ قد أصابهم القنوط من التوجهات القمعية العدوانية الموروثة في التفكير التقليــدي انهم يسعون أيضا إلى مثال جديد أكثر لطفا يستند إلى الإدراك ، وليس إلى "واقع موضوعي" هو بحاجة إلى النقاش.

وعلى أي حال فإن هؤلاء ينظرون إلى السيطرة الذكورية على إنها تشـــكل جذر المشكلة على حين أن تحاليل د. دي بونو ليست صريحة في تحديد الفصل

=عدد من الأصوات بغض النظر عن صحة أو عدم صحة القرار، لأن الهدف هــو الحصول على شعبية القرار !

الجنسوي * إن هاردنغ تدعو إلى إعادة بنـاء ثوريـة لمؤسسـاتنا الاجتماعيـة والاقتصادية والتعليمية . أما د.دي بونو فليس جذريا إلى هذا الحد بل إنه يقترح مصطلح (التطور التقدمي)من أجل وصف طرح تدريجي ولكنـه شـامل لقيـم وادراكات في مجتمع يمكن أن يعمل فيه المنطقان الصخري والمائي جنبا إلـى جنب . أما فكرة الثورة بشكل مجرد أو التساؤل . عمـا إذا كنـا علـى خطـأ وهاردينغ على صواب ،فإن دي بونو ينظر إليها على إنها نتاج غـير طبيعـي لأنماط فكرية بالية . ومع ذلك فإنه وهم يسعون إلى أهداف متشابهة:-"وسـائل تفكير جديدة يمكن أن تخدمنا بشكل افضل".

أنني أستطيع أن أتذكر محاولة أخرى سابقة-ولكنها كانت فاشلة-هدفت إلـى الوصول إلى نظام منطقي جديد . ففي "العلوم وسلامة العقل" استند الفرد كورزي بسكي في تحليلاته إلى ما كنا قد تعلمناه عن العقل سنة1933، وادعى كـورزي بسكي أن النظريات الحالية للمعنى مربكة جدا، وبلا أمل مطلقا، ومؤذية لسـلامة النوع البشري...وأننا نواجه هجرا كاملا من ناحية منهجية للتوجه الموضوعـي ذي التقييم الثنائي إلى توجه اكثر عمومية غير محدود القيمة...

---

* **رغم أن هذا الطرح هو جملة معترضة في سياق البحـث العـام فـي التفكـير الإنساني، إلا أنه لا بد من التذكير بأن القفز عن الفوارق الجنسوية البيولوجيـة لا يؤدي إلى نتيجة عملية هنا . وفي الفكر الإسلامي، فإن هنالك تكاملا بين الرجـل والمرأة من النواحي البيولوجية، وهناك مساواة من حيث المعتقـدات والسـلوك، فكم من آية تخاطب المؤمنين والمؤمنات بشكل يقرر لكل جنس سماته البيولوجية ولا يلغيها، ولكنه يساويهما من حيث التكليف الشرعي، والعقل مناط التكليف.**

والمشكلة تكمن في السؤال: هل نتعامل مع الأساليب العلمية لسنة 250 ق.م أو لسنة 1933بعد الميلاد؟ إن نظرية اللاآرسطوطاليسية للعالم ، لم تفعل إلا القليل من أجل دفع عقد آ ت من الموت والدمار ، ولكننا منذ ذلك الوقت وحتى الآن تعلمنا ما هو أكثر بكثير عن طبيعة العقل والدماغ .

ولكن هل تعلمنا ما يكفي لأن نصوغ طريقة فعالة جديدة للتفكير تستند إلى الإدراك وليس إلى الكلمات؟ طريقة قابلة للتبني ولكنها ليست صدامية وقادرة على التخيل والابداع ولكنها ليست تكرارية نمطية؟ من المؤكد أننا لا نستطيع حتى الآن أن نبني دماغا اصطناعيا. وإن الحواسيب المتفوقة وان كانت سريعة إلا إنها عجماء * .

---

* **هنا اعتراف صريح بأهمية اللغة، ليس للنطق فقط، بل كوعاء للتفكير . والمثال الذي تورده الكاتبة لاحقا يؤكد أيضا على أهمية اللغة في التفكير . وهنا تكمن نقطة مهمة في أزمة الفكر الغربي ، ألا وهي أنه لا بد أن يعظم جانبا على حساب جانب (في أية دراسة)، ومن النادر أن تجد جنوحا نحو (الوسطية) المطلوبة لإدارة الحياة العقلية للإنسان بشكل متوازن ... وكما نلاحظ فإن تعظيم دور العقل لا بد أن يواكبه هجوم على اللغة ، تماما كما يحصل في فهم قضية الرجل والمرأة... لا بد أن يكون هناك صراع : فإما الرجل أولا أو المرأة أولا، وهكذا يحمى (الجدل)، وتضيع أصوات العقل التي تقول بأن العلاقة علاقة تكامل وتعاون، وليست علاقة تناحر أو تنافس على الموقع الأول، وأن لا فضل لرجل إلا بعمله وليس لمجرد كونه رجلا، وكذلك المرأة. كذلك الحال، عندما تجري دراسة الذكاء: فمن قائل إنه مطبوع (وراثي)، أو أنه مصنوع (بيئي)، ولم يكن حسم الجدل ممكنا**

وان اكثر انجاز يدعو إلى الفخر بشأن علم الشبكات العصبية الواعـــد هـــو مجرد دمية تقرأ بصوت عال من نص مكتوب دون أن تقع في الكثير مـن زلات اللسان!

إنها تتكيف، وتدرك النماذج، ولكنها لا تفكر . وعندما يقول د.دي بونو "أننـــا نفهم منذ الآن كيف يعمل الدماغ" ، فإنه يتحدث كرجل عيـــادة ، وليـــس كعـــالم ابحاث. إننا نستطيع من خلال الإدراك الحيوي لحقيقة أن الدماغ هو نظام ذاتـــي التنظيم ، وليس نظاما مسبق البرمجة ، أن نشتق عادات ووسائل تفكير جديـــــدة مفيدة ، لقد كان هدف نماذج المفاهيم دائما هو اقتراح وتطبيق تغييرات لها تأثير عملي . وهو بالضبط ما أنطلق د.دي بونو كي يفعله.

إلا بعد أن اثبتت الدراسات أن الذكاء لا بد أن يتوفر له العـــاملان معـــا (الذاتـــي والموضوعي). وفي موضوع اللغة والعقل، فإن الفكر الإسلامي جاء واضحا تمام الوضوح من حيث ضرورة الإنسجام بين المعنى (العقل) والمبنى (اللغـــة). ولا داعي للخوض في جدال من هذا النوع لأن كل إنسان يمكنـــه أن درك أن الفكـــرة الجيدة لا بد أن يتم التعبير عنها بشكل جيد . لأن الأذن أو العين البشرية لا تلتقـط أفكارا، بل رموزا تجري معاملتها في الدماغ . وهذا الرموز المرئية والمســـموعة لا بد أن تكون واضحة، ومعترفا بها كوسيلة تفاهم، ولا يمكن لأي مصلح أو مفكر أن يبدأ مع الناس من حيث موقعه هو ، بل لا بد من أن ينطلق معهم من حيث هم أولا، كي يوصلهم إلى حيث هو . هكذا طبق النبي محمد صلى الله عليـــه وســـلم عملية نشر الإسلام، وعلى هدي منهجه سار الأول حتى استطاعوا توسيع مـدارك البشر وتثبيت معتقداتهم، وهو ما سنتعرف له له لاحقا بإذن الله .

وإذا سلمنا أننا قد نفهم المبادئ الأساسية لعمل الدماغ كنظام معلومات ينظم نفسه بنفسه ، فكيف لنا أن نستخدم هذه المعرفة للتفكير بشكل أفضل؟

إن د.دي بونو يصر على السحر والدعابة والإبداع كوسائل تعتمد على التدمير المتعمد للنموذج التقليدي للدماغ وأن التفكير الجانبي يساعدنا على الفرار من الأخدود العصبي التقليدي للسفر إلى مسار (track) جانبي اكثر إنتاجية ، لا تعرف فائدته إلا بالإدراك المتأخر . وأدوات تفكيره مصممة كي تنقلنا من السؤال الباحث عن بدائل "لماذا لم أفكر بذلك؟" إلى صرخة النصر "وجدتها". وتشمل هذه الأدوات-بين أمور أخرى-التدخل القصدي التحريضي (الذي يمكن أن يلعب الدور اللفظي لتفاحة نيوتن، وكذلك مفهوم التعلم المتأخر (الذي أعرف أنه الطريقة الوحيدة لقراءة معظم أوراق البحث في الفيزياء)، وكذلك القبعات الستة للتفكير القابلة للمبادلة (والتي بدأ المدراء يعتمونها مؤخرا قائلين أن العمل كالمعتاد أخذ يفشل)

إن طرق التفكير الإبداعي عند د.دي بونو قد تم تجريبها من قبل كثيرين من الطلاب والمحترفين، ويبدو أنها تساعد الناس على أن يكونوا خلاقين (في تفكيرهم، أكثر من ذي قبل)، وقد رأيت هذا النظام وهو يطبق في مأزق حصل خلال حلقة دراسية للحائزين على جائزة نوبل. وعندما حقنت المناقشة بكلمة ما عشوائية (وهي أداة أخرى من أدوات التفكير عند د.دي بونو) استطعنا حل المشكلة بسرعة ولربما حان الوقت لحصول النهضة الجديدة، فلربما تقودنا باتجاه مجتمع سليم محب للخير .

رابعا: دي بونو

عادة ما كان يطلب مني أن أوضح الرابطة بين خلفيتي في الطب و عملي في ميدان التفكير،إذ أن هذين يبدوان كميدانين مختلفين تماما، ولكن الرابطة التي تجمعها مباشرة جدا، ومن المرجح، أنني ما كنت أستطيع أن أطور أفكاري لو لم تكن عندي هذه الخلفية في الطب.

وكنظام يتعلق بالكائنات الحية-بيولوجي-فإن دماغ الإنسان يعامل المعلومات بطريقة تختلف تماما عن أنظمة المعلومات التقليدية. ففي أنظمة المعلومات التقليدية، تقوم بتخزين المعلومات على شكل رموز، ثم نجري عمليات على هذه الرموز استنادا إلى قوانين معينة (منطق أو حساب أو قواعد الخ). إن أجهزة الحاسوب التقليدية تختزن المعلومات في ذاكرة، ثم تعمل على أساسها، مع جهاز معاملة. أما في الأنظمة الحية، فإن المعلومات، والسطح المتلقي لها يعملان معا كنظام ذاتي التنظيم-مما يعني أن هذه الأنظمة الحية تنتج نماذج وترتيبات خاصة بها. وفي الأحياء، فإن المعلومات تطلق الحالة التالية المستقرة للنظام.

عندما وضعت كتاب"آلية الدماغ" في السبعينات بدا لكثير من الناس أن كثيرا من أفكاره مخبولة، أما اليوم فإن هذه الأفكار تشكل التيار الرئيسي لكل أولئك الذين يعملون في الأنظمة ذاتية التنظيم. وحتى علماء الرياضيات بدأوا يدخلون في الحسبان الأنظمة غير التخطيطية، وصار هناك حقل من الرياضيات يتعامل

مع الأنظمة ذاتية التنظيم. ولذلك، فإن الرابطة بين الطب والتفكير هي رابطة مباشرة تماما * . بل أن من الصعب حقا أن نرى أي شخص في مجال التفكير يمكن له أن يستمر مستقبلا دون فهم للعمليات الحيواتية البارزة.

لقد قامت الحضارة † بعمل معجز في تقنين التفكير من خلال وضعه، وضمن لعبة الرموز والقوانين – دون الإشارة إلى نظام المعلومات الأساسي– وللمرة الأولى في التاريخ، أصبح بإمكاننا أن ننظر إلى هذا النظام. ويمكننا أن نبدأ بفحص تأثير هذا الفهم على عادات تفكيرنا التقليدية. وعلى سبيل المثال، فإن التفكير الجانبي والتحريضي ضروريان رياضيا في نمذجة الأنظمة ذاتية التنظيم.

وحيث أن كل نتيجة خلاقة ثمينة يجب أن تكون منطقية، من حيث الإدراك المتأخر (وإلا فلن نقدر قيمتها)، فإننا اعتقدنا أن المنطق يكفي ويفي. وهذا الاعتقاد خاطئ بأكمله في نظام النمذجة.

*** في الفكر الإسلامي لا مجال للإستغراب، لأن الفكر هو أبو المعتقدات والعلوم، أنه الأب الشرعي للعلم والعمل على حد سواء. فالنهضة الإسلامية قامت على إعمال الفكر أما الحضارة اليونانية فقامت على الفلسفة بصفتها أم العلوم. إن إعمال الفكر هو المطلوب في النهضة الجديدة، أما " حب المعرفة" ووجود تفسيرات شمولية للحياة فتأتي لاحقا .**

† المقصود هنا هي الحضارة الغربية.

إن الفكاهة* هي السلوك الأكثر مغزى للعقل الإنساني إلى أبعد حد .

إن الفكاهة هي إحدى نواتج المفارقة، ولكن المفارقة القائمة على الأضداد، لها نواتج أخرى غير الفكاهة منها خلق مدركات جديدة، ومعتقدات جديدة. إنها ربما تجد هذا القول مثيرا للدهشة، فإذا كان للفكاهة كل هذا المدلول البارز، فلماذا تم إهمالها إلى هذا الحد من قبل الفلاسفة التقليديين وعلماء النفس والمعلومات.

---

*

هناك نقطتان جوهريتان لابد من إثارتهما في هذه المرحلة المبكرة من المناقشة:

أولهما: أن الفكاهة* أو الطرافة أو ما يمكن أن يقوم مقامهما في تفسير كلمة humour التي أوردها الكاتب، لم تكن عرضة للإهمال في ثقافتنا الإسلامية، وخزانة تراثنا الفكري تثبت ذلك

وثانيهما: أن دي بونو قصر فهم الفكاهة على إمتاع أو إضحاك أو تسلية المتلقي، دون أن يركز على الأصول التي يمكن للمفكر أن يتبعها إذا أراد لفكرته أن تخطى بقبول حسن عند المتلقي. وفي ذلك، أن الفكاهة أو الطرافة تقوم على المفارقة (paradox)..... وبالتالي فهي خروج عن نسق مألوف، أو مبالغة فيه... والمبالغة هي نوع من التجسيم يؤدي إلى تكبير الصورة العقلية بحيث يراها المتلقي بشكلها المكبر، فما يتيح له رؤية تفاصيل جديدة لم يكن قادرا على رؤيتها عندما كانت الصورة بحجمها الحقيقي.

لماذا يكون للفكاهة كل هذا المغزى؟ ولماذا نتعرض لكل هذا الإهمال من المفكرين التقليديين؟ هذان السؤالان يشكلان معا مفاتح هذا الكتاب. إن الفكاهة تخبرنا عن كيفية عمل الدماغ كعقل أكثر مما يخبرنا به أي سلوك آخر للعقل بما في ذلك العمليات العقلية العليا. إنها تشير إلى أن طرق تفكيرنا التقليدي وتفكيرنا في هذه الطرق ظل يستند دوما إلى النموذج المغلوط من نظام المعلومات. وتخبرنا الفكاهة شيئا عن "الإدراك" الذي تعودنا على إهماله بشكل تقليدي لصالح المنطق، وكذلك تخبرنا عن إمكانية التغيير في الإدراك وترينا إن هذه التغيرات الإدراكية قد تتبعها تغيرات فورية في العاطفة، وهذا شيء لا يمكن التوصل إليه باستخدام المنطق أبدا.

ومن المرجح أنه ليس هناك أكثر من دزينتين من البشر في العالم كله يمكن أن يفهموا (عند المستوى الأكثر أساسية لنظام آليات الدماغ) لماذا أزعم أن للفكاهة مثل هذه الأهمية. أما بعد قراءة هذا الكتاب، فقد يكون هناك بعض من مزيد قد يتوصلون إلى فهم أساسيات هذا الزعم – ومضامينه بالنسبة إلى مستقبل المجتمع*.

*** إن القدرة على استخدام المفارقة بشكل ناجح، يؤدي إلى إنجاح وسائل الإعلام في إيصال الرسائل المطلوبة منها، ولا تخفى أهمية وسائل الإعلام في صناعة المجتمع المعاصر والمستقبلي. وهنا تأتي الخطورة، إذ أن الإمتاع وحده لا يكفي لخلق وعي كاف تجاه المخاطر التي تتهدد البشرية، وبخاصة في مجالي الحروب والعنف.**

إننا بحاجة فعلا إلى الاعتقاد بإمكانية حدوث نهضة جديدة . لأنها ممكنة, وهنالك دائما قيمة في الإعتراف بشيء يحدث أصلا . فلماذا تأجيل الإعتراف ؟ وعلى أي حال، فإن هناك أسسا أكثر جوهرية للنهضة الجديدة من مجرد الأمل، واقتراب سنة 2000.

فعلام سوف تستند النهضة الجديدة ؟

لقد كانت النهضة الأخيرة؛ تستند بوضوح إلى إعادة اكتشاف عادات التفكير اليونانية قبل الميلاد بأربعمائة سنة. من حيث المنطق، والمحاكمة العقلية، والجدل، والحقيقية وأهمية الإنسان. وقبل النهضة الأخيرة؛ كانت عادات التفكير للعالم الغربي مشتقة كلها من التصلب واللاهوت. وكان ينبغي لخرائط العالم أن تظهر كتلا كبيرة من اليابسة والقدس في موقع القلب منها، ليس لأن تجارب الملاحين أوصت بهذا التغيير في مواقع الأرض، ولكن لأن التصلب قال إن هذا هو ما ينبغي أن تكون عليه الحال.

إن كتاب أنا على صواب – أنت على خطأ – هو بلوره مختزلة لعادات التفكير التي شكلت النهضة الأخيرة، ولتلك العادات التي طورتها هذه النهضة أيضا عن البحث عن الحقيقة . كتمييز لها عن التصلب – كان ينبغي أن يتم بفضح التزييف من خلال الجدل والحجة والمنطق وهذه الحجة وليس التصلب هي التي تقرر ما هو الصواب، وما هو الخطأ.

وبهذه الطريقة تطورت عادات التفكير التي خدمتنا جيدا في مجالات محددة. وإن التطبيق التشريعاتي للمبادئ من خلال استخدام الجدل والحجة يمكن أن يقال أنه

شكل الأساس للحضارة التي نعرفها. إن الشؤون الفنية قد تقدمت إلى حد أننا نستطيع أن نرسل إنسانا إلى القمر ونعيده، وإن نبث البث التلفزيوني بشكل فوري إلى 300 مليون في أرجاء العالم، وأن نستخدم الشكل المطلق للطاقة (الطاقة النووية) .

فهل من الممكن أن تكون هذه العادات الممتازة للتفكير محدودة بشكل ما وغير ملائمة ؟ على حين أننا أنجزنا الكثير من التقدم في الشؤون الفنية، إلا أننا أحرزنا تقدما أقل في الشؤون الإنسانية . ولا تزال عادات الصراع لدينا كما كانت عليه دوما من بدائية، رغم أن الأسلحة التي نستخدمها قد استفادت من تفوقنا الفني.

فهل من الممكن أن تصل عادات التفكير هذه في بعض النواحي، إلى حد الخطورة؟ أمن الممكن أنها بلغت حدها، وأنها لم تعد قادرة على التجاوب مع المشاكل التي نواجهها، وأنها تحول دون المزيد من التقدم؟ وهل آن الأوان لأن نطورها؟ وإذا كان كذلك، فعلام سوف تستند عاداتنا الجديدة في التفكير؟

إن عادات التفكير الجديدة للنهضة الجديدة سوف تستند إلى القاعدة الأكثر أساسية من كل القواعد، والأكثر أساسية من أنظمة التلاعب بالكلمات أو المعتقدات الفلسفية. إنها سوف تستند بشكل مباشر إلى الكيفية التي يعمل بها الدماغ، وبالتحديد إلى الطريقة التي يخلق فيها الدماغ الإنساني عملية الإدراك.

للمرة الأولى في التاريخ أصبحت لدينا الآن فكرة عن كيفية تنظيم الدماغ بحيث يرفع العقل، وقد لا نعرف كافة التفاصيل، ولكننا نعرف عن نظام السلوك العام ما يكفي لأن نعيد فحص عادات تفكيرنا التقليدية، وما يكفي لأن نطور عادات جديدة.

إن جوهر المنطق هو التماثل والتناقض. وفي اللغة، فإننا نخلق بشكل متعمد تصنيفات متبادلة حصرية (مثل صواب / خطأ، وصديق / عدو) من أجل تشغيل منطق التناقض. ومع ذلك، فإن هناك ثقافات لا تجد تناقضا بين أن يكون شخص ما صديقا وعدوا في آن معا.

إن النهضة الأخيرة قد بعثت وصقلت أساليب سقراط والمفكرين الآخرين للعصر الذهبي للفلسفة اليونانية. ومن الممكن أن يكون منهج الجدل قد استخدم من قبل، ولكن سقراط طوره. وهناك مفارقة ملحوظة تكمن في أن بعث التفكير الجدلي اليوناني في النهضة الأخيرة قد أدى غرضا مزدوجا، فمن ناحية، استخدم المفكرون الإنسانيون نظام المنطق والحجة لمهاجمة التصلب الذي كان يخنق المجتمع، ومن ناحية أخرى، فإن مفكري الكنيسة مثل توما الأكويني – نابولي قد طوروا نفس المنطق الجدلي إلى أسلوب فعال لهزيمة الهرطقات الهائلة التي ظلت تطفو على السطح دائما وأبدا.

وقد كان النظام فعالا على صعيد الحاق الهزيمة بالهرطقة. لأن المفكر كان يستطيع المضي قدما في التصورات التي تحظى بالموافقة العامة عليها (البدهيات) من مثل القدرة الكلية لله، إلى نتائج مشتقة منطقيا. وقد استخدمت نفس الأساليب لتطوير مبادئ مفترضة للعدالة إلى قواعد كلية لتنظيم ومحاكمة السلوك الإنساني. إن نظام المبدأ – المنطق – الحجة هو أساس تفكيرنا التشريعي الشائع الاستخدام والمفيد في

أغلب الأحيان . وهو يتعطل عند الإفتراض بأن التصورات والقيم هي مشتركة، وكونية، وخالدة، بل وحتى متفق عليها.

إن هذه الحجة في ذلك النوع من التفكير المنطقي تصبح نموذجية في الحلقات الدراسية والجامعات والمدارس. ذلك أن مثل هذه المؤسسات كانت تدار في ذلك الوقت من قبل الكنيسة، وكذلك لأن المفكرين الإنسانيين الأحرار كانوا يقدرون الطرق ذاتها في التفكير . ونعود إلى المفارقة التي ذكرناها والتي تتمثل في أن كلا من مفكري الكنيسة وغير مفكري الكنيسة من المفكرين الإنسانيين على حد سواء *، كانوا يجدون قيما متساوية في طرق التفكير هذه، ولربما يكون هذا غير مثير للدهشة، حيث أن الطرائق الجديدة هذه كانت مجرد إضافة متقدمة واضحة على عادات تفكير موجودة أصلا.

*** هنا يكمن أس المشكلة في التعامل مع دي . بونو خصوصا، ومفكري الغرب عموما ، وهي أنهم لا يرون صورة الفكر الإنساني بشكل متكامل، ففكر العصور الوسطى عندهم – وحتى الفكر الأقدم من ذلك – هو تفكير كنيسي، أو لا كنيسي فقط ... ألم تكن هناك فلسفات في دول وأقاليم العالم القديم ؟ وهل يغيب وجود هذه الفلسفات عن بال مفكرين من عيار دي . بونو ؟ لا نعتقد ذلك، لأنه يشير لماما إلى العالم الإسلامي ، والى الأسكيمو وغير ذلك . فلماذا عدم التوقف عند فكر كانت له أهميته الحضارية مثل الفكر الإسلامي ؟ ولماذا يهاجم دي . بونو عمليات التصنيف القاطعة (الصواب / خطأ، كنيسي / لا كنيسي) لأنها تسد= =الدرب على رؤية البدائل الأخرى ، ويعود إلى الوقوع فيها منذ الصفحات الأولى لمؤلفه ؟**

وفي موقع مركزي من هذا النوع من التفكير تأتي فكرة "الحقيقة"، وبواسطة الجدل* الذي يقلب الأمور في موقف تناقضي ، فإن شيئا ما يمكن أن يبين على انه زائف، وحتى لو لم يكن زائفا بشكل كامل فإن التوافه من الكلام يجب أن تزال من خلال الممارسة الماهرة للتفكير النقدي من أجل طرح الحقيقة المجردة وحدها .

هكذا وعبر سيطرة التفكير النقدي على انه الشكل الأعلى من أشكال التفكير المتحضر ، ومن خلال دفاع الحضارة نفسها ، فإن أي تعد كان يجب أن يخضع

---

* على الرغم من أن دي بونو يشن حملة شعواء على عمليات التعميم وعلى المطلقات، إلا أنه يلبث أن يقع فيها بين ثنايا صفحات مؤلفاته . وواضح أنه أراد انتقاد التفكير الإنتقادي الذي يستند إلى أسس معيارية موضوعة مسبقا ضمن قوالب جامدة، فإذا به ينتقد الفكر النقدي على إطلاقه . ولقد جاء النقد في الموروث العربي على أنه رديف للخبرة، أيضا :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهم تنقاد الصياريف

واستمر التفكير الإنتقادي في كل مجالات الفكر الإنساني محكوما بقواعد اللعبة الخاصة بأي مجال يتم بحثه. فهذه رواية رومانسية وبالتالي يجب أن يتم نقدها وفق المعايير الموضوعة المسبقة للرومانسية، وتلك لوحة سوريالية يجب أن يخضع نقدها إلى مفاهيم موضوعة سلفا عن هذا المذهب وهكذا . ولكن، هل يستطيع أي كان أن ينكر أن الأعمال الإبداعية كانت تفرض نفسها، وتبتدع أحيانا قوانين وقواعد نقدية خاصة ؟ لا ضير أن تكون هناك معايير متفق عليها،ولا= =ضير في الخروج عليها أيضا. المهم، أن عقول الناس يجب أن تلتقي على عوامل أولية، ويتم لاحقا اشتقاق جوامع عظمى بينهم.

إلى رقابة مكثفة ونقد لاذع ضمن الأطر القائمة ، التي كان يفترض أنها باقية أبـــد الدهر .

أن ذلك التفكير النقدي الذي هو موضع تقدير بالغ في حضارتنا ** ، له بعـــض التأثيرات السيئة الفأل، إن التفكير النقدي يفتقر إلى عناصر الإنتاجيـــة ، والتوليـــد، والخلق والتصميم وكلها مما يحتاج إليه للتغلب على المشاكل ، ولاكتشاف طريقنـــا قدما. وإن نسبة عالية من رجال السياسة هم محامون ، وهم معتادون علـــى هـــذا الأسلوب من التفكير فقط * .

** يميز البعض بين نوعين في الجدل : الجدل الشكلي ، والجدل الديالكيتكي، ولكن الفكر الإسلامي يحذر من الجدل على اطلاقه، فقد ورد في الحديث استعاذة النبـــي محمد صلى الله عليه وسلم من " الجدل وقلة العمل "، كما هناك دعوات واضحـــة في القرآن الكريم إلى عدم المجادلة إلا بالتي هي أحسن . وحتـــى عندمـــا كـــان المفكرون المسلمون يلجون مجالات الجدل فإنهم كانوا ينطلقـــون مـــن العوامـــل الأولية لفكر الطرف الآخر ... أي يبدأون مع الناس من حيث يقف الناس فكريـــا، أولا، ثم يتم تطوير الموقف بشكل منهجي حتى يمكن الوصول إلى موقف إسـلامي بشأن موقف الطرف الآخر. كما فعل ابن حزم الأندلسي في (مناقشة) أهل الملـــل والنحل.

* إن ما يقوله دي . بونو هو طرح جديد لفكرة قديمة مفادهـــا أن أهـــل الكـــلام (والجدل) يحتلون المواقع الفكرية بسرعة. ويعبر عن ذلك في المفاهيم المعاصرة أحيانا بأنه طغيان صوت الأقلية (النخبوية) على أصوات الأغلبية الصامتة. ولكننا نلاحظ أنه تم تجاوز هذه الإشكالية في الفكر الإسلامي ، بوساطة عـــدة ضوابـــط

فهل التفكير المتحرر من الخطأ هو تفكير جيد؟ هل قيادة السيارة بشكل يخلو من الخطأ هي قيادة جيدة ؟ إذا كنت تريد أن تتجنب الأخطاء أثناء القيادة فإن أفضل استراتيجية يمكن لك أن تتبعها هي أن تترك سيارتك في المرآب... وكما في التفكير النقدي فإن تجنب الأخطاء خلال القيادة يقتضي وجود نواحي للتوليد والانتاجية والخلق في التفكير . وهى عناصر ضرورية من أجل تقدم المجتمع ، ولكن، من أين تأتي هذه الأمور؟ إن هذا ربما لم يكن يهم كثيرا في دول المدن المستقرة اليونانية القديمة ، حيث أن كمال الوجود (باستثناء النساء والعبيد) يقترح أن أي إزعاج هو أمر سيء أو غير ضروري على اقل تقدير وربما كان هذا السؤال غير مهم أيضا في المجتمع المستقر نسبيا في العصور الوسطى ، حين كانت السعادة لا تطال إلا في العالم الآخر وليس في هذا العالم *. ولكن هذا السؤال يهم اليوم فعلا . ولذلك تبدو الرغبة الأمريكية في الميل إلى تعليم التفكير الإنتقادي

منها (أن التشريع المتعلق بالحقائق الكونية المطلقة مرتبط بالله سبحانه وتعالى فالقرآن هو مصدر التشريع وكل حكم (مطلق) يخرج عن هذا الحد، فهو حكم فاسق، أو ظالم، أو كافر . وسنعود إلى أهمية الحكم والحكمة وارتباطها في الفكر الإسلامي حتى من حيث التقارب اللفظي بين الكلمتين .

*** مرة أخرى يتجاهل دي . بونو وجود فلسفات ونظريات فكرية كاملة تؤمن أن لا بد من تحقيق السعادة في العالمين معا (الأرضي والسماوي) وفي الدارين (الدنيا والآخرة). لم يكن الغرب هو الوحيد على مسرح الفكر في العصور الوسطى . وليس من العلمية في شيء أن يتم تصوير الأمر على هذا النحو، إلا إذا كانت هناك دوافع تحيز وتمييز عرقية أو سياسية .**

وحده دون غيره في المدارس تبدو رغبة مروعة في عدم ملائمتها وفى انتمائها إلى العصور الوسطى [*] .

أما السؤال عما إذا كان نمط المجادلة هذا هو المسؤول عن أسلوبنا الصدامي في السياسة فهو سؤال مفتوح اكثر . لقد ورثنا عن اليونانيين كلا من الجدل والديمقراطية، ولطالما كنا نريد أن نحتفظ بالاثنين معا حيث أننا لا نعرف كيف نستغل الديمقراطية دون جدل . رغم أن هناك الكثير من الثقافات التي طورت فكرة الصدام بين الخير والشر مثل عقيدة المانوية ، والهندوسية...الخ) بشكل بعيد تماما عن التفكير اليوناني .

إن فكرة هيجل عن التوتر والمعارضة التاريخية قد سمحت بظهور المادية الجدلية للماركسية وطاقتها الثورية . ولسوء الحظ ، إن هذا النظام الصدامي للتغيير يصعب جدا عملية التفكير البناء والخلاق الذي كان مطلوبا جدا. من اجل جعل البيروستريكا تنجح في الاتحاد السوفيتى [†] .

---

[*] **الطرح معكوس تماما، لأن أوربا هي التي ظلت أقرب إلى القواعد الصارمة في التفكير، أما الولايات المتحدة، فإن كل التطبيقات السياسية والإقتصادية التي أسهمت فيها جاءت مواكبة لمزيد من (الإنفتاح) ومؤيدة لتحطيم القواعد أو القيود أو المرجعيات المطلقة.**

[†] **هذا الخلط بين الفكر اليوناني، الغربي، والمادي، هو خلط تعسفي غير مبرر، وهكذا، وكأن الهدف من اختراع أو اكتشاف المادية الجدلية هو الوصول إلى سياسة البروستريكا في الإتحاد السوفيتي السابق. أما التغيير بالتطوير فليس قصرا على الديمقراطية .... إن للديمقراطية صداميتها أيضا، بل إن السنوات**

وباختصار ، فإن نظام تفكرينا التقليدي يستند إلى "الحقيقة" التي يجب اكتشافها وتمحيصها بالمنطق والجدل (المزودين بالإحصاءات والطرائق العلمية الأخرى)، حيث تكون النتيجة ميلا قويا نحو السلبية والهجومية . وتبدد السلبية طريقة قوية جدا لكشف الحقيقة . ومقاومة التحديات المزعجة، وإعطاء شعور بالرضى الشخصي للمهاجم .

إن أقوى قضية بالنسبة إلى قيمة الجدل كأسلوب تفكير ، هو أنه يشجع الاستكشاف المدفوع لموضوع ما ، ودون الإشباع الذاتي الذي ينجم عن الجدل (ربح/خسارة، عدوان ، مهارة، تسجيل نقاط) فإن الدافع لاكتشاف كنه موضوع ما قد يقل، ولهذا التبرير استحقاقه، حيث أنه بعد مستوى معين من الدافعية يبدأ الاكتشاف لأي موضوع بالمعاناة ، ويصبح الجدل تسجيلا لموقف ، وتسجيلا لنقاط، وخيلاء للذات. ولن يقوم أي كان بجر الانتباه إلى آية أمور قد تفيد الجانب المعارض في عملية الجدل ، حتى لو كانت مثل هذه الأمور قد تزيد استكشاف الموضوع جلاء * .

الأخيرة من القرن العشرين شهدت ديمقراطية عالمية مسلحة حتى الأسنان، وقادرة على فض الجدل السياسي بالقوة العمياء، كما حصل في العراق، وفي يوغوسلافيا السابقة (مع اختلاف الدوافع والذرائع) .

*** من القواعد الأساسية التي يجب أن نركز عليها، وهي أن الفكر الإسلامي فكر متحرر من قيود الجدل، ويكفي أن نشير هنا إلى أن كلمة جدل/ مجادلة، لم ترد في موضع إيجابي في القرآن الكريم، على الرغم من أنها وردت في نحو من ثلاثين موضعا . ولكن الفكر الإسلامي يختلف عن فرضيات دي . بونو بشأن منشأ**

ونعود الآن إلى مدلول الفكاهة فهي ذات مغزى بارز لأنها تستند إلـــى منطـــق مختلف جدا عن منطقنا التقليدي، ففي منطقنا التقليدي (الأرسطو طاليســـي) هنـــاك تصنيفات واضحة، حادة الحواف، ودائمة. أننا نتخذ قرارات أحكامنا على شيء مـــا من خلال مدى ملائمته لتصنيف ما ، فهل يندرج ضمن هذا التصنيف أم لا ينـــدرج (ويتناقض معه) . وفي التناقض، يعتمد منطق الفكاهـــة مباشـــرة علـــى النمـــاذج، والتدفق، والتوقعات والمحتوى.

في تفكيرنا التقليدي لدينا ما ادعوه. "بمنطق الصخر" وفي الفكاهة * لدينـــا مـــا ادعوه."بمنطق الماء" إن للصخرة شكلا خاصا بها، إنها صلبة، وحوافـــها حـــادة ، ودائمة ، وغير متغيرة. ويمكننا أن نرى ونستشعر شكلها ، ونقول إن هذه الصخرة موجودة، وهي لن تخذلنا بان نتحول إلى شيء آخر إن هناك شعورا بمطلق مستقل أما الماء فيختلف جدا عن الصخر، ولكنه حقيقي أيضا بنفس الدرجة، إنه ينســـاب ،

الجدل وتطوره ، فعلى حين يراه دي بونو إبنا شرعيا للمنطق اليونـــاني، فـــإن القرآن الكريم يقول إنه صفة من صفات الإنسان، "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا " – الكهف – 54 – وهكذا يرسم لنا القرآن الكريم أسلوب التعامل العقلي السليم مـــع هذه الصفة أو الظاهرة، دون إنكارها أو الإنكار على أهلها هكذا بالجملـــة، كمـــا يفعل دي . بونو . كما سنوضح في مواضع لاحقة، ونكتفي هنا بالقول إن الفكـــر الإسلامي، لا يقوم على الجدل وتسجيل النقاط، وهو ينسجم في هذا مـــع درجـــة تطور الفكر الإنساني في المستقبل .

*** مرة أخرى نقول إن مصطلح المفارقة Paradox أقرب لغايات هذا المفهوم من مصطلح الفكاهة أو الطرافة أو حس الدعابة (Humor) أو (Humour).**

والتأكد هنا ، هو على"إلى"وليس إنه" إن الماء ينساب حسب المحتوى (المنحنى) ، وهو يأخذ شكل الجسم الذي يوضع فيه (الظروف) * .

إنك تستطيع أن تصف القلم من حيث أجزائه المكونة له من معادن وبلاستيك صلب ولين، وأجزاء أخرى ذوات أشكال مختلفة. ويمكنك أن تصف الآلية التي يعمل بها القلم، ولكن "ما قيمة القلم؟" إن هذا يعتمد على الظروف وعلى إدراك الظروف. أما إذا كان شخص ما لا يستطيع الكتابة ، فللقلم قيمة قليلة، أما إذا كان شخص ما يستطيع الكتابة، فان للقلم قيمة اكبر . وإذا لم يكن لدى الشخص أي قلم

*** كما سنلاحظ عند استعراض الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر للماء، فإن منطق الماء ليس غائبا، بل واضح تماما في الآيات التي تدعو إلى التفكير والتعقل ، فقد ورد الحديث عن الماء بمفهوم اعجازي عندما استسقى سيدنا موسى لقومه، ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ البقرة 60 أي لإخراج الماء، وكذلك عند الحديث عن قسوة القلوب، ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ البقرة -74. واضح هنا أن الماء ارتبط بالهداية والتعقل، وأن الحجر ارتبط بالتصلب والجهل . كذلك الحال عند الحديث عن تسرب الماء في الأرض، وما يوحي به ذلك من تخزين المعلومات . إن نزول الماء على سطح الأرض= =واتخاذه مسارب فيها،، يشبه نزول المعلومات والأفكار على قشرة الدماغ، والأفكار كما الماء مصدر لإزدهار الحياة الإنسانية . هل نحن بحاجة بعد هذا للقول بأن اكتشاف دي . بونو لمنطق الماء جاء متأخرا جدا، وأنه ليس فتحا مبينا في هذا المجال ؟**

آخر، أو أية أداة كتابة أخرى ، فإن للقلم قيمة اكبر من الأولى . وإذا كان على شخص أن يدون رقم هاتف مهم ، أو وصفة طبية لها حاجة طارئة، فان قيمة القلم ستزيد اكثر فاكثر –ليس بالنسبة للكاتب به فقط ، بل للآخرين أيضا وقد يكون للقلم قيمة كهدية، وقد تكون له قيمة تاريخية كبرى (حتى لشخص لا يستطيع الكتابة) إذا كان ذلك القلم قد استخدم مثلا لتوقيع معاهدة تاريخية * .

*** لقد جاء مثال دي . بونو هنا عن القلم موفقا جدا، من حيث أن الظروف وإدراكها هي التي تعطي الأشياء أهميتها . كذلك إن العقل البشري مادة رخيصة جدا من حيث القيمة المادية المجردة بعيدا عن الظروف التي تعمل فيها هذه المادة. أما القلم، فإننا نلاحظ أن لفظته وردت مرتين في القرآن الكريم : مرة في سورة القلم :﴿ن والقلم وما يسطرون ﴾ والثانية في سورة العلق ﴿أقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم ﴾. ونلاحظ أن القسم الرباني في الآيتين لم يتعلق بالقلم= =كأداة، وإنما كفعل من حيث ما يسطر به، ومن حيث العلم الذي يتيح القلم إمكانية إيصاله للبشر . الآن يمكننا ومن خلال نفس المثال أن نشخص وضع معتنق الفكر الإسلامي في مقابل سواه . إنه لا يختلف عن الآخرين من حيث أنه يقدر قيمة القلم كهدية، وكشيء مرتبط بمناسبة، وكأداة لتدوين رقم هاتف، أو تسجيل وصفة طبية . ولكن التفكير الإسلامي بالقلم لا يقف عن ذلك بل يتعداه إلى صور أكثر شمولية، لأن رؤية القلم تدفع من يفكر من منطلق إسلامي إلى التفكير في مصدر العلم، والكم الهائل من العلوم، الذي تناقله البشر عبر العصور كلها، إنه تفكير في التجربة الإنسانية كلها قبل اللحظة الحالية من الزمن، وعندها، وبعدها إلى أن تجف الأقلام وتطوى الصحف . ويعني ذلك ، بالطبع فهما أعمق**

لدور الأشياء المادية فيما وراء اللحظة الراهنة . أنه تحريض رباني مستمر للتفكير القصدي الممنهج – بشكل يتفق مع القواعد السليمة للتفكير الإنساني كما أخذت تبتدى لعلماء التفكير في هذا العصر – ولكنه يتجاوزها إلى آفاق أرحب، (فالعلم) ليس على الأرض فحسب ولكنه في السماء أيضا، و المسؤولية عنه ليست مسؤولية دنيوية فحسب، بل أخروية أيضا . وهنا تأتي الإضافة الإسلامية جلية واضحة : فالفرد محكوم (بأنا أعلى) يضبط سلوكياته كلها ، وهناك غاية واضحة ونهائية لكل عمل، ولكل لحظة تفكير لن تذهب هدرا، لأن التفكير واجب شرعي، ولأن من يفكر لن يعدم المكافأة – والمكافأة هنا ليست عزاء فقط بل إنها التعزيز بالمعنى النفسي الدقيق لمفهوم التعزيز في علم النفس .

هنا يصبح القلم أمانة خطيرة، وبهذا المفهوم الشمولي، فإن من الصعب على المحاسب المسلم، أو فاحص الحسابات المسلم ، أن يصدر تقريرا عن أوضاع شركة ما ، دون أن يبذل قصارى جهده كي يأتي هذا التقرير نزيها وموضوعيا= =ومستقلا ومعبرا عن الوضع الحقيقي للشركة المعنية كما هي " . كذلك الحال عند تقييم الموظفين والمرؤوسين، إن حامل الفكر الإسلامي لا يمكن أن يتحيز إلا للحقيقة كما هي عند وضع الدرجات السنوية للعاملين تحت أمرته. وهكذا فإن البحث عن المعايير الأسلم وتطبيقها في كل النواحي، ليس عملا مهنيا يؤتي أكله في الحياة الدنيا فحسب، بل إنه أيضا واجب ديني، سوف يسأل الإنسان عنه في آخرته . والفوز في يوم الحساب الأخير ليس مجرد أمنية أو عزاء، بل أنه عمل واقعي على الأرض يتحرك ضمن الآفاق المادية القائمة ولا ينكرها ، ولكنه يتجاوزها بإصرار من يميز الأهداف المرحلية عن الهدف الإستراتيجي الأخير .

وإذا جمعت صخرة إلى أخرى ، تحصل على صخرتين ، أما إذا جمعت الماء إلى الماء، فإنك لن تحصل على مائتين، إن الشعر يستند إلى منطق الماء ففي الشعر نضيف طبقة إلى أخرى من الكلمات ، والصور الخيالية والاستعارات وأدوات إدراكية أخرى من أجل أن نشيدها في إدراك شامل.

وبإمكانك أن تفرغ بضع قطرات من الماء من كأس في أي وقت تريد، أما مع الصخرة فلا تتاح لك هذه الفرصة، فالصخرة إما أن تكون في الكأس ، أو تخرج منه كلها. وفي نظامنا القانوني فإننا نميز بشكل حاد بين (المذنب) وبين (البريء)، فإن كان مذنبا فإن العقاب يتبع ذلك، وفي اليابان فإن نصف مرتكبي الجنح المعتقلين، يتم إطلاق سراحهم من قبل المدعي العام، الذي لديه صلاحية تركهم أحرارا إذا اعتذروا ، وابدوا نية التصرف بشكل افضل في المستقبل : فالتركيز في النظام الياباني ليس على تصنيف الحكم، ولكن على ما سوف يأتي بعد ذلك * .

*** هنا تظهر اخفاقات محاولات التعليم بالتجربة والخطأ : إن دي . بونو يمتدح النظام الياباني لأنه يركز على ما سوف يأتي لاحقا، وما سيصدر عن الفرد من أفعال مستقبلا، ولكن أين هذه الصورة الهلامية المعومسة من أركان التوبة الواضحة في الإسلام، التي لا تصدر الحكم المطلق على الفرد على الرغم من وجود الأحكام وجاهزيتها ومناسبتها لكل فرد ولكل سلوك، بل يتم النظر إلى السلوك المعيب أو الشائن أو المرفوض من وجهة نظر واضحة وبسيطة، ويمكن لأي شخص عادي التفكير أن يستوعبها : "إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات " (70 الفرقان). لنلاحظ هنا أن أسم السورة هو الفرقان ، أي أنه يوحي بالتمييز القاطع بين الخطأ والصواب، ولكن هذا التمييز**

ومعدل الجريمة في اليابان منخفض جدا ، وهناك محام واحد فقط لكل تسعة آلاف مواطن، مقابل محام واحد لكل أربعمائة مواطن في الولايات المتحدة .

المطلق هو رافعة للتقدم العقلي – ومعيار لقياسه وليس كابحا له كما يصور دي . بونو في صفحات لاحقة.

أما المعايير القرآنية، للإصلاح فهي أكثر وضوحا من صلاحيات المدعي العام في القوانين اليابانية، ففي القرآن لا بد أن تصدر التوبة عن الإيمان وأن تعززه، ولذلك جاء الإيمان بعد التوبة، لأن التوبة قد تأتي عفوية نتيجة أمل بعفو أو غير ذلك، فلا بد من تعزيز سلوك الأوبة إلى الرشد، بتحويله من سلوك عفوي، إلى سلوك قصدي صادر عن إيمان داخلي ذاتي، ويجب أن يعقب ذلك الإيمان ترجمة سلوكية بالعمل الصالح . لا شك أن القاعدة هنا واضحة، تضمن فتح الأبواب كلها أمام الفرد مع تحصين المجتمع من أي خروج عليه أو إفساد فيه . ولا نريد أن نتوسع في باب التوبة، وإنما نشير إلى ضرورة الإستحلال والتبرؤ من حقوق الآخرين، برد أموال الربا، وبرد المال إلى صاحبه، وطلب السماح ممن تعرض للإساءة بماله أو عرضه، أو تم التشهير به . أي أن الفكر الإسلامي لم يسمح حتى للدولة بالعفو عن حقوق طرف ثالث لمجرد توبة الشخص المذنب . وفي هذا صيانة تامة لحقوق الفرد المادية والمعنوية وحماية لخصوصياته (privacy) من أية تعديات . وبعد تطبيق هذه القواعد المعروفة ، فإننا يمكن أن نسأل عندئذ : كم محاميا نحتاج لكل ألف نسمة في مجتمع يحتكم إلى الفكر الإسلامي ؟ طالما أن المدعي مصون الحقوق في الدنيا وفي الآخرة، وطالما أن المدعى عليه لديه الحافز الذاتي لرد الحقوق المعنوية والمادية، في الدنيا حتى لا تظل دينا في يوم الحساب ؟ ليس صدفة إذن أن تخلو بعض بيوت القضاء من المتخاصمين .

أن منطق الصخر هو أساس منطقنا التقليـــدي المعـــامل، بتصنيفاتـــه الدائمـــة وتماثلاته، وتناقضاته ، أما منطق الماء فهو أساس منطق الإدراك. والى مـــا قبـــل وقت متأخر، لم تكن لدينا آية فكرة عن كيفية عمل الإدراك ، أما الآن فإننـــا بدأنـــا نفهم الإدراك من حيث كفيفة عمل الدماغ.

إن الحصان مختلف عن السيارة، رغم أن الاثنين نظاما نقل بري . والعصفـــور مختلف عن الطائرة، رغم أن كليهما يطيران في الجو. ولعبة التنس مختلفـــة عـــن لعبة الشطرنج، رغم كونهما تلعبان من قبل شخصين يكون أحدهما فائزا والآخـــر خاسرا. والمرق يختلف عن السباغيتي، مع أن كلاهما طعام، ويتناول كل منـــهما ي بداية الوجبة.

وبنفس الطريقة فإن هنالك نمطين مميزين من أنظمة المعلومات، فهنالك نظـــام النمط (السلبي) التقليدي ، حيث القطع، والرموز والمعلومات مـــن أي نـــوع يتـــم تسجيلها وتخزينها على سطح ما ولا تتغير المعلومات بوجودها على الســـطح . ولا يتغير السطح . وهناك حاجة إلى مشغل ما خارجي يستغل المعلومات حسب بعـــض القواعد. وتخيل لاعب شطرنج، تجلس القطع أمامه بسلبية هادئة على سطح اللعبة ، إلى أن يحرك اللاعب القطع حسب قوانين الشطرنج وحسب الاستراتيجية التي فـــي عقله.

إن الحواسيب التقليدية هي أنظمة معلومات سلبية، حيث يتم تخزين المعلومـــات على أشرطة أو أقراص ثم يتم استخدامها، حسب قوانين محددة ، ولأغراض محددة من قبل معامل مركزي. كما أن تلميذ مدرسة يقوم بحل تمرين حساب فـــي دفـــتر تمارين هو مثال آخر إلى نظام المعلومات السلبي، ففي الأنظمة الســـلبية هنـــاك ،

تمييز واضح بين التخزين السلبي للمعلومات ، وبين استغلالها من قبل مشغل خارجي. إن استخدامنا للغة والرموز يستند إلى أنظمة معلومات سلبية*، حيث أننا نستخدم قطعا مخزنة استنادا إلى قوانين الرياضيات والقواعد والمنطق.

---

* إن تعظيم دور المشغل أو المعامل المركزي هو أمر لا غبار عليه، فالعقل له دوره البارز حتى عند مفكري اليونان، وقد عظم الفكر الإسلامي دوره أيضا، فغاية معظم نشاطات الإنسان هي الوصول إلى حالة من العقل (لعلهم يعقلون) والعقل مناط التكليف . ولا ضرر من استناد العقل إلى أنظمة معلومات لغوية أو منطقية يتهمها بعضنا بالسلبية. إن المواد الخام لا تقرر طبيعة المنتوج النهائي، فالطين موجود في كل مكان، وكذلك الحجارة، وصفاتهما معروفة للجميع، ولكن= =هل يستطيع الجميع أن يحولوا الطين إلى تحفة نادرة والحجارة إلى تماثيل؟ إن المعاملة العقلية (Mental Process) أكثر أهمية من المعلومات ذاتها . والتصنيع أهم من المواد الخام في كثير من الصناعات، وبخاصة في مجال الصناعات المتقدمة (high tech) بل إن المعرفة الصناعية(know – how) أهم بكثير في العديد من الصناعات من المواد الأساسية التي تدخل في هذه الصناعات . إن التركيز على المعاملة العقلية يصبح أكثر أهمية عندما تشح الإمكانات، أو عندما توجد بعض القواعد اللغوية أو المنطقية التي تعيق الإبداع المهني . إن صانع القرار الإستراتيجي في أية مؤسسة يجب أن لا يظل يراوح مكانه متذمرا من قلة الإمكانات، أو المواد، أو البيروقراطية ، بل عليه أن يطور أساليب معاملة عقلية فعالة ضمن ما هو موجود، كذلك من يضع خطة جذرية للتغيير، حيث يمكن أن يكتفي بانتقاد عدم قدرة العاملين معه على التكيف وعلى مواكبة متطلبات خطته،

أما النمط الآخر من النظام فهو النظام الإيجابي. حيث لا يوجد مشغل منطقي خارجي، وكل النشاط يجري داخل سطح التسجيل حيث المعلومات تتفاعل مع السطح ، حتى تشكل منظومات ونتائج، ونماذج ، ودارات... الخ.

وأن المثال البسيط جدا على نظام النمذجة الذاتي التنظيم والنشط ، يعطيه المطر الساقط على أرض بكر . ففي وقته، يشكل المطر نفسه في جداول، ونهيرات وأنهار ، وهكذا يتغير منظور الأرض. لقد حصل تفاعل بين المطر وسطح الأرض، وكان هناك نشاط . وان مزيدا من ماء المطر في المستقبل سوف ينساب في هذه القنوات التي تم تأسيها .

إن الأنظمة السلبية تسجل المكان او الشكل على السطح فقط، وهذا المكان أو الشكل له معنى لأنه يشير إلى موقف معروف مسبقا أما الأنظمة الإيجابية فهي تسجل المكان ، والزمان، والنتائج والمحتوى . إن كل هذه الأشياء معا هي التي تقرر كيفية شكل النماذج، وأي الأشياء ترتبط مع أيها الآخر.

ولكن هل يكفي ذلك لإنجاح خطته ؟ أم أن عليه بدل النقد المستمر (للقواعد الموجودة) أن يركز على ابتداع وسائل معاملة ومعالجة تبدأ من الوضع كما هو موجود وتسير به نحو الهدف المطلوب محولة الموانع إلى دوافع. إن العقل البشري الجديد يجب أن يتعامل مع البيئة المحيطة على هذا الأساس، وليس على أساس أن لا بد من الهدم من أجل البناء لأن الإصرار على الهدم قبل البدء بالبناء يشكل تبديدا للموارد، وإصرارا أجوف على البدء من الصفر ، وعدم القدرة على تحويل التنافس (بين الأفكار والأشخاص) إلى تعاون .

إن الأنظمة الإيجابية تسمى أحيانا بالأنظمة ذاتية التنظيم، لأنها لا تعتمد على منظم خارجي*، بل تنظم نفسها. وان موضوع الأنظمة ذاتية التنظيم بأجمعه أخذ يكتسب أهمية متزايدة في علم الأحياء ، والديناميات الحرارية، والرياضيات والاقتصاد .

سنة 1968وضعت كتابا عنوانه "آلية الدماغ" (وقد نشر سنة 1969 من قبل جوناثان كيب في لندن ، وسيمون شوستر في نيويورك كما أنه قيد الطبع لدى

---

* لماذا هذه العودة إلى أسلوب الجدل حول وجود الدجاجة أم البيضة أولا ؟ إن النظام الذاتي التنظيم لا بد أن تعينه قواعد وتجارب خارجية قبل أن يتمرس في مجال صناعة النماذج، وإلا فما الفرق بين النجاح والفشل ؟ بين الإبداع وبين الخمول . وحتى لو كانت السيارة تسير بمبدأ القصور الذاتي، فلا بد من عوامل خارجية تضمن حسن أدائها. إنا نفهم تمييز العقل الإنساني عن أنظمة المعلومات السلبية ، بصفته نظاما صانعا للنماذج وذاتي التنظيم، ولكن هذا العقل بحاجة إلى عوامل ذاتية، وأخرى خارجية (بيئية وموضوعية) حتى يقوم بعمله، وحتى يمكن تطويره، حتى لا نتعامل مع القدرة العقلية (كطاقة قدرية) ليس لنا فيها أي شأن . الأمر الذي يغذي النزعات العرقية والشوفينية وهي آخر ما نحتاجه في العصر= =الجديد . إن كون العقل نظاما ذاتي التنظيم لا يعني أنه ليس بحاجة إلى معلومات والى (In put) والى تغذية راجعة (Feed back) مستمرة، بل إنه بحاجة إلى ساعات نوم كافية، والى غذاء متوازن حتى يتمكن من العمل . إنه استثمار حقيقي، تتوقف عوائده في أحيان كثيرة على ما تم ضخه فيه .

بنجوين) . ولم يلتفت إليه كثيرون في ذلك الوقت، لأن ذلك الوقت لم يكن مستعدا بعد لتقبل أفكار كهذه.

وفي ذلك الكتاب وصفت كيف أن الخلايا العصبية للدماغ تتصرف كنظام ذاتي التنظيم ، وتقوم بتشجيع المعلومات الواردة إليها على أن تنتظم نفسها في سلسلة من الحقائق المستقرة تتبع بعضها بعضا-مشكلة النتائج والنماذج. ولقد وصفت ذلك السلوك في تشكيل النماذج على أساس انه السلوك العصبي للشبكات العصبية البسيطة تماما.

واليوم أصبحت المبادئ التي انطلقت في ذلك الكتاب مقبولة قبولا حسنا ، وهي تشكل أساس التطورات الحديثة في الحواسيب، وآلات الشبكات العصبية ، والحواسيب العصبية. وقد تم اقتراح نماذج عديدة وأجهزة حواسيب تحاكي هذا النمط من النظام في أوقات لاحقة، من قبل جيرالد اديلمان-على سبيل المثال- سنة1997 ، ومن قبل جون هوبفيلد (معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا) . ولا أريد أن أزعم أن هذه التطورات اللاحقة كانت تستند إلى مفاهيم عبرت عنها سنة 1969 ، لأن أناسا آخرين كانوا أيضا يعملون في مجال سلوك الشبكات العصبية، ولكن ما أزعمه فعلا أن الأفكار والمفاهيم التي تبدو غريبة ومخبولة وغير ملائمة في ذلك الوقت أصبحت تشكل الآن التيار الرئيسي في التفكير ، إذ هنالك الآن فروع من الرياضيات تتعاطى مع سلوك مثل هذه الأنظمة، ومما يثير الاهتمام هنا أن نموذجا اقترحته سنة 1969 تمت محاكاته في حاسوب من قبل أم . هـ .لي* وزملائه، وقد

---

* **أم.هو.لي د أ.د. مارود أرجان - المجلة العالمية للدراسات الإنسان - الآلة (1982) المجلد 17 ص 189-220**

تصرف هذا الحاسوب حسب ما كان متوقعا منه ، وان هذا مهم لأن النمادج التـــي تقوم على المفاهيم لا تستطيع أن تعمل كما هو متوقع مها في بعض الأحيان.

عندما ترتدي ملابسك كل صباح، يكون لديك عدة قطع من الملابس ، فإذا كنـــت ترتدي ما مجموعه أحد عشر عنصرا من اللباس، فإن هناك نظريا ما يزيد عن 39 مليون احتمال ممكن لاحق، ومن هذه حوالي خمسة آلاف احتمال عملي ، وعلـــى سبيل المثال ، لا يمكنك أن ترتدي حذاءك قبل جواربك، ورغم ذلك فـــإنك بحاجـــة لأن تختار من بين خمسة آلاف احتمال حتى ترتدي لباسك فعلا.

إن مبادئ الرياضيات التي تعطينا مثل هذا المدى الواسع من الخيــــارات بســيطة وسوف نأتي على ذكرها لاحقا، ولكن النقطة هي انه لو كانت أدمغتنا تعمل مثـــل الحواسيب التقليدية ، فإننا سنحتاج عندها إلى يومين اثنين حتى نرتدي ملابســـنا ، وسوف نحتاج إلى أسبوع لتحضير طعام الإفطار، والى أسبوع آخر قبل أن نذهـــب إلى العمل. وبوسعك أن تحسب كم سنحتاج من وقت لرفع كأس من الماء في كــــل مرة نريد ذلك ، وكم سنحتاج من وقت لملأها ، وكم سنحتاج من وقت من أجـل أن نشرب منها .

ولكننا نرتدي ملابسنا في وقت عادي ، ونشرب بشكل عادي، لأن الدماغ يتصـــوف كنظام ذاتي التنظيم ، يستطيع أن ينشئ نماذج روتينية، وفور أن يتم تأسيس هـــذه

النماذج فإننا نستخدمها مباشرة،وينبغى أن نكون شاكرين بشكل هائل لمثـــل هـــذه السلوك المنمذج [*] ، لان الحياة دونه ستكون مستحيلة تماما.

فهل من المهم حقا أن نفهم الطريقة التي يعمل بها الدماغ فعليا ؟ [†] وهل من المـــهم حقا انه ينبغي أن نفهم نمط نظام المعلومات الذي يتضمنه هذا الأمر ؟

انه مهم فعلا . فلطالما عانت الفلسفة وعلم النفس من أوصاف تطارد أوصافا فـــي رقصة معقدة على إيقاع موسيقي الكلمات. إن الوصف لا يوازي إلا ما يصفه ، فإذا أردنا أن نمضي قدما فان علينا فعلا أن نفهم الآليات الرئيسية. ولا توجد آلية اكـــثر بساطة من عملية الشبكات العصبية في الدماغ ، وحال أن نفهم هذه الآليات ، نكون قد تحررنا من الوصف اللامتناهي، إذ يمكننا عندها أن نبني على هذا الفهم من أجل

---

[*] قد يبدو السؤال التالي غير مناسب في هذا المقام، ولكن لا بد من طرحه : هـــل يبني كل إنسان نظامه العقلي (كآلية عمل جاهزة للعمل) أم أنه يتلقاه نعمـــة مـــن الخالق عز وجل ؟

إن لدى كل واحد منا – وحتى في المجتمعات المتخلفة جهازا لا تســـتطيع أعتـــى 'مدنيات أن تصنع مثله من عدم، والأكثر من ذلك أن لهذا الجهاز إمكانات تطـــور طوير وتنوير هائلة جدا. فالله سبحانه وتعالى لم يعط الإنسان هذا الجهاز الراقي طالبا منه أن يقف منه موقفا سلبيا، بل دعاه إلى تطويره وحمله مسؤولية ذلـــك، حتى يعيش حياته كلها مبدعا، ومعطاء وخلاقا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

[†]في الفكر الإسلامي يغدو فهم الدماغ واجبا شرعيا لا مجـــال للتســـاؤل عنـــه أو التساهل فيه . ﴿وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ الآية 21،20 من سورة الذاريات .

إيجاد أدوات تفكير جديدة، (كما في عملية التفكير الجانبي)، ونستطيع عندها أن ندرك الأفكار والتوجهات السيئة في النظام، ونرى كيف أن هذه العيوب تشجعها بعض عادات تفكيرنا التقليدي . وبإمكاننا أن نبدأ في رؤية الحاجة إلى عادات تفكير جديدة.

وسوف انظر في هذا الكتاب بشيء من التفصيل في كيفية توصل الدماغ إلى تشكيل واستخدام النماذج ، وسوف انظر في كون هذا السلوك المنمذج هو أساس الإدراك مثل التذكر ، والتمييز ، والاستقطاب والتركيز والفكاهة والرؤية الداخلية، والإبداع، وكذلك مزايا ومشاكل اللغة .

وسوف استطلع الكيفية التي تؤثر فيها آلية العقل فعلا على تفكيرنا. إن معظم العاملين في هذه المجالات كانوا مهتمين بتصميم اجهزة حاسوب تفكر بطريقة العقل البشري- أي خلق الذكاء الاصطناعي-أما اهتمامي الخاص ، فكان التفكير في سلوك هذه الأنماط من النظام من أجل رصد عيوبها، حتى نكون قادرين على استخدامها بشكل أفضل . أنني أريد أن أبني على نقاط قوة هذا النظام ، وأن أقلل من نقاط ضعفه، أنني أريد أن أصمم "برنامجا" أفضل لاستخدام الدماغ * .

*** لا شك أن هذا الإدراك يستحق التفكير فيه مليا، إنه منطقي تماما عند النظر إليه ضمن مفهوم الإدراك المتأخر ، إن العديد من المليارات قد أنفقت حتى الآن من أجل تصميم حواسيب ذكية وبرامج مناسبة لتشغيلها، دون الإلتفات إلى أن هناك (حواسيب) أكثر رقيا وتطورا، داخل رؤوسنا، وكل ما هو مطلوب هو إيجاد البرامج المناسبة لتشغيلها والإفادة منها . ولكن يبدو إن الإنجراف البشري وراء**

إن أنظمة تفكيرنا التقليدي تعتمد على اللغة، اكثر من اعتمادها على كيفية عمل الدماغ، ونتيجة لذلك ، فإن هذه الأنظمة تتجه أحيانا إلى تشجيع النقاط السيئة من هذا النظام (مثل شدة الاستقطاب) والى إهمال نقاط القوة مثل (الخلق وتغيرات الإدراك).

إن النماذج التي تتشكل في الدماغ ليست متساوقة، وهذه نقطة حاسمة في فهم آليات الدماغ . ولكن ماذا تعني؟

التقدم المادي، جعل الجهود البشرية في مجالات البحث والتطوير (R&D) تنأى عن البحث في داخل الإنسان ، وتترفع عن فهم الجوانب غير المادية في داخله سواء كانت إمكانات كامنة أم احتياجات غير مشبعة . وهكذا، صار التركيز كله على إشباع الحاجات الأساسية (المادية)، وتم تجنب الحاجات الروحية حتى في برامجنا التربوية. وتحت ستار ما تسمى بضغوط الحياة العصرية، فإن الوالدين مثلا يكدحان في سبيل أن يظهر ابنهما بأبهى منظر من حيث الصحة العامة واللباس وحتى اقتناء الألعاب، دون أن يفطنا إلى حاجاته الروحية، وما يمكن أن تفعله القبلة أو اللمسة أو الجلسة العائلية التربوية الهادفة . إننا نضيع أبناءنا باسم الحفاظ عليهم، وننسى عقولنا (مناجم الذهب الحقيقية) لصالح أحلام يقظة، ومناجم خيالية في أرض بعيدة مجهولة، قد نعثر عليها وقد لا نعثر، ولكننا في الحالين نكون قد تناسينا المناجم الحقيقية . السؤال بسيط وهو : كم ننفق على تطوير وأبحاث الحواسيب الحديثة ؟ مقابل ما ننفقه على برامجنا التربوية (كاستثمار في العقل البشري المقبل)؟

عند قيادتك السيارة إلى مطعم جديد ، تمضى على طول الطريق التي تألفها أكثر من سواها . وقد تطول الرحلة . وبعد الغداء يأتي صديق ممن كنت تتغدى معهم ، ويبين لك أن هناك طريقا مباشرة اكثر باتجاه بيتك. فتأخذ هذه الطريق، وتدرك فجأة انك كنت تستطيع توفير الكثير من الوقت لو انك سلكت هذه الطريق في المرة الأولى .

وهكذا ، فالطريق التي سلكتها إلى المطعم ، ليست هي نفس الطريق التي رجعت خلالها. فإذا كان تغير النموذج من (أ إلى ب) ليس نفسه من (ب إلى أ) ، فان النماذج تكون غير متساوقة .

فإذا كان الدماغ كوعي ينساب على طول نماذج الطريق الرئيسي ، فإننا لا نكون واعين عندها حتى إلى احتمال وجود طرق فرعية أخرى ، لأن هذه جرى قمعها مؤقتا من قبل الطريق المسيطر (على التفكير) ، وهذا هو السلوك البسيط والطبيعي للشبكة العصبية كما سوف أصفها لاحقا.

أما إذا استطعنا (بطريقة ما) أن نعبر من الطريق الرئيسي إلى الطريق الجانبي، فان طريق العودة إلى نقطة البداية تصبح واضحة جدا . وهذا التنقل عبر الطريق الفرعية هو أصل مصطلح التفكير الجانبي (العبور عبر النماذج بدل التحرك عليها صعودا وهبوطا) * . أما (الطريقة "ألما") التي قد نعبر بها عبر النماذج فهي تشكل

*** حتى لا يظن القارئ أن ما يطرحه دي . بونو ليس أكثر من ترف فكري، فإننا ننبه إلى أن لهذا الطرح تطبيقاته الإقتصادية (والإدارية) والسياسية، ويكفي أن نشير إلى محاولات تسوية القضية الفلسطينية في نهاية القرن العشرين كتطبيق**

عملي حتى ندرك أهمية هذا الطرح وخطورته، لقد كان هناك توجهان أولهما عربي – سوفيتي يقوم على أسلوب المسار الرئيسي (Main track)، الذي يقول أن لا بد من مؤتمر دولي لحل القضية الفلسطينية بصفتها لب الصراع في الشرق الأوسط. على أن يأتي هذا الحل ضمن قواعد الشرعية الدولية، بتطبيق قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة، وعلى أساس مبدأ الأرض مقابل السلام على كل الجبهات، بمشاركة الأطراف المعنية كلها، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . أما التوجه الثاني وهو التوجه اليهودي، فكان يقوم على إجراء محادثات مع كل دولة على حدة، دون شروط مسبقة . (دون مرجعية أو شرعية دولية). وقد جاء مؤتمر مدريد أخيرا في بداية التسعينات من القرن العشرين، كمسار عام، ولكن الأمور ما لبثت أن سارت في اتجاهات مختلفة، فقد ظهر ما يسمى بالمسارات السياسية (كبديل عن مصطلح الجبهات)، وصار هنالك ما يسمى بالمسار الإسرائيلي – الفلسطيني، والمسار الإسرائيلي – الاردني، والمسار الإسرائيلي اللبناني، والمسار الإسرائيلي – السوري . ولنلاحظ هنا أن مصطلح المسار(Track) قد اقحم في المجال السياسي إقحاما، مع انه لا توجد عوامل مشتركة تجمع أي طرفي مسار معا حتى الآن. ولكن يبدو أن منظري هذه التوجهات كانوا على عجلة من أمرهم، بحيث جلبوا المصطلح من مختبرات الأبحاث الفكرية والعقلية إلى الموائد السياسية والاعلامية مباشرة . مع أن مصطلح الأطراف أكثر دقة في المجال السياسي، وكذلك مصطلح الجبهات (إذ لا تعني الجبهة المواجهة العسكرية فقط، بل تعني وجود مواقف متعارضة بين طرفين أو أكثر، وبالتالي ، فإن مصطلح الجبهات المختلفة أكثر تعبيرا عن الواقع من مصطلح المسارات المختلفة .

جوهر الفكاهة ، وتتوفر من خلال التفكير القصدي الخـــلاق، وبتقنيـات التفكـير الجانبي مثل التحريض . انه مغزى الفكاهة يكمن على وجه الدقة في أنها تشـــير إلى تشكيل نماذج، ولا تساوق نماذج، واستبدال نماذج ، ولا يمكن لأي من هـذه أن يظهر في نظام معلومات سلبي ولهذا السبب كان على الفلاســفة وعلمــاء النفـس وعلماء المعلومات من التقليديين أن يتجاهلوا الظرف والفكاهــة، لأن الظرافــة لا يمكن أن تظهر في أنظمة معلومات سلبية، أما الإبداع والتفكير الجانبي فلديهما نفس الأساس الذي تعتمد عليه الفكاهة.

إن تعاقب تجربتنا الشخصية (التاريخية والحاضرة) والكلمات والمفاهيم التـي تزودنا بها الثقافة ، والمحتوى الذي تزودنا به البيئة المباشرة، كلها تقــرر نمــوذج الطريق الواسع السريع لتفكيرنا. فإذا استطعنا بشكل ما أن نعبر إلى طريق جـانبي، فإننا عندها نستطيع أن نحصل على فكرة خلاقة ، تكون منطقية تماما ، وتعـــرف منطقيتها بعد أن تعثر عليها * . إن هذا هو أساس الرؤية الداخلية ونتيجة التفكـير

ولكن السؤال المطروح هو : هل المسار النهائي – السلام الشامل هـــو حــاصل الجمع الميكانيكي لمختلف المسارات ؟ إن الأمر أعقد من هذا التغيـير الإجرائــي وإن كان شاملا .

*** ولكننا يجب أن نكون بحاجة إلى ضرورة تحتم علينا الخروج من نطاق استحواذ الطريق السريع على تفكيرنا . لقد حل الفكر الإسلامي هذه المعضلــة منـذ أمـد طويل، فقد ظل النص (القرآن والسنة) في المقام الأول، مع فتح باب القيــاس (ومن المفارقة أن المصطلح الديني الإسلامي حول " القياس " يتناسب حتـى مـع الأمثلة المعاصرة في قياس المسافات ومقارنتها بيــن الخـط الرئيسـي، وبيــن**

الجانبي القصدي . والآن نأتي إلى النقطة الحاسمة التي تفسر سبب عـــدم قدرتنـــا حتى الآن على أن نحمل التفكير الخلاق على محمل الجد .

إن كل فكرة خلاقة ثمينة (من حيث المفاهيم والمدركات وليـــس مـــن حيـــث التعبير الفني) يجب أن تكون منطقية دوما عند النظر إليها لاحقا، ولو لم تكن كذلك، لما استطعنا أن ندرك قيمتها . ولا يمكن إلا أن تبدو فكرة مخبولـــة ، ولكننـــا قـــد نستطيع أن نلتقطها في غضون عشرين سنة من الزمن، وقد لا نلتقطها أبدا ، لأنـــها قد تكون فكرة مخبولة فعلا .

عندما كتبت أول ما كتبت عن التفكير الجانبي حسب كثيرون انه خبل فكـــري، لأنه كان مناقضا في بعض النقاط لأسلوب تفكيرنا المعتاد. أما اليوم، فان التفكـــير الجانبي يبدو معقولا، بل وضروريا في الأنظمة ذاتية التنظيم. ولسوء الحظ ، ولأن

المسارات الفرعية . كما أن الاجتهاد الشرعي يكاد يشبه المسار الجانبي في حالة عدم وجود نصوص واضحة . ومن أجل أن لا يتم شيء على حساب آخر، ومـــن أجل أن لا يتم إلغاء المسار الأساسي – إذ ليس من المعقول أن يكون كله شـــوا – فإن السماح بالاجتهاد اقترن بعدم وجود نص، أي أنه لا اجتهاد مع النص، بمعنى ن لا داعي للبحث عن مسارات فرعية، طالما أن المسار الرئيســـي قـــادر علـــى يصالنا إلى الهدف بشكل نافع . وباختصار، فإن الخروج عن القواعد الرئيســـية في التفكير ليس عملا إيجابيا دائما، وليس عملا عشوائيا يمكن لنا أن= =نمارسه بداع أو دون داع . بل لا بد من الإحاطة بما هو موجود، والتيقن من عجزه، قبـــل الإنعطاف في المسار البعيد . أي لا بد من القياس قبل فتح باب الاجتهاد .

كل الأفكار الخلاقة الثمينة يجب أن تكون منطقية عند الإدراك المتأخر لها * ، إذا قدر لنا أن نقبلها، فإننا افترضنا أن منطقا أفضل يمكن له أن يصل إلى تلك الفكرة

* الادراك المتأخر يؤدي إلى زوال الدهشة النفسية التي تعتري أي إنسان عندما يواجه شيئا جديدا خارجا عما ألف سابقا . إذ عندما يتعرف الإنسان على شيء جديد (مدهش) فإن حالة من اللاتوازن تعتريه وهو يقلب الأمر على وجوهه : فهل يتقبل هذا الجديد ؟ أم يرفضه ؟ أم ينأى بنفسه عن اتخاذ موقف تجاهه . وكما ورد سابقا، فإن بعض الناس يلجأون إلى آلية دفاع نفسي مختلفة حيال هذا الجديد، بالقول أنه لا يزيد ولا ينقص عن شيء آخر سبق لهم أن عرفوه، وذلك كي يستريحوا من بذل أي مجهود عقلي يتطلبه فهم هذا الجديد. وهذا الأسلوب يشيع بخاصة بين من يزعمون أن تجاربهم واسعة وخبراتهم ممتدة . وهكذا، فعندما تصف مرضا تعاني منه، فإن محدثك سرعان ما يقاطعك ليقول إنه عانى من نفس هذه الأعراض ! وعندما تصف له شيئا= =شاهدته في باريس، فإنه يسارع إلى القول إنه شاهد نفس الشيء في صحراء الربع الخالي، وعندما تتحدث له عن كتاب صدر حديثا، فإنه يسارع إلى نفي أي صفة للابداع عن هذا الكتاب بالقول إنه سبق أن قرأ مثل هذا الكلام قبلا سنوات طويلة . أما في الحالات المعتادة فإن إدراك واستيعاب الطرح الفكري الجديد من قبل المتلقي ، يحتاج إلى دربة واسعة من قبل صاحب هذا الطرح، بحيث يزيل عناصر الإندهاش التي تجعل المرء يفغر فاه، ويزيل عوامل الحياد، التي قد تجعل المتلقي يحجم عن محاولة فهم هذا الطرح الجديد. والأكثر أهمية من ذلك، أن يشعر المتلقي بأن فهم هذا الطرح الجديد (الجانبي) سيوفر له مزايا معنوية أو مادية، وأن حصوله على هذه

في المقام الأول ، وبشكل لا تعود معه حاجة إلى التفكير الخلاق . هذا المنطق يبدو منطقيا في ظاهره لخط تفكير، هو الذي جعلنا لا نعير اهتماما حقيقيا ابدأ للتفكــــير الخلاق. واليوم فقط ، أصبحنا نعرف أن فكرة ما تبدو واضحة بعد الإدراك المتأخر لها ، قد لا تكون منظورة (مرئية) في الرؤية المبكرة، ضمن نظام نمذجة ما . ومن أجل فهم هذه النقطة ، فإن من الضروري أن نفهم ولو بشــكل ســطحي-طبيعــة الأنظمة المنمذجة . فحيث أن الأغلبية الكاسحة من مفكرينا-اليوم وعــبر التــاريخ كانت نأخذ في حساباتها أنظمة المعلومات السلبية فقط، فإن هـــؤلاء المفكريــن لا يستطيعون أن يروا هذه النقطة . ففي هذا النظام التقليدي لا يوجد مجال، ولا توجـد حاجة ولا آلية للتفكير الخلاق ، أما في الأنظمة المنمذجة (Literal thinking) فــإن هناك حاجة مطلقة، وهناك مجال، وهناك آليات للتفكير الخلاق.

ذاك مثال واحد ولكنه مثال مهم جدا-على كيفية فشلنا في فــهم قــدرة نظــام معلومات الدماغ على تحديد تفكيرنا إلى حد بعيد . ولهذا السبب كنا فقراء جدا إلــى التفكير الخلاق الذي نحتاجه أمس حاجة من اجل حل تلك المشاكل التي لا تستســلم أمام التحليل .

المزايا مشروط بتفهم هذا الطرح / أي يجب إيجاد روافع ودوافع تدفــع الإنســان إلى التفكير، لأن الناس بطبعهم يؤثرون العاجل على الآجل .

فكيف يمكننا أن نقفز فعلا بشكل جانبي إلى الطريق الفرعي الذي يعطينا رؤية داخلية خلاقة ؟ *

* الرؤية الداخلية (insight)، والرؤية (sight) يقابلها بالعربية البصر والبصيرة، وعلى الرغم من أن وجود البصر من المفروض أن يؤدي إلى إيجاد بصيرة، إلا أن واقع الحال ليس كذلك دائما. لإن البصر مقدمة فيزيائية للبصيرة الداخلية، إلا عندما يصر الإنسان على رؤية ما يريد فقط، منطلقا من ديماغموجية فكرية معينة، فهنا يحصل التعارض من بين الإثنين، ولكن هذا التعارض ليس هو القاعدة. فالبصر التقليدي من المفروض أن يساعدنا على الوصول إلى أفكار جديدة خلاقة ومبدعة إذا أحسنا توظيفه بشكل قصدي ومنهجي والمستنير بالفكر الإسلامي يدرك أنه :

- مسؤول مسؤولية مطلقة ونهائية عن بصره ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ 36- الإسراء. ويشمل ذلك توظيف المواد الفكرية التي تأتي عن طريق البصر ومعاملتها عقليا للوصول إلى النتائج المطلوبة دينيا ودنيويا، وعدم استخدام البصر فيما لا يرضي الله ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ - النور 30 - 31.
- إن التعارض بين البصر والبصيرة يجب أن يجعل الإنسان يعيد التفكير في المقدمات والمسلمات المطروحة أمامه، لأن " الحيل البصرية " واردة بالمعنى المادي والمعنوي . ﴿إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ الحجر - 15. وكما ينتج السحر مثل هذا التعارض بين البصر والبصيرة، فإن الخوف قد

يمكننا أن ننتظر هذه الرؤية ،أو الحدس ، أو المصادفة، أو الخطأ، أو فرصة ما ، أو فكر مجنونة لشخص ما ، فلقد كانت هذه هي المصادر التقليدية للأفكار الجديدة ، بل إنها لا تزال تعمل بين وقت وآخر. ولكن بوسعنا أيضا أن نستنبط، ومن ثم نستخدم طرقا اكثر منهجية وقصدية، على سبيل المثال، يمكننا أن نستخدم التحريض ، مشيرين إليه بالكلمة الجديدة (PO)* ، التي اقترح استخدامها لتدل على التحريض القصدي . إن مثل هذه الإشارة مطلوبة ، والتحريض هو عبارة تقع خارج المألوف من نماذج خبرتنا، تجبرنا على ترك هذه النماذج ، والانتقال بعد ذلك من التحريض إلى نموذج جديد ، وبذلك نخلق فكرة جديدة .

فماذا غير ذلك نستطيع أن نتعلم من سلوك أنظمة المعلومات الإيجابية التي تخلق النماذج وتستخدمها ؟

يؤدي إلى نفس النتيجة ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ النور – 37 وكذلك :﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ الأحزاب – 10.

كما أن الإنبهار المفاجيء يفقد الإنسان توازنه البصري – وبالتالي الفكري – ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ و : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ النور – 43و البقرة 20.

–إن الأمر منوط بالإدارة الذاتية والداخلية للإنسان لأنها ﴿لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ الحج 46.

*** هذا في الانجليزية، أما في العربية فربما تكون كلمة (حث) معبرة عن نفس المعنى.**

أسقط كرة فولاذ على سطح شاطئ ، وسوف تجد أنها تطمر نفسها في الرمـــل تحت النقطة التي رميتها منها مباشرة ، اسقط نفس الكرة عند النهاية الواسعة للقمـع بغض النظر عن المكان الذي تسقطها منه (ضمن مسافة نصف قطر القمع)، وستجد أن الكرة تخرج دائما من ذات الموقع بالضبط. إن الماء الساقط في أي مكان فـــي منطقة تجمع مائي لنهر، سوف ينتهي به الحال إلى النهر. والنماذج في نظام ذاتـــي التنظيم تتصرف بنفس الطريقة... إن لديها مساحة تجميع واسعة ، مما يعني أن أية نماذج غير مستقرة سوف تنتهي جميعها إلى النموذج الرئيسي المســـتقر . وهــذا السلوك التجميعي هو ما نسميه "التركيز" [*] .

والتركيز هو أثمن ما في الإدراك ، لانه يعنـــي أن بإمكاننـــا تذكـــر الأشـــياء والمواقف، حتى لو لم تكن على نفس الشكل الدقيق الذي عرفناها عليه في المـــرة الأولى ويمكننا أن نتعرف إلى طبق طعام من آية زاوية تم تصويره منها حتى لـــو كانت الصورة تظهره بيضاويا من زاوية التقاطها [†] .

---

[*] **هذا عند الحديث عن منطق الماء في الإنسياب، أما عند النظـــر إلـــى العمليـــة الفكرية من زواية البصر والتبصر، فإننا نخرج بنتيجة مشابهة . ونرى التشـــابه من استخدام تعبيري (البؤرة) و (التركيز) في اللغة العربية للتعبير عـــن نفـــس المصطلح الإنجليزي (Focusing) .**

[†] **لنلاحظ أن المثال التوضيحي الذي استخدمه دي . بونو يتعلق بالبصر (تصويـــر طبق من أحد جوانبه فقط). إن الضوء والماء مترابطان كأمثلة فكرية مســـاعدة عندما يتعلق الأمر بالتجميع الأمر الذي يؤكد على أهمية حاسة البصر مرة أخـــرى في تكوين المدركات والمفاهيم .**

إن اللغة تعتمد على هذا التركيز والتجميع للنماذج . وعلى حين أن هـــذا ذو فائدة عظمى بشكل عام ، إلا أن هناك بعض المشاكل ، إننا نستطيع ادراك الأشـياء من خلال نماذج مستقرة فقط. والإنجليزية على الأغلب هي أغنى لغة في العالم * ، لأن هناك وفرة في الكلمات والألفاظ المتقاربة جدا. إنها لغة ممتـــازة للوصــف ، ولكنها فقيرة كلغة إدراك. ولعل هذا قد يفاجئ لا بل يحبط أولئك الذين يبجلون كفاءة وتنوع هذه اللغة. ولكن الإنجليزية لا تحتوي على الكثير من التدريج للاستخدام مـا بين "صديق" و"عدو" ، أو بين "يحب" ولا "يحب" ، أن هناك كثيرا من الطرق التــي نستطيع من خلالها أن نصف تدرجات البين –بين ،ولكنها تأتي اوصافا في النهاية . أن لغة للأسكيمو في شمال كندا تحتوي على عشرين تدرجا بين "صديق" و"عدو" بل أن هناك كلمة واحدة للدلالة على الجملة التالية كلها: "أنني أحبك كثيرا ، ولكن ليس إلى حد أن أذهب إلى الصيد بصحبتك. إن مثل هذه الكلمة تسمح للمراقب بأن يدرك وجود شخص آخر بين الصديق والعدو بهذه الطريقة .

أن العقل يستطيع أن يرى ما هو مستعد لرؤيته فقط ، وعلى الدماغ أن يسـتخدم نماذج وتجمعات موجودة . وعندما نعتقد أننا نقوم بتحليل معطيات ، فإننا حقيقــة ، لا نزيد عن كوننا نقوم بتجريب مخزوننا من الأفكار القائمة أصلا ، من أجـــل أن نرى أيها يمكن أن يناسب المقام . صحيح انه إذا كـــان مخزوننــا مـــن الأفكــار المحتملة اكثر ثراء ، فإن تحليلنا سيكون ملائما اكثر ، ولكن تحليل المعطيات لـــن يسفر من تلقاء ذاته عن انتاج أفكار جديدة. وهذه نقطة غاية فـــي الأهميـــة ، لان

***لا ندري ما هو المقياس الذي اعتمده دي . بونو عندما قرر أن الإنجليزية هـــي أغنى لغة في العالم . فهل اعتمد عدد الكلمات ؟ أم غير ذلك ؟**

الأساس الكلي للعلوم والتقدم يستند إلى الاعتقاد القائل أن تحليل المعطيات سوف ينتج كل الأفكار التي نحتاجها من أجل أن نتقدم *. ولكن الحقيقة هي أن على خالق الأفكار الجديدة أن يقوم بكثير من عمل الأفكار داخل نطاق عقله، ثم يفحص هذه الأفكار في مواجهة المعطيات ، أما تحليل المعطيات وحده فليس كافيا .

إن تعلم لعبة كرة المضرب ، أو أداء رقصة جديدة ، أو التعامل مع قارب إبحار ، يتطلب عادة الكثير من التكرار والممارسة ونعرف بحكم الخبرة أن التعلم يحتاج إلى وقت وتكرار .

فكم مرة ينبغي عليك أن تضع إصبعك في اللهب ، حتى تتعلم أن لا تفعل ذلك ؟ تحتاج مرة واحدة . كيف اصبح التعلم سريعا إلى هذه الدرجة؟ إن الإصبع في النار يمكن أن يكون أبسط مثال عن "أنظمة المعتقدات" . إن نظام المعتقد هو أسلوب لإدراك العالم يمنعنا من اختبار مدى صلاحية المعتقد . إن أنظمة المعتقد تخلق إدراكات تعزز هذا النظام نفسه ، ويمكن أن تكون قوية جدا إلى حد أن الناس يقدمون حياتهم ذاتها في سبيل معتقداتهم .

إن على العقل أن يشكل أنظمة معتقدات، لأنه من دونها لن يتمكن أبدا من ربط كل تجاربه المختلفة . إنها عملية وضرورية . تلك الأمور المتداولة التي تشكل أسس أنظمة المعتقدات لدينا . وان وظيفة (الربط) للدماغ تظهر مباشرة من الطريقة التي تلف بها الأعصاب ، وتسمح لنا بالاعتقاد بالسبب والأثر والعلاقات الأخرى (مثلما اقترح الفيلسوف كانت) .

---

* **من الذي قرر ذلك ؟**

فما مدى حقيقية أنظمة المعتقد ؟ وما الذي تعنيه الحقيقة والإدراك ، والاعتقاد، والمنطق ؟ وخارج نطاق اللعبة المحددة للرياضيات ، هل الحقيقة بحد ذاتها هي نظام معتقد ؟ ما من شك أن بعض الحقائق حقيقية حقا . ولكن بعضها قابل للاستخدام على انه حقيقي ، ولربما كانت القيمة الاجتماعية للحقيقة هي أشبه بالوجهة- طالما أننا لا نفترض أننا وصلنا إليها .

ما الذي سيحدث لو أننا آثرنا عدم وجود نهضة جديدة، وآثرنا مواصلة قناعتنا بعادات تفكيرنا التقليدية ؟

ربما تختفي كل مشاكلنا الراهنة هكذا ، ويصبح العالم مكانا أفضل مما هو عليه. لماذا ؟ لان هذه ربما تكون هي دورة القدر، أو التطور* .

قد نغدو اكثر قدرة على التعامل مع المشاكل بوجود مهاراتنا التفكيرية الموجودة الآن . لماذا ؟ لأننا أصبحنا اكثر خبرة ولان المزيد من المعلومات أصبح متاحا اكثر .

إن التغيرات في القيم كان من الممكن أن تكون كافية لقيادة مهاراتنا التفكيرية الحالية لحل كافة المشاكل، لماذا ؟ لان الخلل ليس في مهاراتنا التفكيرية ولكنه في أطرنا القيمية .

ربما نشعر بالقناعة من الاحتمالات الواردة أعلاه ، وربما لا نقتنع بها .

لا مكان لذلك في الفكر الإسلامي لأن الله يقول (لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ربما ينبغي علينا أن نقيم مدى ملاءمة طرائقنا القائمة الآن في صناعة تقدمنا، وهذه الطرائق تشمل : مفهوم السلوك الذكي، ومفهوم التطور، وما للجدل السياسي وما عليه ، وتحليل المشاكل ، وتحليل المعطيات لإنتاج أفكار جديدة، ودروس التاريخ ، والتحولات الأساسية في القيم , ويمكننا أن نلخص الطرائق القائمة الآن على أنها " العملية الذكية للمنطق التقليدي في التعامل مع المعلومات الموجودة ضمن إطار من القيم .

أنني اعتقد أن هذه الطرائق غير ملائمة ، فمن المؤكد أن الذكاء لا يكفي ، وهناك كثيرون من ذوي الذكاء المرتفع هم مفكرون ضعاف . وعلى سبيل المثال ، فإن شخصا ذكيا يمكن أن يستخدم ذكاءه ببساطة من أجل الدفاع عن وجهة نظر معينة، وكلما كان الدفاع حاذقا اكثر ، كلما قلت حاجة هذا الرجل لاستطلاع الموضوع ، والاستماع إلى الآخرين ، أو لتوليد بدائل . وهذا هو الضعف في التفكير .

إن العلاقة بين الذكاء والتفكير تشبه العلاقة بين السيارة والسائق ، فقوة محرك السيارة وهندستها . تمثل طاقة كامنة، أما الطريقة التي تؤدي بها السيارة عملها فعلا ، فتعتمد أيضا على مهارة السائق . إن سيارة جبارة قد تقاد بشكل سيء وسيارة وضيعة قد تقاد بشكل جيد .

أننا نولي التطور قدرا كبيرا من الإيمان به كطريق للتقدم وما ذلك إلا لأننا نعتقد انه يعمل جيدا ، ولأننا أيضا شكاكون كثيرا في المقابل للتطور ، ألا وهو التصميم . إننا نشك في الأفكار المصممة وفي المستقبل المصمم لأننا نعتقد أن كل التصميمات تأتي من وجهة نظر محددة . ونحن نعتقد أن التصاميم لا يمكنها أن

تأخذ في الحسبان كافة العوامل المعينة المناسبة لموضوع ما ، وأنـــها لا تناسـب الطبيعة الإنسانية ، والاحتياجات الانسانية، ولا يمكنها أن تخبرنا مقدما عـــن ردود الفعل التي قد تنجم عنها.

إننا لا نفكر إلا بتصميم كتل الإبراج. إن كثيرا من هده النقاط صحيح، وعلى الرغم من ذلك، فإننا نصمم أشياء مثل " الدساتير، والأنظمة القانونية، والطب، والسيارات، والسجاد.

إننا نفضل أن نضع ثقتنا في التطور، وما هذا إلا لأن التطور تدريجي ويســـمح لضغط الحاجات، والقيم، وردود الفعل، والأحداث بإثراء الأفكـــار، وهـــو يســمح بظهور قوة التشكيل التي يتمتع بها النقد، فتموت الأفكار السيئة، وتعيـــش الأفكــار الجيدة، لا بل تغدو أفضل . كما أننا بالفعل نحب أسلوب التطور لأنه يناسب عادات تفكيرنا التقليدية. وللتغير طاقته الخاصة له، ويمكننا أن نعدل ذلك ونسـيطر عليـــه بإستخدام ملكاتنا النقدية، لأن النقد هو أساس مورونتا التفكيري. كما أن التطـــور جماعي أيضا ويبدو ديمقراطيا، على حين أن التصميم يبدو استبداديا.

ورغم كل هذه الأسباب الوجيهة لتفضيل التطور والثقة به، إلا أن هناك خللا خطيرا يعتور العملية التطورية، وافترض مثلا أنك اعطيت بعض الكتل الخشبية من ذوات الأشكال الهندسية (مربعة، ومستطيلة، ومثلثة .... الخ)، ولنفترض أنك أعطيت هذه القطع قطعة قطعة، وطلب منك أن تحاول ترتيب هذه الكتل من أجـــل أن تحصـــل على شكل هندسي أكبر مع كل إضافة تضيفها، وعندما تعطى القطعة التالية، فـــإنك تضيفها على البناء الذي لديك كلما كان ذلك ممكنا. إن ما يكون عليه الحال عند هذه اللحظة هو الذي سيقرر ما سوف تفعله في الخطوة التالية. وفقط، عندما يغدو مـــن

المحال أن تبني على ما هو قائم لديك فإنك ستفك كل ما ركبت من قطع وتبدأ مـــن جديد. وتأتي هذه النقطة عندما يصبح الترتيب الذي يحصـــل عليـــه مـــن خـــلال استمرار البناء على ما لديك غير ملائم. فعند هذه النقطة ينبغي عليـــك أن تعـــود وتفكك كل القطع التي ركبتها للتو، من اجل أن تعيد استخدامها على أفضل وجـــه ممكن، وبغض النظر عن التتابع الذي استلمتها في الأصل على أساسه * .

والخلل في التطور هو أن عاقبة التطور هى التى تقرر الأفكار والبني لتـــي نستطيع استخدامها . فإذا كان خط التطور ملائما، فإننا نمضي قدما على ذلك الخط، وفقط، عندما يصبح التطور كارثيا فإننا نعود لنفكر في الأمر مرة أخرى. وهكـــذا،

*** هذا صحيح عندما يتعلم الإنسان عن طريق التجربة والخطأ، ولكن لنفترض أنـك أعطيت مع القطع الخشبية رسما توضيحيا، يعطيك صـــورة مسـبقة وشـمولية ومفصلة عن الخطوات التي ينبغي القيام بها للحصول على الشكل المطلوب،فـــإن العملية ستصبح أكثر يسرا من ذي قبل بكثير . إن العامل في مجال التفكـــير مـــا ينبغي له أن يفترض انه وحده، وأن عليه اكتشاف كل شيء بنفسه، بل يجـب أن يفيد من التجارب السابقة لبني البشر.**

وعندما يكون الرسم التوضيحي موجودا، فلا داعي لأن يستبعده اللاعب، لمجـــرد رغبته في الاعتماد على نفسه، لأنه عندها يضيع وقته هدرا. هذا ما جاءنا فـــي القرآن الكريم صور شمولية ولكنها مفصلة أيضا ، يثبت نجاحها يوما إثر يـــوم. ونفيد منها كلما واظبنا على التفكير في أبعادها. فهل نتركها جانبا ؟ إن من العجب العجاب أن بعض العاملين في مجال الفكر، قرأوا مئات المجلدات، وقصرت بـــهم الهمة عن قراءة هذا الكتاب – القرآن الكريم – إنها دعوة مفتوحة للجميع.

فإن الأفكار والبني التي نستخدمها قد تقصر كثيرا عما يمكن أن نفعله بالمتاح من المعلومات. إن التطور ليس آلية فعالة بأي معنى بسبب اعتماده على النتائج، وفي أحسن أحواله فإنه يكون ملائما.

واللغة بأحد المعاني هي متخف للجهل *، ذلك أن كل كلمة وكل مفهوم قد دخل اللغة في مرحلة من الجهل النسبي قياسا إلى تجربتنا الكبرى الراهنة. ولكن الكلمات والمفاهيم تتجمد في حالة من الديمومة بفعل اللغة، ويظل يتوجب علينا أن نستخدم هذه الكلمات والمفاهيم للتعامل مع حقائق اليوم الواقعة، مما يعني أننا قد نجبر على النظر إلى الأمور بطريقة غير مناسبة بتاتا.

إن كلمة "تصميم" يجب أن تكون كلمة مهمة جدا، لأنها تغطي كافة مناحي عملية وضع الأشياء معا من أجل تحقيق تأثير ما . وفي الحقيقة ، فإن الاستخدام اللغوي للكلمة قد جعل منها كلمة ذات معنى محدود. إننا لا نفكر بالتصميم إلا من حيث الرسوم، والهندسة، والمعمار . وبالنسة للكثيرين فإن التصميم يعني المظهر البصري فقط كما في خطوط الموضة.

*** الهجوم على اللغة هنا خارج عن السياق ويلاحظ أنه تم إقحامه في الطرح إقحاما لا داعي له . أما بشكل عام، فإن اللغة هي مجموعة رموز، وبهذه المعنى فهي محايده من حيث التطوير أو التنوير الفكري. والأمر منوط بأهلها . أي أن الحديث عن لغة بعينها قد يكون مبررا، أما الحديث عن اللغة على إطلاقها فلا مبرر له، وحتى لو كان دي بونو يقصد اللغة الإنجليزية، فإنه كان عليه أن يشير إلى ذلك، لأن الكرة الأرضية، وعالم الإنس لا يدور حول اللغة الإنجليزية فحسب ودون سواها من اللغات.**

إن اللغة بنفسها ما كان لها أبدا أن تطور كلمة (بو) – لأن ذلك لا يندرج ضمن خط التطور، ولكن هناك حاجة لهذه الكلمة، فإذا لم يكن التطور كافيا فهل يجب أن نحدث ثورة ؟ إن هذا هو الرد المعتاد عندما تقتضي الحاجة تغييرا جذريا ليس بمقدور التطور أن يحدثه . ولكن الأسلوب المعتاد للثورة في معظم المجتمعات، لم يعد معقولا، فالثورات خطرة، ومبددة، ومفسدة جدا. وفي النهاية، فإن الثورة قد تزيد عن مجرد تبديل مجموعة من الناس الذين يديرون النظام بمجموعة أخرى، دون إحداث كثير من التغيير في النظام نفسه.

نكاد نحتاج إذن إلى مصطلح جديد كالتطوير الإيجابي (Provolution) للدلالة على تغير أكثر جذرية من التطوير، وأكثر بطأ من التثوير، أنه تغيير من هذا النوع الذي عنيت في كتابي "الثورة الإيجابية في البرازيل "، فالأسلحة ليست رصاصا، وإنما مدركات وقيم.

والخطوات صغيرة ولكنها تراكمية، وهناك عمل دؤوب باتجاه جعل الأشياء أفضل حالا، وليس باتجاه تدمير عدو ما . إنها تبنى على منطق الماء لا على منطق الصخر.

إن وسائل الإعلام، والفنون، والثقافة قد تكون آليات قوية لتغيير القيم * . فإلي وقت غير بعيد كان على غير المدخنين تقريبا أن يعتذروا عن عدم تدخينهم. أما

*** بصرف النظر عن حدود مصطلح ثورة، فإن الضرورات الموضوعية والذاتية، في بيئة ما (البيئة قد تكون جغرافية ، أو سياسية، أو اقتصادية، أو كل ذلك)**

اليوم فإن المدخنين يتراجعون ويعتذرون . كما أن القلق المتزايد بشأن البيئة، والقيم البيئية يبين مدى تراكمية وقوة الآراء التي يتم التعبير عنها وكذلك مجموعات الضغط في تغير القيم الاجتماعية.

ولا يستطيع الساسة إلا أن يتماشوا مع الحالة، لأنهم بغير ذلك قد يخسرون أصوات الناخبين . كما أن مواقع المرأة، و الأقليات قد تغيرت من خلال نفس الآليات .

ويجب أن نتذكر أيضا أن تغيرات القيم يمكن أن تكون ضارة في بعض الأحيان . إن التغيرات الظاهرية في القيم قد وفرت السلطة والتماسك لألمانيا النازية، وإن تشجيع العداوات والقيم المحبة للحروب كان مسؤولا عن وقوع كثير من أعمال العدوان، وكما أن التعصب والاضطهاد قد ظهرا أيضا من قيم تحريضية [†]

هي التي تفرض أو ترفض وجود ثورة، فالثورة ليست مرفوضة لذاتها ، وليست مرغوبة لذاتها كذلك.

[*] كذلك فإن مصطلح قيم – Values بحاجة إلى تحديد (عالمي) جديد ، وتمييزه عن العادات والتقاليد والسلوكيات المنعزلة .

[†] لعل مشكلة دي يونو تكمن في أنه يريد التصدي لحل مشكلة الإنسان بكل علاقاته ونشاطاته من خلال ابتداع طريقة تفكير، وقواعد تفكير جديدة، دون وضع أطر مرجعية عليا، وإنه يريد قيما من دون وضع تصور حول منظومة قيمية متكاملة للحياة البشرية . إن الجزيئات ليست بديلا عن الكل. وبمنطق دي . يونو ، فإن الإنسان عبارة عن مجموعة خلايا، فهل كان جسمه سيكون سويا، لو أن الخالق قصر البحث على أساس أن هذا الجسم يساوي خلية + خلية + خلية ؟ أم

إن حسن النوايا العام والضغط المتنامي لتغيير القيم، تسهم مساهمة بـــارزة فـــي التقدم، وإن حركة " النمو البطيء " في بعض كبريات المدن الغربية قد تؤدي إلـــى إعادة التفكير في النمو المديني الذي يتم لأجل النمو فقط مع أن هذه الحركة تســتند أحيانا إلى دوافع أنانية مثل مقولة " ليس في باحة منزلي " .

وبغض النظر عن مدى قوة تغيرات القيم، ألا أن هناك حاجة بشكل دائم إلى مفاهيم جديدة من أجل وضع تغيرات القيم موضع التأثير الفعلي. وأحيانا يكفيــك فقــط أن تكون ضد شيء ما، كما أن مجموعات الضغط قد تكون جبارة في وضع حد لشيء ما، ولكن هناك في كثير في الحالات حاجة إلى أفكار بناءة، فإذا كنت لا تســتطيع نقل البترول بسبب الخوف من التلوث، فما الذي تفعله؟ وإذا كنت لا تريد لمزيد من الناس أن يهاجروا إلى المدن ، فما الذي تفعله أيضا؟

إن مجموعات الضغط تشبه – إلى حد ما – عادات تفكيرنا التقليدية الصدامية. يكفي أن تكون ضد شيء ما – ودع الجانب الآخر يجد ما ينبغي عليه أن يفعــل. وهــذا يضع الكثير من الثقة في القدرات البناءة " للطرف الآخر " !!

أن التصور المتكامل هو الذي يعطـــي جســم الإنســان مواصفاتــه ؟ إن إدراك الجزيئات مهم جدا، ولكن لا بد معه من التصور الكلي الشمولي للأشياء . لا بـــد من أن تكون هذه المنظومة القيمية كلية في غاياتها، وتهدف إلى إحداث التــوازن المطلوب في العلاقات ، وتحظى بالقبول أيضا، ولها محدداتها وتصنيفاتــها التــي تستخدم ليس ككوابح للسلوك المادي ، بل كمعــايير لقيــاس مناســبته أو عــدم مناسبته .

إن مراوحات الجدل السياسي لديها القليل فقط من القوة البناءة أو الخلاقة . وما هذا إلا لأن الجدل لم يقصد به يوما أن يكون بناء أو خلاقا . بل المقصود من الجدل أن يظهر الحقيقة ، لا أن يخلقها ، والجدل يمكن أن يعارض فكرة سيئة ، ويمكن لـــه أيضا أن يحور أو يطور فكرة جيدة، ولكنه لا يصمم أفكارا جديدة إلا بحدود قـــدرة جزاز أعشاب الحديقة على تنمية حديقة . وعلى أي حال، فإن الساسة* لا يحتاجون

*** إن كل إنسان بحاجة بل يجب أن يكون مبدعا بصرف النظر عن موقعه المـــهني أو الوظيفي . لأن الله يأمره بذلك. والسياسي هو عقل الدولة، حتـــى لـــو كـــانت صناعة القرارات وتوليد الأفكار ليست مسؤوليته المباشرة . وفي الفكر الإسلامي، فإن على الأمير أو القائد أن يأخذ بآراء أهل الاختصاص ، (حتى لا يقع ضحيـــة لابتزاز الأكثرية) وأن يأخذ أيضا بالمشورة (حتى يشرك أكبر عـــدد ممكـــن فـــي التفاعل اللازم لاتخاذ القرار)، لا أن يصبح أمام كتل جماهيرية صامتة أو صمـــاء. إن السياسي هو صانع سياسة في الإسلام، وليس مجرد منفذ لسياسة موضوعـــة مسبقا . ولكن صناعة هذه السياسة تأتي ضمن إطار مرجعـــي متكـــامل وبشـــكل متناسب معه . وحامل الفكر الإسلامي يجب أن يسعى إلى الإتقان فـــي أي مجـــال يعمل فيه، بل هناك نهي واضح عن أن= =يكون المرء إمعة يقول أنا مع النـــاس إن أحسن الناس أحسنت وإن اساؤوا أسأت ، ولكن وطنـــوا أنفســـكم إن أحســـن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا أن تتجنبوا إساءتهم) – الحديث .**

أي أن السياسي المسلم يجب أن يكون متميزا وكذلـــك البـــائع المســـلم، وكذلـــك المفكر، وكذلك طالب العلم. ولا يقتصر التميز على البحث فيما هو قائم ومسلم بـــه

لأن يكونوا خلاقين، وللحصول على الأفكار فإنـــهم يصغـون إلـــى مستشـــاريهم ومحلليهم .

إننا جيدون في التحليل ، وأن كل معاهد التعليم وبخاصة ذات المستوى الأعلى مثل كلية هارفارد لإدارة الأعمال، وجراند ايكولى في فرنسا – تضع كل التركيز العقلي على التحليل . ومن المؤكد، إنك إذا حللت مشكلة أو موقفا بشكل صحيـــح ،فـــإنك ستكون أكثر قدرة على معرفة ما ستفعل بشأنه وهذا صحيح بوضوح، ولكنه، فـــي نفس الوقت أيضا مغالطة رئيسية أخرى من مغالطات التفكير الغربي * .

من القواعد المعرفية والسلوكية، بل إنه يشمل البحث فيما لم يصل إليـــه البشـــر أيضا، بحكم بحثه المستمر في كتاب الله الجامع المانع . إن مصطلح السياسي في الإسلام يعني المنشغل بالأمور السياسة وليس شرطا أن يكون من يحتـــل موقفـــا وظيفيا له علاقة بالسياسة إذ قد يحتل موقعـــا سياســـيا مـــن ليـــس سياســـيا ، والديمقراطية الغربية عرضة لهكذا اختراقات أكثر من غيرها من الأنظمة . أمـــا مصطلح السياسي عند دي.بونو فلم يتعد حدود التجربة السياسية الأمريكية ، كمـــا يبدو .

*** ليس شرطا أن يكون هذا القصور ناجما عن مغالطة في الفهم أو الإدراك . بـــل قد يكون قصورا ناجما عن العجز. إن للتحليل العلمي قواعد مهنية مستقرة يمكـــن تعلمها ، أما التصميم أو (التصوير) فإنه بحاجة إلى إبداع يقوم على قواعد فرديـــة خاصة بالفرد المبدع . إن المنهج التحليلي في التعـــامل مـــع البيانـــات الماليـــة الأسواق الأسهم والسندات هو منهج مستقر وثابت، ويعمل فيه وعليه عشـــرات الألوف من بني الإنسان. أما المنهج الإبداعي في كتابـــة الروايـــة عنـــد نجيـــب**

ولو أنك حللت سبب عدم راحتك ، واكتشفت أنك جالس فوق دبوس ، فإنك تزيــــح الدبوس ويكون كل شيء على ما يرام. أي: " اعثر على المسبب وأزله ". إن بعض المشاكل من هذا النوع حيث إن بعض الأمراض تنجم ، عن غزو بكتيريا : " فأقتل البكتيريا تحصل على الشفاء" .

ولكننا لا نستطيع العثور على الأسباب في كثير من المشاكل أو إننا يمكن أن نجــد السبب ولا نستطيع إزالته – مثل الطمع الإنساني، أو قد يكون هنـــاك تعــدد فــي الأسباب، فما الذي نفعله عندئذ؟ هل نحلله أكثر ثم نحلل تحليلات الآخرين (متابعــة الدراسة). ولكن المزيد والمزيد من التحليل لن يساعد، لأن ما هــو مطلــوب هــو التصميم ... إننا بحاجة إلى تصميم طريقة ما للخروج مــن المشــكلة، أو طريقــة للتعايش معها .

إننا أفضل في التحليل منا بكثير في التصميم، لأننا لم يسبق لنا أبدا أن ركزنا بمـــا يكفي على التصميم . وفي التعليم ، شعرنا أن التصميم ضــروري فــي العمـــارة،

محفوظ، أو شكسبير فليس له هذه العمومية . إن الإبداع في التصوير الذي يسميه دي.بونو "= =التصميم " هو إبداع ذاتي يقوم حتى الآن على جهود الأفــراد، لا المؤسسات . ومع ازدياد البحث فيه – كما يفعل دي.بونو – فإنه قد يتحول إلـــى جهود مؤسسات ويستقر على قواعد ثابتة ويصبح (علما) بالمفـــهومين النظــري والتطبيقي . أما التحليل فإنه تجاوز هذه المرحلة ولا عيب في أن يكون التحليـــل مهنة الماضي ، وأن يكون التصميم أو التصوير مهنة المستقبل التـــي لا تــزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات والبحث إلى أن تستقر قواعدها .

والهندسة، والرسم، والمسرح وموضات الملابس، ولكن ليس في مجالات أخـــرى، لأن التحليل كفيل بإظهار الحقيقة، وإذا كانت لديك الحقيقة، فإن الفعل سهل .

إننا نحتاج في التصميم إلى تفكير بناء وخلاق، وأن نعي مدركات وقيم الناس . إنه هذا التركيز التقليدي، على التحليل (كجزء من موروثنا التفكـيري) وليـس علــى التصميم هو الذي جعل بعض المشاكل (مثل اساءة استخدام المخدرات) مشاكل مـن الصعب جدا التغلب عليها .

لقد اعتمدنا دائما على التحليل ليس لحل المشاكل فقط، ولكن أيضا كمصدر للأفكـار الجديدة . ولا يزال معظم الناس في التعليم والعلوم والأعمال والاقتصاد يعتقدون أن تحليل المعطيات سوف يمدنا بكل الأفكار الجديدة التي نحتاجها، ولسوء الحظ، فـإن الأمر ليس كذلك . فالعقل لا يستطيع أن يرى إلا ما هو مستعد لأن يـرى. ولـهذا السبب، فإننا بعد حدوث إنجاز ما في العلوم، ننظر إلى الوراء لنكتشـف أن كـل الدليل المطلوب كان موجودا قبل وقت طويل جدا، ولكننا لم نكن نستطيع أن نـراه إلا من خلال الفكرة القديمة.

أن هناك حاجة ماسة إلى ذلك النوع من العمل على الفكرة أو الجهد الإدراكي الـذي قدمه انيشتاين في ميدانه. إننا نعرف أن هذا مهم، ولكننا قـانعون بتركـه يحـدث بمحض المصادفة أو العبقرية لأن تقاليد تفكيرنا متمسكة بأن التحليل يكفي .

****

فماذا عن دروس التاريخ كإسهام في اتجاه التغيير ؟ إن ثقافتنا التفكيرية تؤكد كثيرا على دراسة التاريخ، واعتباره المختبر الحقيقي للسلوك الإنساني وتفاعل النظام.

في أيام النهضة السابقة، كان مفكرو المجتمع يستطيعون السير إلى الأمام بشكل أسرع بكثير عند النظر إلى الوراء ، مما يستطيعونه عند النظر إلى الأمام. وكانت تلك حالة غير عادية للأمور إلى حد بعيد.

لقد كان المفكرون ومن خلال النظر إلى الوراء يكتشفون الحكمة والمعرفة المخزونتين في التفكير اليوناني والروماني والعربي *. وكان هذا بحد ذاته ممتازا، بل وأكثر تميزا عند مقارنته بالتفكير المتصلب الذي كان سائدا في مجتمع العصور الوسطى الذي كان سائدا آنذاك.

*** أخيرا اعترف دي . بونو بوجود (فكر عربي) سابق على الفكر الغربي في العصور الوسطى. ولن ندخل هنا في جدل حول كون هذا الفكر عربيا أم إسلاميا أو شرقيا . إنه فكر متميز ضمن السياق العام للفكر الإنساني وليس عن هذا السياق . أما من باب تحديد المصطلحات ولأغراض هذا الحوار، فإن التركيز جاء على الفكر الإسلامي كما هو وارد في نصوص القرآن الكريم، لأن الحوار سينقلب إلى جدل فورا ، إذا دخلنا في التفاصيل قبل هضم واستيعاب الإطار المرجعي الأكثر شمولية. وبلغة عملية، فإن الرجوع إلى نص قرآني، أسهل بكثير – على صعيد فهم الكليات – من ولوج أبواب التفاصيل الاجتهادية، التي تثري الحوار في فترة لاحقة . ولكنها قد تعطله إذا خاض الإنسان بحورها، بغير هدى ولا كتاب منير . إن كل هذا الحوار هو حوار تمهيدي لا أكثر ، وحيث أن الفكر الإسلامي يعلمنا كيف نتشرب الأفكار تدريجيا عن طريق البحث والحوار ، فلا ضير من عدم الدخول في المتشابهات أو الشبهات، أو الخوض في التأويل والتفسير الذي يحتاج إلى تمكن وإحاطة بعد تركيز القواعد الأساسية.**

إن حكمة العصور المتراكمة كان يمكن فتح مغاليقها ، من خلال ممارسة " البعثات الدراسية "، ولذلك فإن هذه الدراسات، أصبحت عنصـــــرا بـــارزا مـــن عناصر الموروث العقلي عندما كان هذا الموروث في طور التأسيس، وكانت هذه الدراسات ملئامة بالكامل فى ذلك الوقت، أما اليوم فإن ملاءمتها قد قلت كثيرا، لأن النظر إلى الأمام يعطينا أكثر من النزر إلى الوراء في هذه الأيام . لقد كان للبعثات الدراســـية قيمتها ومكانها ، ولكنها استولت على شريحة كبيرة جدا من المــــوارد والجـــهود العقلية.

إن هناك استحواذا في التاريخ، فالتاريخ موجود وهو يتزايد من ناحية كمية ،سواء لأننا نتعلم المزيد منه كل يوم، أو لأننا نصنعه كل يوم. ويمكننا أن نزرع أســــنان عقولنا فيه، والتاريخ جذاب لأن من الممكن دائما العثور على مكان فيه، ولأن هناك دائما جائزة مقابل أي جهد يبذل فيه، علي النقيض من كثير من المواضيع الأخـــرى التي يمكن أن تضيع سنوات كثيرة فى الجهد فيها، وتسفر عن لا شيء . والتــاريخ جذاب للعقول التى تفضل التحليل على التصميم (فالتاريخ لا يمكن أن يعاد تصميمه إلا في روسيا) * كما أن التاريخ من الممكن أحيانا أن يكون ملجأ لعقول لاتستطيع الإنجاز في مجالات أخرى.

***هذا الطرح ناجم عن الحماس المبالغ فيه لأعمال الرئيس السوفيتي غورباتشـــيف وطروحاته عن إعادة البناء . ولكن السنوات اللاحقة برهنت على أن مـــاحصـــل على صعيد تفكيك الإتحاد السوفيتي، هو مجرد تطبيقات سياسية، لاقت النجاح في مجالات، واخفقت أيما إخفاق في مجالات أخرى، وكشف عن تناقضات جديدة فـــي الفكر العالمي الذي قاد هذه العملية . ولا نتحدث عن التناقض من باب (الواقــــع)**

إن للتاريخ دورا مهما يلعبه، ولكن تقاليد التفكير الغربية التي أرستها النهضة الأخيرة استحوذ عليها التاريخ اكثر مما ينبغي بكثير إن حوالي عشرين ضعفا من

بالتماثل والتناقض اللذين قام عليهما المنطق اليوناني، بل كواقع،فالذين كانوا ينظرون لتفكيك الإتحاد السوفيتي ككتلة، هم أنفسهم الذين نظروا لقيام كتلة أوربية، ودافعوا عن عالم أحادي القطب لاحقا . ويكمن التناقض في أن من نظروا للكتل الكبيرة في الغرب، وقفوا ضد وجود كتلة كبيرة في الشرق . أي أن العملية سياسية، وليست (فكرية) فقط، كما يحاول دي . بونو أن يقنعنا، أو كما يقول الكاتب الأمريكي لي بويف : " فإن الكراهية الأمريكية الشديدة= للبيروقراطية غير مبررة أبداء بل يجب أن يحب الأمريكيون البيروقراطية جدا ، ويكفيها أنها أدت بين عوامل أخرى إلى إنهيار الاتحاد السوفيتي " إن طروحات غورباتشيف لم تكن خاضعة لبناء عقلي ونظام فكري جديد، بل قادتها بوصلة المصالح السياسية، والإقتصادية .

وفي المقابل فإننا نركز على أن إعادة بناء جديدة للتاريخ تأخذ مداها الآن في الشرق القديم ضمن ما تسمى بالصحوة الإسلامية أحيانا، وهي عملية لا تزال في بداياتها، ولكنها ستحدث الكثير من التحولات الفكرية قبل السياسية والإقتصادية في العالم كله. هنا يحصل استحواذ من الموروث التاريخي، ولكنه محكوم بالتوجه المستقبلي ومسخر له . والنظر إلى الوراء (بمفهوم دي بونو) سوف يتيح لمفكري الإسلام، التقدم السريع على الطريق الرئيسي للفكر الانساني، وعلى الطرق الفرعية أيضا، ولكن ضمن مفهوم تكاملي لكافة نواحي التفكير ، لأن المطلوب توظيفها بشكل متناسق، وليس تفسيخها إلى شظايا لا ناظم لها ولا رابط ولا ضابط.

التركيز يوضع على التاريخ أكثر مما يوضع على التصميم. رغم أن التفكير التصميمي له نفس أهمية التاريخ على الأقل. ولكن التاريخ من اليسير الكتابة عنه ، ولذلك فإن الثقافة الأدبية تبدو أحيانا ثقافة مراثي، حيث يتم توجيه جل الاهتمام إلى الأموات والى الماضي .

لقد ارتبط التعليم تاريخيا وبشكل دائم بالمعرفة ، فأنت تعلمت القيم الثقافية من عائلتك ثم في الكنيسة * ، تتعلم قيم التشغيل في دورة تأهيل مهنية طويلة عند والديك أو معلمك وكان هدف التعليم هو إعطاء المعرفة إلى مستخدمي المعرفة .والمعرفة من السهل تعليمها لأنه يمكن تقديمها في كتب . كما أن المعرفة من السهل اختبارها . ولكن هل المعرفة كافية ؟ عندما ينهي التلميذ المدرسة ، فإن عليه أن يبدأ التشغيل في المستقبل ، بما يشمله ذلك من قرارات وخيارات وبدائل ومخططات ومبادرات ، وحتى لو تملكنا المعرفة الكاملة عن الماضي ، فإن استخدام هذه المعرفة للعمل في المستقبل يتطلب "التفكير " † ، يظل يتوجب علينا أن

*** ترتيب مصادر التلقي الثقافي غير عملي وغير علمي أيضا. إن لوسائل الإعلام تأثيرا على الأطفال يفوق تأثير الأسرة، كما أن تأثير المدرسة أهم بكثير من تأثير المؤسسة الدينية.(في عالم جنح نحو العلمانية كثيرا) وكان الأولى بدى.بونو أن يستخدم مصطلح المؤسسة الدينية وليس= =الكنيسة لأن تأثير الكنيسة محدود جدا، إذا كنا نتحدث عن فكر إنساني على مساحة الكرة الأرضية.**

† هذا طبيعي جدا ويشمل كل نشاطات الإنسان .... إننا نتلقى دائما دروسا معرفية عن مواد وأساليب تناول الطعام . ولكن هل يمكن . لإنسان أن يأكل نيابة عن

أن نضيف إلى قاعدة المعرفة مهارات تفكير العمل. ولقد كان هدفي هو وصف هذه المهارات عندما اقترحت استخدام مصطلح "الإحاطة"** التى تشمل أشياء من مثل فحص العواقب لأي عمل، وأخذ العوامل المتعلقة به بعين الاعتبار، وتقييم الأولويات، والإنتباه إلى اهتمامات الآخرين، وتعريف الأهداف .... الخ . وكل هذه الأمور يمكن تعليمها على وجه التخصيص في المدارس، كما يحصل مع برنامج صندوق البحث الإدراكي (وهو برنامج من ستين درسا نشرته (أس . آر .أ) للتعليم المباشر للتفكير كموضوع مدرسي). وكثير من الدول أصبحت تستخدم هذا البرنامج الآن مثل الولايات المتحدة، وكندا، والصين، وروسيا، واستراليا، وبلغاريا، وماليزيا، فنزويلا وسنغافورة ... الخ. وهذا البرنامج مقرر في كافة مدارس فنزويلا، وتستخدمه المدارس الراقية في الصين، وهناك استخدام متزايد له في الولايات المتحدة، وتخطط حكومة سنغافورة لطرحه في كل مدارسها، بعد أن انجزت الاختبار المكثف له. والنقطة المهمة هنا هي أن مهارات تفكير الإحاطة تختلف اختلافا بعيدا عن مهارات الجدل والتفكير النقدي. فمهارات التفكير النقدي تأتي ضمن البرنامج كجزء واحد منه – ولكن كجزء واحد منه – فقط – إن

إنسان آخر ؟ إن المتلقي هو المستخدم الأخير للمعلومات التي تم توفيرها له من أجل القيام بما عليه من عمل.

إن المؤسسة العسكرية تدرب الجندي، ولكن الجندي هو الذي يحارب في نهاية الأمر. وهذا الترتيب طبيعي جدا، لأن التمكن المعرفي هو جزء لا يتجزأ من الاستعداد والتخطيط، ولكن التخطيط والإعداد لا بد أن تتبعه ترجمة عملية، ولا فائدة من علم لا يخدم عملا .

** **مصطلح جديد أدخله دي.بونو Operacy**

المعرفة ومهارات التفكير النقدي ليست كافية . ويتطلب الأمر وقتا طويلا جدا من معظم العاملين فى التعليم قبل أن يدركوا ذلك . ويعود هذا بشكل جزئي إلى أن التعليم يصبح وبسهولة عالما قائما بذاته * يختار أولوياته ويضعها ويلبيها دون أن يأخذ العالم الخارجي كثيرا في اعتباره.

فهل ندين طرائق تفكيرنا التقليدية التي أرستها النهضة الأخيرة؟ من المؤكد أن هذه الطرائق قد خدمتنا بشكل جيد في العلوم والتكنولوجيا والديمقراطية وفي تطور المدنية ذاتها .

ما من شك في أن ثقافة تفكيرنا القائمة الآن قد أخذتنا بعيدا، وما من جدوى في الجدل حول حقيقة أن ثقافة تفكير مختلفة كان من الممكن أن تأخذنا أبعد مما ذهبنا إليه حتى الآن، وبخاصة في الشؤون الإنسانية، لأن مثل هذا الجدل لا يمكن تمحيصه أبدا. ويمكن أن نكون مقدرين جدا لثقافة تفكيرنا التقليدية، رغم إدراكنا أنها

*** ألا يحتم ذلك ضرورة وجود إطار مرجعي نهائي لكل التفاصيل السياسية والإجتماعية والتربوية والاقتصادية والعلمية ؟ إن النظام الشمولي ليس شرا كله، وإن حصلت أخطاء في تطبيقاته على مدار التجارب الإنسانية، إلا أن ذلك لا يعني التخلي عنه كليا لصالح التخصصية التي أخذت تسد منافذ التطور في كثير من العلوم الإنسانية. ويكفي أن نأخذ من تجارب القرن العشرين، أن الإتحاد السوفيتي كان من المفروض أن يكون دولة لديها نظرية، ولكنه صار نظرية لها دولة . وأن الكيان اليهودي في فلسطين – باعتراف كثير من زعمائه – هو مؤسسة عسكرية لها دولة ، وليس دولة لها مؤسسة عسكرية . على حين ظلت اليابان دولة لها مؤسسة صناعية، ولكن من يضمن أن لا تتحول إلى مؤسسة صناعية لها دولة؟**

غير ملائمة، ولربما كانت ملائمة للفترة التي تطورت خلالها (اليونانيـــة القديمـــة، وأوروبا العصر الوسيط)، ولكن ذلك الوقت تميز بوجود مجتمعات مستقرة، ومفاهيم متفق عليها، وتغير تقني محدود. أما اليوم، فإن هناك مشاكل ناجمة عـــن التغـير المتسارع بشكل متزايد، وهناك الإختلال الكامن فى طبيعة هذا التغـــير. وبشـكل جزئى، فإن هذه الأمور تنجم عن (حذاقة) أنظمة تفكيرنـــا التقليـدي، وعـن قلـة "الحكمة" .

وتمكن الإشارة إلى عدم ملاءمة ثقافة تفكيرنا التقليدية كما يلي:-

- إننا بحاجة إلى الانتقال من نمط التفكير التدميري، إلى نمـط بنـاء أكـثر بكثير.

- إننا بحاجة إلى التغير من الجدل إلى الاستطلاع الأصيل للموضوع.

- إننا بحاجة إلى التقليل من التقدير الذي نتعامل به مـــع التفكـير النقـدي، وبحاجة لأن نضعه تحت التفكير البناء.

- إننا بحاجة إلى أن نوازي مهارات التحليل بما يساويها مـــن تـأكيد علـى مهارات التصميم .

- إننا بحاجة إلى القيام بعمل على الأفكار يساوي عملنا في المعلومات، ونحن بحاجة لأن ندرك أن تحليل المعطيات غير كاف.

- إننا بحاجة إلى الانتقال من استحواذ التاريخ إلى الإهتمام بالمستقبل .

- إننا بحاجة إلى تأكيد الإحاطة بنفس تأكيدنا على المعرفـــة، لأن مـــهارات العمل لها نفس أهمية مهارات المعرفة.

- إننا وللمرة الأولى – بحاجة إلى أن ندرك أن التفكير البناء هو جزء خطـير وجوهري من عملية التفكير.

- إننا بحاجة إلى أن ننتقل من الاهتمام المقصور على منطق سير المعاملـــة (Process) إلى منطق الإدراك (من منطق الصخر إلى منطق الماء).

- إننا بحاجة إلى الانتقال من (التشاطر) إلى الحكمة . والإدراك هو أســاس الحكمة*

***لا أعتقد أن هناك اختلافا بين أي عاقلين على أهمية هذه التغيرات في العـــادات الفكرية، سواء في مجال بناء الفرد، أم في مجال تفاعله مع من حوله على صعيد الإعلام، والإتصال على وجه الخصوص، وكذلك في مجال العلــوم الإداريـــة بمـــا تنطوي عليه من عمليات اتصال وتواصل وتدريب ونقل ميزات وخدمات.**

الفصل الثالث

خطورة النظام العقلي القديم

حتى لو كانت ثقافتنا التفكيرية القائمة محدودة وغير ملائمة، فهل يجعلها ذلك خطرة؛ إن الطاهي غير المناسب هو غير مناسب وحسب. أما سائق السيارة غير المناسب فهو خطر . وهناك بعض المخاطر التي تظهر مباشرة من الطبيعة الخاصة لثقافتنا التفكيرية التقليدية . وهناك مخاطر أخرى تظهر من الرضا الداخلي والغرور اللذين نتعامل بهما مع ثقافة تفكيرية غير ملائمة بشكل واضح – على أنها ملائمة .

إن المخاطر المباشرة تضم مدركات فجة، وعمليات استقطاب، وتأثيرات مضللة للغة، ومواجهات غير ضرورية، ومعتقدات خيرة أو عدوانية. إن الكثير من هذه الأمور مسؤولة مباشرة عن كثير من البؤس الإنساني الذي أوقعه الإنسان بأخيه الإنسان، ولا نتعدى حدود الإنصاف إذا قلنا إن نفس طرائق التفكير ربما تكون قد حمت الإنسان من بؤس أكبر – كما في حالتي الطب والقانون *

*** في الطب نعم، أما في القانون فإن الأمر مختلف، لأن الهدف من القوانين هو حماية المؤسسات كما هي عليه من آية تعديات، أو مستجدات . إن القوانين إما أن تكون مرتبطة بعقد اجتماعي عام، أو بتشريع إلهي، وبخلاف ذلك فإنها مجرد تعبيرات عن فهم محدود لشرائح معينة من المجتمع حول العدالة الجزئية في هذا الأمر أو ذاك .**

وربما كانت أكبر الأخطار فيما سبق، هي تلك الأخطار الكامنـــة فـــي الغـــرور والرضا عن الذات، مع القدرة على الدفاع عنهما . إن الاعتراف بعدم الملاءمة هـو تمهيد للتغيير. أما الدفاع عن الغرور فهو إنكار لوجود أية حاجة للتغيير . فإذا كنـــا نعتقد أن عاداتنا التفكيرية كاملة – كما يفعل كثير من الناس – فإننا لن نرى إطلاقـا أن هناك حاجة إلى تزويد هذه العادات بعادات تفكـــير إضافيـــة (خلاقـــة وبنـــاءة وتصميمية بل إن بوسعنا أن ندافع دائما عن ثقافتنا التفكيرية الموجودة لأنها بشـــكل أساسي نظام اعتقادي محدد يستند إلى مفاهيم الحقيقة والمنطق . وكل نظام عقـائدي يؤسس إطارا مفاهيميا لا يمكن مهاجمته من داخله . وأن غرور المنطق يعني أننـــا إذا كان لدينا جدل معصوم عن الخطأ منطقيا ، فإننا يجب أن نكون على صـواب – "أنا على صواب – وأنت على خطأ".

ولكن قيمة أية نتيجة تعتمد على كل من : صلاحية المنطـــق ، وعلـــى صلاحيـــة المدركات والقيم الإنسانية . إن جهاز حاسوب مخطوء سوف يطرح لنا قمامة، كمـا أن حاسوبا يعمل بشكل جيد سوف ينتج توافه أيضا، إذا كانت المدخلات قمامة، وإن كل طالب مرحلة عليا يعرف ذلك .

كما أن كل طالب مرحلة عليا في المنطق يعرف أن امتياز المنطق لا يمكن أبـدا أن يسد الخلل الناجم عن المدركات ، ولكننا نتجاهل كل ذلك، وهناك ثلاثة أسباب لـــهذا التجاهل، ففي المجتمعات المستقرة التي تطورت فيها قوانين المنطق، كـــان يمكـــن الافتراض بأن بدهيات أو مدركات محدودة كانت مشتركة وموافقـــا عليـــها مـــن المجتمع. وعلى سبيل المثال ، فبعد وقت متأخر كثيرا تبين أن البدهيات التي بنـــى عليها اقليدس هندسته، كانت مخصصة جدا ولا تنطبق على كل الأسطحة أما السبب

الثاني فهو أننا افترضنا أن المنطق بحد ذاته يمكن أن يحور حتى يبرر المدركات – وكان هذا وهما خطرا ومضللا . أما السبب الثالث ولربما كان السبب الأكثر أهمية فهو أننا لم نتعلم كيف نتغلب على الإدراك .

إن الشخص الذكي يستطيع دائما أن يربح المجادلة من خلال اختيار المدركات والقيم والظروف كي تناسب المنطق .

إن الخطر الأكبر لا يتمثل في الغرور الذي ندافع به عن نظام تفكيرنا الموجود، ولكنه يكمن في الرضا الذاتي الذي نتمسك فيه بهذا النظام – لأننا لا نستطيع تصور أي شيء سواه . ويعني هذا الرضا عن الذات أننا قد حولنا الكثير من جهدنا العقلي ومواردنا وتعليمنا واعتبارنا إلى داخل هذا النظام الموجود، وبشكل لا يدع مجالا لعادات تفكير جديدة نحن في أمس الحاجة إليها . فلا موارد ظلت ، وإن كثيرا من المعلمين قد أخبروني أنه لا يوجد وقت لتعليم التفكير في المدارس – هكذا وببساطة.

إننا محبوسون تماما داخل معاهدنا وتركيباتنا تماما كما الحال مع معتقداتنا. والمفارقة هنا، أننا كلما اوغلنا في سيرنا أماما نحو المستقبل ، كلما زادت حاجتنا إلى التغيير أكثر من أي وقت مضى، وفي نفس الوقت، يقل الهامش المتاح للتغيير لأن كل شيء محشور في موقعه إننا نعتمد كثيرا على جودة جدلنا للهجوم وللدفاع، إلى درجة إننا لا نرى أن شيئا ما قد يكون صحيحا ولكنه قد يكون أيضا غير ملائم إذا وضع داخل إطار أوسع. ومن أجل الدفاع، فإننا نرفض أن نرى أو نقبل هذا الإطار الأوسع، ونفشل بالتالي في رؤية أن الحجج التي ندافع بها عن جدلنا تفتقر

إلى النواحي البناءة والخلاقة للتكفير التي نحتاجها بشكل كبير، ولهذا السبب فإن هناك حاجة حقيقية للإيحاء والافتراض والإعلان والعمل من أجل نهضة جديدة .

إن هناك من أعرضوا عن الحدود الصارمة والمجالات والتلاعب بالكلمات مما يسم التفكير التقليدي، لا بل إنهم أعرضوا عن التفكير برمته . وانقلبوا إلى الروحانية، والعواطف والمشاعر العدائية والغموض، وقلق النوايا الطيبة تجاه الإنسانية والطبيعة . وهذا التوجيه الداخلي، كان دوما عنصرا قيما في تطور الأفراد والمجتمعات على حد سواء ولكن أيمكن أن يكفي ؟

إن هناك جسورا تحتاج إلى تصميم وبناء، وهناك أنظمة اقتصادية تحتاج إلى تشغيل، وهناك خدمات صحية يجب تقديمها، فهل المواقف السليمة والقيم السليمة كافية لعمل هذه الأشياء ؟ إن روحانية الشرق مصحوبة بالسلبية وبالقبول اللذين يمكنهما توفير فلسفة كاملة، في حالة واحدة فقط، وهي أن يتضمن القبول تلك الأشياء التي تجدها الثقافات الأخرى أشياء غير مقبولة مثل الفقر والتدني الصحي* .

*** هذه من المغالطات السياسية المتحيزة وغير الفكرية التي يقع فيها كثير من الناس في الغرب. إنهم يظلمون أنفسهم ويظلمون الشرق عندما يعتقدون أن الثقافة الشرقية تتقبل الفقر والمرض والتخلف . إن للفكر الإسلامي مثلا طرائقه في التعامل مع هذه الظواهر السلبية عندما تقع ولن نخوض في تفاصيل الصبر كقضية معتقد ديني .. نؤمن به، ولكن للصبر معان نفسية تتعلق بتحقيق التوازن النفسي الداخلي، وليس له معنى يفيد الاستسلام للأمر الواقع ، سواء كان مرضا أم فقرا أم جهلا. بل إن النصوص القرآنية توضح أمر الله أنبياءه بالعمل للخروج من الضوائق : فهذه سيدتنا مريم عليها السلام يطلب منها أن تهز بجذع النخلة ،**

وأكثر من ذلك، فإن الاعتماد على النية الطيبة يعمل على أفضل وجه في مجتمـــع صغير يكون للأغلبية فيه نفس المدركات والقيم.

كما لا ينبغي أن ننسى أن المشاعر الداخلية " والحقيقة " و "الاستقامة " قد لا تكـون حماية من " الأخطار المبررة أخلاقيا " مهما كانت فائدة هذا العصـــر الجديـد، إلا أنني لا أعتقد أننا يجب أن نتخلى عن استخدام المورد الممتاز أكثر مـن سـواه ألا وهو العقل الإنساني وتفكيره. وبدلا من ذلك، يجب علينا أن نسعى إلـــى تطويـر عادات تفكير ، تكون بناءة أكثر، وخلاقة أكثر من تلك التى لدينا الآن . ولهذا فإننـا نحتاج ليس إلى قيم عصر جديد فقط، وإنما نحتاج أيضا إلى تفكير نهضة جديـدة . فالقيم ليست كافية، والتفكير ليس كافيا. إننا نحتاج إلى مدركات ، وقيم، وتفكير * .

أي أن المطلوب منها ليس تحمل مشقة الجوع، بل تحمل مشقة العمل، حتى وهـي في وضع بدني من المعروف أنه لا يتحمل أي نوع من العمل وهذا سيدنا محمـــد عليه الصلاة والسلام يؤمر بالهجرة / أي القيام بعمل محدد / من أجل تغيير واقـع اضطهادي تتعرض له الفكرة الإسلامية الجديدة . وهذا سيدنا موسى يؤمر بضرب الحجر ، ويذهب لعله يأتي قومه بقبس والأمثلة كثيرة. ولن نسهب فـي الحديـث عن التطبيقات العملية للفكر الإسلامي ، التي جعلت العالم الإسـلامي يخلـو مـن الجياع وحتى الفقراء= =بشكل جعل الدولة توسع دوائر انفاقـــها علـى الرفـاه الاجتماعي إلى حد لن تصله أية دولة معاصرة ضمن المدى المنظور لاقتصاديـات هذه الدول .

*** ولكن الإنسان لا يعيش في الفراغ ، ولا يطبق قيمه ومدركاته ومفاهيمه وتفكيره إلا وهو يتفاعل مع ما ومن حوله وهكذا نسي دي بونو ما تعرض له قبل سـطور**

إنها ليست قضية أن نكتفي بأن نكون أكثر إيجابية وبنائين أكثر فى تفكيرنا فقـط ، إن حض الناس على أن يكونوا بنائين أكثر وإيجابيين أكثر هو عمل يستحق القيـام به ، بل إننا نتعامل هنا مع شيء أكثر أساسية، وأكثر خطورة من مجرد الحـض . وإن الهجوم على أسـس ثقافتنـا التفكيريـة التقليديـة (التمـاثل ، والتنـاقض ، والتصنيفات، والمنطق، واللغة، والجدل، وتحليل المعطيات، والتاريخ وغير ذلك)، لم يأت إلا لأن هذا هو ما بوشر فيه لأجله . فالآن ، وقد أصبحنا نعرف أكثر مـن ذي قبل عن أنظمة المعلومات ذاتية التنظيم ، فإننا نستطيع فعلا أن نبدأ باسـتجواب الكفاءة والكمال المقبولين سابقا لهذه العادات التفكيرية التقليدية . فـهل يعنـي أن طرائق تفكيرنا التقليدية (خاطئة) أو (زائفة) ؟

إنني اعتقد حقا أن طرائق تفكيرنا التقليدية تستند إلى النموذج الخطأ مـن أنظمـة المعلومات، ولكن طريقة ما قد يكون أساسها زائفا، ومع ذلك قد تكون قيمة جدا في الممارسة . وحقيقة، فإن طريقة ما قد تكون مصطنعة تماما، ولكنها قيمة رغم ذلك. وإن تصنيف شيء ما بأنه (خطأ) أو (زائف)، فلذلك ما تتطلبه ثقافتنـا التفكيريـة

من عدم كفاية النوايا الطيبة . وعندما نصل إلى هكذا مفترق فإن حجـم الكيـان البشري ليس ضمانة للاستقرار . إن الدول الأصغر حجما أكثر تعرضـا للتمزيـق والعنف الناجم عن التمزيق الطائفي أو السياسي وغيرهما . إن الضابط الأساسـي يكمن في توفير العدل بمفهومه الشمولي ، وبكل ما يتضمنه من تكافؤ الفـرص، ومن ثواب وعقاب دنيوي ، / يقيم التوازن بين الناس / وأخروي / يقيم التـوازن بين الفرد ونفسه ويضبط سلوكه حتى عندما يضمن الإفلات من عقاب القوانيـن الوضعية / .

الموجودة ، أما بالنسبة لأهدافي، فيكفي أن أعتبر طرائق تفكيرنا التقليدية محدودة، وغير ملائمة، وخطرة في بعض نواحيها.

إن المنشار يعتبر أداة مدهشة لقطع الأخشاب ، أما إذا كنت تريد أن تضم قطع الخشب إلى بعضها البعض ، فإنك تحتاج مطرقة ومسامير، أو مادة لاصقة، أو براغ ومفكات. وبنفس الطريقة، فإن للتحليل مكانه، ولكن هناك حاجة أيضا إلى تصميم خلاق. إننا بحاجة إلى نظام لا يستمر فيه احتدام الجدل كلما ظهرت قضيتان مختلفتان على السطح، بل يتم فيه بسط القضيتين معا بشكل متواز ثم يجريا مقرنات. ويضيف دي.بونو:-

من المرجح أننا وصلنا الآن مرحلة لابد معها من فهم نظام المعلومات الأساسي الذي يعمل العقل البشري على أساسه إذا أردنا أن نتقدم في بعض المجالات الهامة مثل الفلسفة وعلم النفس. الأمر التي يتطلب تطورا في علم تشريح الأعصاب، بدل التركيز على التلاعب بالكلمات والمهارات اللفظية

إن علماء التحكم الآلي والرياضيات والمعلومات سوف يواجهون صعوبات أقل مع هذا الكتاب ممن لديهم إطار عقلي أدبي أو تشريعي . أما من يعملون في الأعمال التجارية، وأولئك الذين يقومون بعمل الأشياء، وليس بوصفها ، فإنهم سيرون أيضا مدى الحاجة إلى الإحاطة، والحاجة إلى التفكير البناء والخلاق. كما أن هناك كثيرين كانوا يشعرون دائما أن للتصميم نفس أهمية التحليل.

وسوف يقال بالطبع أننا إذا أقلعنا عن التفكير التقليدي الحاسم ذي " الصواب" و "الخطأ" ، فكيف يمكن للمجتمع أن يتعامل مع ظاهرة مثل هتلر ؟ والجواب البسيط

على ذلك ، هو أن المجتمع سيتعامل مع هتلر بنفس الطريقة التي يتعامل بها مـــع كلب مجنون ، ومع شاحنة هاربة ، ومع بقعة نقط ملوثة، أو مـــع انتشـــار وبـــاء السحايا – أي أنه سيتعامل معه بشكل ملائم *. إن الابتعاد عن إطار (الصـحيـح /

---

*هذا الكلام ينطوي على مخاطر قد تودي بالبشرية كلها وتضعها على منحـــدرات خطرة، وبخاصة عندما لا يكون هناك إجماع على الأطر المرجعية العليـا لسـكان الأرض . فمن الذي يقرر أنه يتوجب التعامل مع هذا السياسي أو ذاك على أساس أنه وباء لا بد من اجتثاثه من جذوره؟ وما هي الآلية العملية لهذا الإقتلاع ومـا هي التأثيرات الجانبية ؟ وباختصار : أين القانون التشريعي الذي يضبط سلوكيات القوى الفاعلة في هذا العالم وبخاصة في ظل الإختلافات الفكرية العاصفـــة التـــي تسود عالمنا ؟ إن الحاجة إلى آليات تفكير جديدة لا تقتضي بالضرورة إزالة كـــل أنظمة الصواب / الخطأ ، والـــهدى / الضـــلال ، والحـــق / البـــاطل . إن هـــذه التصنيفات ضرورية، ولكن الإختلاف هو على مصدرها، وعلى صلاحيتها للتطبيق العملي . وعلى صعيد الإنسان الفرد : فإذا كان الضمير يعرقل ازدهاره الإقتصادي مثلا ؟ فهل يجب علينا أن تدعو هذا الإنسان إلى إلغاء الضمير / أو الأنا الأعلى / له ؟ وهل معاناة أي نظام من خلل ما تستدعي إزالته بجرة قلم ؟ يجب أن تكـــون الأمور أقل حدية، لأن طروحات الإجتثاث تؤدي إلى وجود طـــرف آخـــر يطـــالب بالمثل. وهكذا ، سيجد دي . بونو كثيراً من المفكرين يطالبون باعتبـــاره رجـــلا عنصريا يمهد لحكم ديكتاتوري يقوم على تفوق الآليـــات العقليـــة . إن التطـــرف يستجر التطرف، ويلغي فرص التجسير والتواصل. وعندها ، فإن أي مسلم مثـــلا يقول بكل بساطة إن أية قوانين لا تميز بين الحق والباطل / الصواب والخطـــأ / هي قوانين لا تستند إلا إلى القوة العمياء للنخبة المسيطرة محليا أو عالميا. وهذه

الخطأ) التبسيطي لا يعني أن كل شيء سيكون صحيحا دائما بعد الآن ، كما أنه لن يعني أن كل شيء سيكون خطأ دائما . إن حدي التطرف " دائما " وأبدا " هما جزء من حاجتنا التقليدية للمطلق، الذي نستند عليه في منطقنا القائم على التماثل / التناقض. وعلى سبيل المثال ، فإن لدينا قاعدة عامة تقول إن تجربة الأشياء هي سياسة جيدة من أجل توسيع الخبرة . فهل يعني هذا أنه ينبغي عليك أن تجرب القفز من نافذة الطابق الثاني عشر ؟ أو أن تجرب تذوق السيانيد ؟

إن هناك الكثير جدا من المجالات التي نحتاج فيها بشكل ملح إلى أفكار جديدة . إننا نحتاج أفكارا جديدة في الاقتصاد (وعلى سبيل المثال فإن حلقة الرعاية يجب أن تتضافر مع حلقته الإنتاجية) ، وفي السياسة (على سبيل المثال، سلطة مستهلكة وليس مطلقة)، وفي البيئة (على سبيل المثال ، وضع تعرفة بيئية)، وكذلك في مستوى المعيشة، وفي المنظمات، وفي السلوك، وفي استخدام التكنولوجيا، وفي التعليم .... الخ .... الخ . إن عادات تفكيرنا التقليدية لا تقدم لنا هذه الأفكار الجديدة، بل أن كثيرا جدا من العقول الجيدة قد حددتها هذه العادات وصيرتها عقيمة.

إننا بحاجة إلى نهضة جديدة، واعتقد أنها قد بدأت فعلا، وأنا لا أزيد عن انصب لافتة واحدة من بين لافتات كثيرة سوف تنتصب فعلا . والأمر متروك للأفراد لتجاهل اللافتة أو النظر إليها

قوانين مرفوضة إسلاميا بالكامل. وهكذا نصبح أمام مواجهة وليس أمام حوار . إن على الغرب أن يدرك أن الأرض مكونة من شرق وغرب ليس عبثا، وأنه ليس وحده صاحب القرار النهائي في مصير هذا الكوكب ، وفي تفكير سكانه .

رؤية إسلامية

إلى هنا ننتهي من استعراض مقدمة إدوارد دي . بونو وقد جاء العرض شـــاملا وأمينا، حتى عند الاختلاف على المصطلح الواجب استخدامه. وليس الهدف وضع تصورين متقابلين ومحاولة فهم فحوى كل منهما بل الوصول إلى حقيقة أن الفكر الإسلامي الذي تعرض إلى ظلم كبير ، يظل هو الفكر الشمولي الوحيد القادر علـى خدمة الإنسان في كل زمان ومكان . يثبت ذلك أن كثيرا من آليات التفكير التـــي يعتبرها دي بونو فتحا جديدا قام به ، موجودة لدينا، ويمكننا تعلمها من القـــرآن الكريم مباشرة . وبخاصة في مجالين مهمين :

الأول :أن العقل لا يقوم على الجدل ، وان الجدل أشبه بالطاقة الضائعة ، وقد حذرنا القرآن منه . ودعانا إلى الحوار بدلا منه ، وان لا نجادل إلا بـــالتي هـــي أحسن إذا اضطررنا إلى ذلك . ولننظر الآن إلى وسائل إعلامنـــا ، واتصالاتنـــا ، وإدارتنا ، وسياستنا ، ونراقب مستوى الجدل في كل منها ، محاولين إبقاءه عند أدنى حد ممكن ، ومحاولين دائما خلق تصورات جديدة ، والانطلاق إلـــى آفـــاق أرحب ، بدل الدوران في حلقات مفرغة . إن ذلك يؤدي إلى :

-الحد من الطاقةالضائعة-سواءالطاقة البشرية أوالمالية-التي تصرف على منابر الجدل.ويمكن لكل مؤسسة أن تحسب ما يمكنها توفيره من وراء ذلك سنويا.

-الحد من العداوات والإستفزازات التي ترافـــق تسـجيل النقـــاط والمواقـــف ، وخفض المنسوب العاطفي في المفاوضـــات السياســـية والتجاريـــة ، وتحويـــل

العلاقات الداخلية من علاقات تناحر إلى علاقات تضافر ، وتحويل العلاقات الخارجية من التنافس إلى التعاون _قدر الإمكان .

-توجيه طاقات البشر إلى خلق بدائل جديدة ، والانطلاق بدل الانغلاق .

-ولا يعني ما سبق التسليم للطرف الآخر بما يريد ، ولا المهادنة على حساب القيم المطلقة ، ولا الإنجرار إلى النفاق إنما يمكن البحث عن نقاط الاتفاق ، قبل البحث عن نقاط الاختلاف . ولن يحط من قدرك في عين أي إنسان انك اختلفت معه ، بل انك قد تخسره إلى الأبد إذا شعر انك تنافقه وتتملقه . دعه يطرح قضيته، وابدأ معه من حيث هو إلى أن تعرض قضيتك .

-إياك أن تكتفي بالتأمل أو التفكير في القضايا المطروحه ،أو آليات العمل المتبعة بل فكر كل يوم بشيء جديد ، ودون ذلك بينك وين نفسك أولا ، وعندما تستطيع تطوير أفكارك ابدأ بعرضها ضمن دوائر ضيقة ، ثم وسع دائرة النقاش حتى تصبح جماهيرية واسعة .

الثاني : إن الغاية النهائية للتفكير البشري مهمة جدا ، وإذ نبتغي الدار الآخرة فيما آتانا الله سبحانه ، فإن ذلك لا يعني العزوف عن تحسين مستويات المعيشة والعلم والإنجاز ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف 32 . كما إن إعمار الأرض واجب ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾فاطر 39 . أما الإفساد في الأرض فقد ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وكلها تشكل ضوابط بيئية تجعل المسلم في جهد دائب دائما لإقامة التوازن المطلوب بين الانتفاع بما في الأرض وما عليها أو بين الحفاظ عليها . ولا

تناقض بين الغايات النهائية ، وبين الغايات المرحلية ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ البقرة 201 .وكي لا يطغى بشر على بشر ولا شأن على شأن فإنه لا بد من التمييز القاطع بين الصواب والخطأ . ونلاحظ في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله . وهكذا ، نجد حامل الفكر الإسلامي لينا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى ، ورفيقا مؤمنا أن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، وان العنف لا يكون في شيء إلا شانه . ولا تعصب في هذا ،لأن من الأسس المقبولة في عالم اليوم مبدأ استقلال القضاء – أي استقلال نصوص وضعها بشر في آخر الأمر كي تحكم بين الناس . فلماذا رفض تقبل نصوص ربانية ، على الرغم من أنها تحظى بقبول واسع بين بني البشر أيضا ؟ أليس هذا من التناقضات التي وقعت فيها الديمقراطية أو الديمقراطيات الغربية ؟

إن إلغاء الفوارق بين الصح والخطأ ، قد استغل بشكل سيء في نهاية القرن العشرين من أجل إلغاء (الشرعية الدولية) و(المرجعيات الفكرية) والاحتكام إلى قوانين توازن المصالح . وهكذا ضاعت مبادئ وقيم كثيرة ، وتعرض للظلم بشر كثيرون ، وحرم خلق كثيرون من حقوقهم الإنسانية في العمل وفي الإقامة في بيوتهم وأراضيهم ... الخ.

وحتى لو لم يكن الأمر كذلك ، وحتى لو تحصلت بعض المنافع المادية هنا وهنالك جراء إلغاء هذه التصنيفات ، فإن المفكر المسلم لا يخجل من الإعلان عن هدفه الواضح المتمثل في وزن كل أمر بميزان الخالق تبارك وتعالى ، وان هدفه أن تظل كلمة الله هي العليا . إننا لا يمكن أن نطالب الآخرين بالتخلي عن مصادر

تشريعهم الوضعية ، هكذا ، وبجرة قلم ، ولكننا في الوقت نفسه غير مطالبين بالتخلي عن مصادر تشريعنا ، وبخاصة أنها لا تغلق بابا للحوار ، ولا تسد أفقا للتفكير ، ولا تسعى إلا لجعل هذا العالم مكانا افضل ، وجسرا اكثر أمنا للعبور إلى الغاية النهائية للمسلم .

المستقبل والفكر الإسلامي

مهما كان تخصص الإنسان أو مجال عمله ،فإنه يستطيع تطوير ذاته وقدراته إذا فكر في المحاور التالية، وتوقف عند كل محور منها مليا، محاولا اجتراح وسائل جديدة في تطوير عمله ، ودفعه قدما ،إن الهدف هنا ليس حل المشاكل التي تواجه الإنسان فقط ، مع أن حل المشاكل جزء مهم من حياتنا وعملنا ، إلا أن الاقتدار عليه يعني بكل بساطة أننا حتى نحقق قفزات قوية في حياتنا – الفردية والجمعية –يجب أن يأخذ حل المشاكل جزءا من تفكيرنا – ولكن ليس كل تفكيرنا . والنقاط التالية توضح كيف يمكننا البدء بتكوين خطة عمل عقلية جديدة مبرمجة بشكل يتناسب مع آلية عمل الدماغ الإنساني . ومن العجيب أننا نتحدث عن أعمال العقل ، وتفعيل العقل ، دون أن نتوقف طويلا إمام آليات وأساليب عمل العقل :

أولا : إننا نركز على النظر إلى الوراء – كأسلوب تفكير وليس كموقف من الموروث الإنساني – بمعنى أننا في حواراتنا لا ندرك أهمية الكلمة إلا بعد أن تقال، ولا ندرك أهمية الفكرة إلا بعد أن تطرح . وبعد أن يطرحها شخص آخر ، فإننا نحار بيننا وبين أنفسنا كيف غابت عنا طيلة هذه الفترة . تماما كما يحصل عندما نسمع قصيدة جيدة للمرة الأولى ، ونعجب بها ولكننا نعجب أكثر من أننا لم

نستطع أن نقولها . يجب أن نطور أساليب اكتشاف أفكار جديدة ، وفـــي أســـاليب اختراع مثل هذه أيضا وحتى نكون مبادرين وسباقين في كلماتنـــا وأفكارنـــا ، وطروحاتنا ، في اجتماعاتنا ، وفي خططنا الاستراتيجية والتكتيكية على حد سواء ، فننا يجب أن نتعلم كيف نركز أنظارنا إلى الأمام ، وليس إلى الـــوراء ، أي ليـــس على الموقف الذي يجب أن نأخذه من الفكرة بعد طرحها , ولكن على الموقـــف القادر على جعلنا نخرج بأفكار جديدة .

وعلى من يريد أن يكون مبدعا أن يراقب عدد الأفكار والآراء التي يسـمعها، ويعتقد انه كان قادرا على الإتيان بمثلها ، أما إذا كان لديه كـم كبـير مـن الآراء والأفكار ، ولم يعلنها ، وأعلنها سواه ، فإن عليه أن يتمرن على المبادرة وطـــرح الأفكار كي يكون ضمن قائمة المبادرين المبدعين ،وليس ضمن قائمـــة الأغلبيـــة الصامتة . سواء في مجال حل المشاكل ، أو في التعاطي مع السلبيات الفرديـــة أو الجماعية التي تواجهه في حياته وعمله ، أو في ابتداع أفكار جديدة تسهم فـــي جعل حياة الناس أفضل مما هي عليه ، ولنراقب أنفسنا جيدا :

فهل نتعلم الاشياء بالنظر إلى الوراء أم الأمام ؟

هل نقدر الاشياء بعد أن يقدرها معظم الناس أم نوجدها ؟

لنأخذ تطبيقا عمليا في مجال الكتابة والصحافة تحديدا :

هناك كاتب يلهث متابعا الأحداث ... فيدرك بعضها ويفوته الكثير ، وهناك كاتب يصنع الأحداث ، ويستبقها .

وهناك كاتب لديه الكثير ، ولكنه لا يقول ما لديه إلى أن يقوله سواه ، ويتـــأكدَ أن ما كان يفكر فيه صحيح .

ثانيا :-الدماغ البشري آلة بسيطة وآلية آية في التعقيد . إنه نظام ذاتـــي إيجـــابي قادر على صناعة النماذج إلى ما لا نهاية والتمييز بينها بمنتهى الدقة فـــي نفـــس الوقت . إنه ليس مجرد جهاز يمكن استرجاع المعلومات منه لتحليلها ، بل يجب أن نستخدمه في إيجاد معلومات وحقائق جديدة ، إنه للتاريخ وللواقع وللمستقبل معـــا ، وليس جهاز الزمن الواحد . والقفز عن التاريخ خطأ ،كما أن الركون إلى استحواذه خطأ أكبر ، ولكن الواقع هو الذي يقرر أن الخطوط نتبع ؟ وقد ثبت أن المعتقـــدات (كخلفية تاريخية للحكم على الأشياء بالمقارنة) سهلة التكوين في جـــهاز الدمـــاغ ، ويظل السؤال حول سهولة إرسائها ، وحول قدرة العلم الحديث على الانتقال مـــن التعامل مع سلوك الخلية العصبية المفردة ضمن شبكة عصبية الى التعـــامل مـــع توجهات السلوك العقلي في السياسة والاقتصاد والأحوال البيئية والعالمية ، بحيـــث نصل إلى تصميم أدوات وآليات محددة يمكن استخدامها بشكل قصدي منهجي فـــي توليد أفكار جديدة ، بما ينطوي عليه من تقنيات صحية وكيميائية وحتى لغوية .

ثالثا :-إن منطق العصر العقلي الجديـــد بتطبيقاتـــه الاقتصاديـــة والسياســـية والاجتماعية ، والذي سيقوم على الفهم العلمي للدماغ وأساليب عمله هو (منطق) يتفق –بعد إزالة الركام عنه – مع منطق الفكر الإسلامي تماما ، من حيـــث قيـــام المنطقين على أساس الانسياب والتشكيل ، وليس الانغلاق والتكتل . أمـــا الركـــام المقصود في منطق النظام العقلي الجديد ، فيتمثل في التصـور الخاطئ القائم على ضرورة التخلص من التصنيفات الحادة على أختلافها ، فلا بد من مـــيزان أخـــير

يظهر فيه تناقض الأمور في النهاية (إن وجود الألوان لا يلغـــي وجــود الأبيــض والأسود والعكس صحيح) -إن أية نهضة عقلية لا بد أن تفيـــد مــن المــوروث الإنساني كله وأن تهضمه لا أن تتجاوزه .

الشؤون الإنسانية

نستعرض تاليا تصورات دي.بونو حول العلاقة بين المادي والإنساني في الفكر البشري:-

أريد العودة إلى موضوع سبق أن تطرقت إليه ، إن الامتياز الذي حققته إنجازاتنا التكنولوجية يساعد على تبيان افتقارنا إلى التقدم في الشؤون الإنسانية . إن بمقدورنا الاتصال –وفورا– مع بلايين البشر في نفس اللحظة عبر التلفاز والأقمار الصناعية في مداراتها . وبإمكاننا أن نطير بسرعة تزيد عن سرعة الصوت ، ولدينا من القوة النووية ما يكفي لمسح الحضارات كلها عدة مرات ومرات .

لقد حدث أنني اعتقدت أننا لو لم نكن محددين ببعض نواحي نظام تفكيرنا ، فإننا ربما استطعنا إحراز تقدم اكثر مما أحرزنا . واعتقد أننا بحلول هذا الوقت ، كان يجب أن نكون قد سيطرنا على الشيخوخة ، السرطان ، وإصابات الفيروسات، والشفاء من معظم الأمراض العقلية ، ووصلنا إلى توليد طاقة خالية من التلوث عن طريق الانصهار النووي ، وحققنا فائضا في موارد الغذاء ، وتوصلنا إلى وسائل اكثر فاعلية بكثير للنقل ، ووصلنا إلى قدرة تعليمية متفوقة . وسوف أناقش في جزء لاحق من الكتاب السبب الذي يجعلني اشعر أن نظامنا العلمي ليس على ذلك الكمال الذي يبدو عليه ،وكيف انه قد تعرض للكبح بعادات تفكيرنا التقليدية . ورغم كل ذلك ، فإنني مثل أي شخص سواي ، أكن كل الإعجاب لإنجازاتنا الفنية التي تحققت حتى الآن .

ولكننا إذا نظرنا إلى ميدان الشؤون الإنسانية فإننا نرى الفقـــر ،والحــروب ، والعرقية ، والتعصب ، والكوارث البيئية والعنف , والجرائم ،والإرهاب أو الطمع ، والأنانية ، والتفكير قصير المدى . إن عاداتنا فى الحروب لا تزال على حالـــها ، والأسلحة فقط هي التي تغيرت وأصبحت اكثر قوة . ونحن ننفق في كــل أرجــاء العالم حوالى 1000 بليون دولار سنويا على التسلح، كما أن عاداتنا في الحكم سواء الديمقراطية أم العبودية ، كانت تستحدم بنفس الطرق في الحضارة اليونانية . وجل الأمر على نفس حاله . لماذا ؟ سوف انظر أولا في أعذارنا التقليدية :

إن الطبيعة الإنسانية الأساسية لن تتغير ، والطبيعة الإنسانية أنانية ، وطماعة، وعدوانية ،وسوف تظل كذلك دوما . وهناك أيضـــا ادعــاء مفــاده أن الأجــزاء "الحيوانية" الأقدم والأكثر أساسية في دماغنا هي التي تسيطر على السلوك العاطفي.

لقد أصبح العالم معقدا جدا ، ونحن لا نستطيع التجاوب . والبيئة، والاقتصاد، والسياسة هي مجتمع معقد من العوامل المتفاعلة ، والتي يؤثر كل منها في الآخــر بطرق مباشرة وغير مباشرة . وببساطة ، فنحن ليس لدينــــا الأنظمــة – الكفيلــة بالتعامل مع هذه الدرجة من التعقيد ، ولا يمكننا التجاوب مع معدل سرعة التغيــير الذي تجلبه التكنولوجيا . إن علاج أمراض الطفولة يؤدي إلى انفجـــار ســكاني . والتطور الصناعي يهدد البيئة من خلال التلوث المحلي وتأثيراته العالميــة (مثــل التأثيرات على طبقات الأوزون والمساحات الخضراء) .

إن معدل النمو في العالم غير متساو ، فبعض الدول وصلت إلى استقرار فــي إعداد سكانها ، على حين أن دولا أخرى ، وقعت ضحايا النمو السكاني المتفجــر. وفي بعض الدول مثل السويد ، وكندا والولايات المتحدة ، هناك قلق كبــير بشــأن

البيئة ، ومع ذلك فإن ما بين 27-29 مليون هكتار من الغابات المطرية يتم تدميرها سنويا ، كما أن ثلاثة أشكال من الحياة تختفي كل يوم . وفي بعض الأجزاء من العالم هناك مواقف عصور وسطى تجاه الحرب .

إن بنانا غير ملائمة للتجاوب مع الموقف ، والتفكير السياسي قصير النظر وأناني بطبعه وبخاصة في الديمقراطية .

لقد تطورنا بشكل يزيد عن قدرة أدمغتنا على التجاوب .

والآن ، إن كل هذه الأعذار – ما عدا العذر الأول –لا تفسر إلا التطورات الأخيرة وكيف جعلت الأمور تزداد سوءا . وتحتاج عندها لان تسأل عن السبب الذي جعل الأمور ليست أحسن حالا قبل وقوع هذه التطورات الأخيرة –ووحده العذر الأول هو الذي يجب فعلا على هذا السؤال : إن هذا كله يرجع إلى الطبيعة الإنسانية ، بطمعها وعدوانها اللذين لا يتغيران . لقد كان الدين هو وسيلتنا لتغيير ذلك ، وقد أحدث الدين تغيرات ذات قيمة ، ولكنه خلق أيضا الكثير من المشاكل (كراهية ، تعصب ، وحروب واضطهادات)* .

*** لم يحدد دي . بونو (الدين) المقصود، وهنا لا بد من تبيان أن الفكر الإسلامي يتفق مع تشخيص دي . بونو للتطور الذي شهدته البشرية، ولكن الاختلاف حول العلاج مهم جدا. فالتشخيص الإسلامي لبناء الإنسان يبين أن التكوين البيولوجي (والعقلي الدماغي جزء منه) لهذا الإنسان ينطوي على وجود النزعتين معا : نزعة الخير ونزعة الشر (وهديناه النجدين) ليس للإنسان خيار في ذلك، ولكن له مطلق الخيار في اختيار أي النجدين يسلك : فإما شاكرا، وإما كفورا . لقد أعطى**

وهناك تفسير أبعد من ذلك ،وهو تفسير انوي أن أتابعه . إن اينشتاين نفسه هو الذي قال إن كل شيء قد تغير ما عدا أسلوب تفكيرنا . وقناعتي أن فشلنا في إحراز تقدم في الشؤون الإنسانية يعود إلى عاداتنا التفكيرية . وهذا الفشل يمكن رؤيته بطريقتين :

الطريقة الأولى هي عدم الملاءمة في التعامل مع الشؤون الإنسانية . والطريقة الثانية هي الخلق الفعلي للمشاكل والصراعات في الشؤون الإنسانية ، أو مفاقمتها. وهكذا ، هناك عدم ملاءمة من ناحية ، وهناك تأثير ضار مباشر من ناحية أخرى.

الله سبحانه وتعالى عبده كل المعطيات اللازمة له ليحدد مسار تفكيره بنفسه، فالإنسان – وإن كان ليس من يصنع المقدمات – إلا أنه هو الذي يصل إلى النتائج. والدماغ دليل على ذلك، إن كل إنسان سوي يتمتع بوجود هذا الجهاز، ولا فضل للإنسان في وجوده، ولكن مسؤولية تشغيل هذا الجهاز تقع على الإنسان، إنه نفس الإنسان الذي يقود سيارته إما ليصل إلى مكان ما، أو لقتل إنسان ما . وبالتالي، فإن الضوابط التي يضعها الإنسان لسلوكه هي المسؤولة عن تطورات هذا السلوك . الأديان أعطتنا إمكانات – ومن وجهة نظرنا – فالإسلام أعطانا كل الإمكانات، وأما القرارات فهي من صنع عقولنا . وعلينا أن نجاهد أنفسنا ونزعاتنا "إن النفس لأمارة بالسوء " حتى نصل إلى التوازن المطلوب . وكما يعود دي بونو نفسه ليؤكد بعد سطرين أو ثلاثة، فإن عاداتنا تفكيرنا هي المسؤولة عن قصور فكرنا في المجالات الإنسانية، فلماذا إذن هذا التعجل بزج الدين، لتحميله مسؤولية نحن كبشر نتحملها كمفكرين نخطئ (أحيانا) في استخدام عقولنا ؟ كما نخطئ في استخدام العقاقير – أو ربما بشكل أخطر .

لقد أوضحت التجربة أن المنطـــق لا يمكـن أبـدا أن تغـيره الإدراكـات والعواطف، والتعصب والمعتقدات ، ورغم ذلك ، فإننا لا نزال نأمل بأنـــه إذا رأى كل واحد (المنطق) فإن العالم سوف يكون يتحسن كثيرا ، وكما سوف نرى لاحقا ، فإن هناك أسبابا وجيهة تجعل المنطق غير قادر أبدا على التأثير على العواطـــف والمعتقدات . والطريقة الوحيدة لعمل ذلك تأتي عبر الإدراك ، ولكننا فشلنا فشـــلا ذريعا في تطوير فهم للإدراك .

إن نظامنا المنطقي المحمول بواسطة اللغة * (وبشكل محدد التقسيمات الزائفـة الضرورية لتشغيل مبدأ التناقض) قد أوجد وبلور مدركات فجة ومستقطبة من نوع

---

* من المفارقات أن كلمتي (منطق) و (نطق) يعودان إلى نفس الأصل الثلاثي فـــي اللغة العربية، والدلالة واضحة هنا، وهي أن اللغة تشكل جوهر أية عملية منطقية سواء من حيث الرموز المنطقية المستخدمة، (فهي رموز لغوية) أو مــن حيـث الحاجة إلى اللغة في مقارعة الحجة بالحجة، ومقارنة المقدمة بالنتيجة . ولطالما اعتبر المنطق في الثقافة الإسلامية من فروع علم الكلام . وهي نفس النتيجة التي يتوصل إليها الباحث العقلي المحايد ولكن لا بد أيضا من بيـــان أن الفصـــل بيـــن المنطق، والعاطفة، والمعتقد، والإدراك هو فصل لا تبرره إلا أغـــراض الدراســـة العلمية أو التحليلية (كما يحلو لدي . بونو أن يسميها)، أما الأصـــل فـــهو أخـــذ التفكير الانساني ككل، لأن المنطق، والعاطفة ، والمعتقد، والإدراك، تنصهر كلـــها بعد أن تتفاعل كخبرات ماضية وكمعارف راهنة، وكرؤيا ورؤية مســـتقبلية كـــي تعطي فكرا واحدا، من الصعب إرجاعه إلى عوامله الأولية، إذا أردنا دراسته . أو حسب اللغة التي يستعملها دي . بونو نفسه، فإن أخذ موقف من وجبة ما (ككل)=

صحيح / خطأ ونحن / هم . المنطق لا يستطيع تغيير المعتقـدات والتعصبـات ، ولكنه يمكن أن يستخدم لتعزيزها ولتصليب المدركات .

ولأننا لم يسبق لنا أن فهمنا الأنظمة الصانعة للنماذج فإننا لم نستطع أن نفـهم (الحقيقة) القوية لأنظمة الاعتقاد وكيف أن الإدراك ليس هناك حقيقة سـواه .لقـد استحوذ علينا الاهتمام بالتفكير النقدي والجدل على انهما وسيلتنا التغيـير لدينـا . وهما عديمتا الجدوى فعليا فيما يتعلق بالتغيير لأنهما يفتقران إلى عنصـر خـلاق بحق. إننا لم نبدأ بعد بفهم الإبداعية وتغييرات المثال (أو النموذج) .

إننا نستطيع إرسال الرجال إلى القمر بدقة رياضية مدهشة ، ولكننا لا نسـتطيع توقع حالة الطقس غدا . وهذا لأننا كنا ناجحين بشكل رئيسي فـي التعـامل مـع الأنظمة الجامدة ، ذات المتغيرات التي لا تتغير ! ! ولا تتفاعل ، والفضـاء مثـال كامل على ذلك .

إن كل الأخطاء التي أدرجتها أعلاه تنبع مباشرة من عادات تفكيرنا التقليديـة في المنطق ، والمحاكمة العقلية ،والحقيقـة ، واللغـة ، والتمـاثل ، والتنـاقض ،

يختلف عن تحليل الملح ودراسة الأملاح، وتحليل الدقيق ودراسة إنتاجه في أنحاء العالم، وتحليل الماء ومشكلاته . لأن كل هذه التحاليل تتعلـق بعنـاصر تكويـن المنتوج الذي قد يكون مختلفا عن كل هذه العناصر، وله مقومات أخرى لتحليلـه، إذ قد تكون المواد الأولية رديئة، ولكن التصنيع جيد، والمستهلك الأخير (آكـلا أو ناقدا) يأخذ قرارا إيجابيا أو سلبيا بناء على مواصفات المنتوج النهائي . وهـذا الفهم ضروري في مجال الفكر والتصنيع على حد سواء .

والتصنيفات ... الخ * وسوف اشرح في الكتاب كيفية ظهور هذه الأخطاء بالضبط. وسوف ابين أيضا أننا إذا سرنا إلى الأمام , ليس من خلال نظام مبن علـى اللغـة (التراث اليوناني) ، ولكن من خلال الطريقة الفعلية التي يعمل بها الدمـاغ كنظـام خالق للنماذج وذاتي التنظيم -عندها فإننا سنحصل على منظور آخر .

ثانيا: التعليم والتفكير

نطرح تاليا بعض أهم التصورات والمفاهيم لعملية التفكير ، كمـا تفهمـها مناهجنا التعليمية وذلك لأن دي بونو يناقش بعض زوايا العملية التعليمية ، مـن دون أن يطلعنا على ما يطرح على منابرها ، "إن كتاب أبعـاد التفكـير " تـأليف روبرت مارزانو وآخرون ترجمة يعقوب نشوان ومحمد خطاب -1996 ، يظل من المراجع القليلة التي تتناول تعليم عمليات التفكير بشكل شمولي ومكثف وتعبر عن الطريقة التي تم التعامل بها مع التفكير في معظم البلدان طيلة سـنوات القـرن العشرين . وهنا يعترف واضعوا الكتاب (ص 158) بأنهم اكتفوا بعرض مـهارات التفكير باعتبارها أجزاء من العمليات التربوية (التعليميـة) ، ومـع أن التفكـير نشاط عادي يتم يقينا بدون تدريس ، إلا أننا نستطيع تحسين مقدرة الطلبة علـى أداء العمليات المختلفة عن طريق زيادة وعيهم بهذه المهارات الفرعية من خـلال التدريب الواعي .

إن القول الوارد أعلاه يوفر علينا الكثير من البحث فـي فـهم الـتربويين عموما لعملية التفكير ، وتكمن المشكلة في اعتبار التفكير مجموعة مهارات تعين

*** هنا يختلط الحابل بالنابل بشكل يصعب معه الحوار .**

الطالب في تحصيله ،وتعين الإنسان في مجال عمله لاحقـا إن معظـم المنـاهج التربوية قد صممت -للأسف-على أساس إيجـاد المـهندس ، أو الطبيـب ، أو المحامي، ولكن ليس في هذا التصميم مكان أو تخصص لمحاولة إيجاد مفكريـن . إن الفكر الذي هو أبو العلوم والمهن لم يجد حتى الآن تخصصـا علميـا يليـق بمكانته، مع أن عالم التعليم قد أوجد ما لا عد له من حقول التخصـص . وهنـا ينبغي أن يحصل الانقلاب الأساسي الأول في بناء النظام العقلي الجديـد: فليـس التفكير مجرد مهارات تعيننا في هذا النشاط أو ذاك ، فحسب ، بل إنه أيضا علم لا بد من تعلمه ، وبخاصة أنه لا يزال هناك الكثير من الآفاق التي لم نستطلعها بعـد في هذا المجال. إن السفن التي أرسلت إلى الفضاء الخارجي ، كان يجب أن ينفـق أضعافها من أجل اكتشاف مجاهيل العقل والتفكـير وإضـاءة كافـة جوانبـها ، وإضافتها كتخصص علمي يحظى بما يستحقه .

ويتابع كتاب "أبعاد التفكير" : إن عمليات التفكير عموما تبدأ بمشكلات لم تحل، أو حاجة ما ، أو بموقف لم يتم اتخاذ قرار بشأنه " ونلاحظ هنا استمرار سياسـة التهميش لدور التفكير . وأن دي بونو لم يظلم القائمين على العملية التعليمية فـي العالم كثيرا ، حيث يوضح الجدول المرفق ومهارات التفكير المركزية المحوريـة التي تنصب عليها العملية التعليمية في أنحاء العالم وإن نظرة بسيطة توضح لنا مدى افتقار هذا التصور إلى ناحيتين مهمتين :

الأولى : ناحية خلق الإدراكات الجديدة ، وتوسيع المدركات القديمة ،

الثانية : ناحية القدرة على التصور ، ليس بمعنى التخيل وهو مهم ، ولكن أيضا بمعنى تجسيد فكرة متكاملة ضمن ابعادها اللازمة من اجل تطوير ناحية معينة في الحياة ، حتى لو لم تكن هناك مشاكل .

إن افتراض أن نفكر من أجل أن نحل مشاكلنا، هو افتراض مهم، ولكن ماذا لو وفر لنا التطور المتسارع حياة لا مشاكل فيها ؟ هل نصل عندها إلى مجتمع بشري آلي لا يفكر ؟ ولماذا هذا التناقض : فما هي المشاكل التي حلتها للبشرية بعثات اكتشاف الفضاء قياسا إلى المشاكل الأكثر حدة على سطح الأرض ؟ إن للتفكير مهام أخرى ، إضافة إلى حل المشكلات الماثلة . إن مهمته الأساسية هي دفع الحياة إلى الأمام ، ليس بتطوير الموجود والبناء عليه فحسب ، بل بتغييره أحيانا . وإيجاد بدائل مجدية اكثر في حالات أخرى .

ونتناول الآن (المنطق) الذي يحكم ويتحكم في التعامل مع المهارات التفكيرية على الصعيد التعليمي :

1-مهارات التركيز Focusing skills :

يرى العاملون في ميدان التعليم أن "مهارات التركيز إنما تبدأ بالعمل عندما يشعر الفرد بمشكلة ما أو في وجود مسألة ما ، أو نقص في بعض المعاني" ولسنا بحاجة هنا إلى محاولة دحض هذه المقولة ، إذ يمكن للتركيز بل يجب أن يعمل حتى دون وجود ضغوط مشاكل . كما أن التركيز على التركيز الفردي بمعزل عن هموم الجماعة وضغوط احتياجاتها ومشاكلها إنما يعني التركيز على التفكير الفردي وليس الجمعي. إن خلق اهتمام حقيقي بالبيئة يتأتى من الضغط الفكري

للجماعة ، ومن تشكيل منظومة قيمية تصبح إطارا مرجعيا للفرد الجماعة . إن الفرد لا يعيش بمعزل عن الآخرين ، ولا يفكر بعيدا عنهم ، ولا يركز وحده ، ومن تلقاء حاجته الفردية فحسب .

وبناء على كون المشكلات هي الأساس لعملية التركيز ، فقد انطلق نظامنا التعليمي في توضيح أسس مهارة التركيز من منطلق حل المشكلات أيضا . حيث يتم تعريف تحديد المشكلات Defining problems على انه توضيح المواقف المحيرة نوعا مًا بحيث يتضمن :

*صياغة المشكلة ومعرفة ماهيتها .

*تحديد من يعاني من المشكلة .

*تحديد أمثلة عليها .

*افتراض وجود وقت لحلها .

*لماذا هي مشكلة .

الإيجابية الوحيدة في هذا التصور تتمثل في الاعتراف بان الأسئلة الواردة أعلاه تغدو أكثر أهمية عندما تكون المشكلات محددة تحديدا جيدا من مثل كيف تمول سيارة ؟ أي أن هذا التوجيه يخاطب المشاكل الفردية أساسا ، بمعنى انه أسلوب ناجح لحل مشكلة " كيف أحل مشكلتي السكنية؟ ولكنه أسلوب قاصر عندما تصبح المشكلة اكثر عمومية :"كيف نحل مشكلة السكن في هذه المدينة ؟ " في الحالة الفردية لا بد من تسلسل الخطوات (منطقيا) من أجل الوصول إلى حل

فردي . أما في الحالة الجمعية ، فيمكن اتباع نفس الأسلوب ، وإجراء دراسة إثر دراسة ، والبقاء ضمن دائرة تحديد المشـــكلة . أي أن المطلـــوب هـــو النجـــاح الإجرائي ، أما في النظام العقلي الجديد ، فيمكن أن نطرح كلمة واحدة (الســكن) ونرى إن كان البعض يعتبره مشكلة لا بد من حلها ببناء مدن أو ضواحي جديدة ، وإن كان البعض الآخر يعتبرها قضية لا بد من التفكير فيها من زوايا مختلفـــة ، فلماذا السكن في المدن ؟ ولماذا تحل مشكلة السكن بالتوسع العـــامودي وليـــس الأفقي؟ ولماذا توجد هذه التقليدية المفرطة في اختيار مواد البناء ، ألا يوجد غير الحجارة والإسمنت والخشب لبناء المساكن ؟

في النظام القديم لا بد من وجود مشكلة Problem أو مسألة

أما في النظام الجديد فالأفضل أن تكون هناك قضية .

وعلى الرغم من أن الخطوة التالية في التفكير التعليمي القديـــم تقـــوم علـــى افتراض الانتقال بعد تحديد المشكلات المحددة ، إلى مشكلات غير محـــددة مثـــل مشكلة ديون العالم الثالث –أي الانتقال من الفردي إلى الجمعي ،ومـــن التكتيكـــي إلى الإستراتيجي (من الدين الشخصي إلى الدين القومي) ،ولكن من الواضـــح أن نظامنا التعليمي يناقض نفسه هنا ، فهو يبدأ مـــن التجريـــد / Abstract / إلـــى الملموس /concrete/ في الكثير من المواضيع من القراءة وحتى الحساب ، حيث يبتدئ التعليم من اجل التعليم وليس من اجل حل المشكلات . وبشكل تتأخر معـــه عملية تعلم صياغة الأهداف /Goals Setting/ الأمر الذي يخلق مشاكل تعليميـــة معقدة يشير إليها كتاب (لنصبح أمة قارئة) /Becoming a Nation of Readers/ – لان التلاميذ ينفذون الأنشطة دون أن تكون لهم أهـــداف شـــخصية أو قناعـــة

بالغرض من وراء ما يتعلمون (ص 172 المربع السابق) . والمهم هنا أن تقنيات وضع الأهداف قد جاءت من عالم الأعمال إلى عالم التعليم وليس العكس . إنه نظام يناقض نفسه ، لأنه يقوم على الإنغلاق ، في الوقت الذي يسير فيه العالم إلى الانطلاق، مما أدى في مجتمعات كثيرة إلى خلق لوبيات ومجموعات ضغط تعليمية وأكاديمية منعزلة عن المجتمع ، مع أن الأمل في كل علم أن يخدم عملا ينفع الناس ويمكث في الأرض .

ثانيا : مهارات جمع المعلومات /Information-Gathering Skills/ وهنا يأتي التركيز على الملاحظة /Observation/ والمصدر الثلاثي لكلمة الملاحظة يوحي بالتركيز على العين (اللحظ) ، وبالآنية أو السرعة (اللحظة) وقد أصبحت الملاحظة مرتبطة بالبحث العلمي مع أنها لا تقل أهمية في الآداب والفنون والتفكير . كما أن الملاحظة صممت في نظامنا التعليمي الحالي للحصول على الإدراك الحسي /Perception/ المرتبط بالحواس الخمس ، دون أن تنظم أولويات الحصول على المعلومات من هذه الحواس . لقد تم إهمال السمع – على أهميته في التعلم حتى قبل الولادة وعلى الرغم من أولوية تشكل جهاز السمع ، وعلى الرغم من أهمية السمع في التواصل وإدارة الحوار ، وفي الاقتناع والإقناع . ولن نسهب في محاولة بيان الثغرات الكبيرة التي تعتبر مبدأ الملاحظة كمبدأ من مبادئ التعلم ، وكمهارة من مهارات التفكير . ولكن نكتفي بالقول إن مناهجنا تتحدث عن الملاحظة ولا تمارسها ، إنهم (المعلمون والمربون) يعطوننا الكتب في بداية العام الدراسي ، يلقوننا فصولها وصفحاتها على مدار العام ، على أساس جزء +جزء+جزء= كتاب دون أن يعلموننا كيف (نلاحظ) الكتاب كعنوان رئيسي ، وعناوين فرعية ، وخطوط ، وحروف ، وصور ، وأشكال ، وفهارس ، وملاحق .

بل إنهم لا يعلموننا كيف نتعامل مع الكتاب على أساس نوعية تجليده ، مما كــان يجعل كتبنا المدرسية تهترىء أو تتبعثر صفحاتها قبل نهاية السنة. إن مناهجنا لا تبذل جهدا في تعليمنا الملاحظة ، ناهيك عن كيفيــة التقــاط النقــاط الغريبــة أو المميزة أو الشاذه ، مما يجعلنا نقبل الأشكال الموجودة للأشياء كما هــي ، بــدل التفكير في تعديلها، أو خلق بدائل لها. إن الملاحظة في النظام الجديــد يجــب أن تتسابق مع الإدراك لا أن تبقى سابقة له ويجب أن نتعلم كيــف نلاحــظ مــا لا يلاحظه الآخرون.

ويأتي صوغ الأسئلة /Formulating Questions/ بعد الملاحظة في نظامنـــا التعليمي ،بهدف توليد معلومات جديدة وعلى أساس أن " صياغة الأسئلة تدل على أن التلاميذ قد انخرطوا في التعليم بفاعلية (المصدر السابق ص177) ولكن الواقع الملاحظ أن تلاميذنا يتعرضون للأسئلة اكثر مما يطرحونها ، وان الذي يسأل منهم لم يفهم. إن الأسئلة يجب أن تخرج من دوائر الاستجواب ، وان يتعلم المتعلم ماذا يسأل ؟ ومن يسأل ؟ ومتى يسأل ؟ وأين يسأل وكل ذلك بحاجة إلى بناء نفســـي سليم، والى صياغة لغوية . وعلى أهمية صوغ الأســـئلة فـــي الحيـــاة العلميـــة والعملية ، إلا أن الأسئلة الموجهة إلى الذات وهي اكثر أهمية في المراحل اللاحقة في الحياة – لا يتم دمجها في نظامنا التعليمي، ولا يتم إعداد الناشـــئة للتمريـــن عليها ، وممارستها ، وكأمثلة : كيف أجعل الناس يفهمون ما أكتب ؟ كيف أضـــع أهدافا ؟ ما هو الدرس الذي تعلمته من هذه الخبرة ؟ هل هناك بدائل أخرى لـــهذا الكتاب ؟ أو النص ؟ أو العمل ؟ أو العلاقة ؟ وأخيرا : فهل تساعدني أسئلتي على صياغة برنامج تصميم جديد ومتميز ؟ وما الذي سأقدمه في هذا العمل من أمــور جديدة ؟هل وصلت حدود الاحتراف أم الإبداع؟ .

ثالثا : مهارات التذكر /Remembering Skills/ وقد أصبح معترفا بها كمهارة تفكير ، على أساس انه كلما كان أمد ومدى التفكير في شيء ما أكبر ، كلما كان تذكره أكبر . ولكن المشكلة تكمن في أن أنظمتنا التعليمية تعظم هذه المهارة إلى درجة القول " أن معظم مهارات التفكير قد وجدت لتحسين القدرة على الاحتفاظ أو التذكر" –المرجع السابق ص182. وفي هذا القول الكثير من التفريط الفكري . لان إثقال الذاكرة بالمعلومات ليس هو الهدف ، وفي تجارب كثير من المبدعين (انيشتاين مثلا) نجد أن التخصص قد تم تعميمه بشكل متعمد إلى مجال التذكر : ولماذا اثقل على عقلي بحفظ معلومات يمكن أن أدونها في أي مكان آخر؟، وفي الواقع العملي : فما هي الفائدة التي يحصل عليها رئيس مجلس إدارة من حفظ مئات أرقام الهواتف ، طالما يمكن تخزين هذه المعلومات واسترجاعها في لحظات؟ إن عقل الإنسان أثمن من أن نقصر عمله على التذكر واستباق المعلومات. إن الاحتفاظ بالمعلومات واسترجاعها هي عملة قابلة للصرف عقليا ، ولكنها عملة رخيصة جدا ، وبخاصة في ظل وفرة المعلومات وكثرتها . وعلى مناهجنا التعليمية أن تدرك نوعية مخرجات التعليم ، ومدى الحاجة إلى عقول مترعة بالمعلومات . لقد انقلبت الأوضاع الآن ، وأصبحنا بحاجة إلى سكرتيرة تجيد الحفظ ، ولكننا لسنا بحاجة إلى صانع قرار لا يجيد سوى الحفظ . وحتى عندما نحتاج مديرا تنفيذيا ، فإن تحليل المعلومات وليس حفظها – هو ما يحتاجه اكثر . ومن ناحية أخرى ، فإن المفهوم التقليدي القائل بان التذكر هو محور وهدف المهارات الفكرية يتناقض على طول الخط مع المفهوم المعاصر للدماغ البشري ، كنظام إيجابي ، خالق للنماذج وصانع لها ، وليس مجرد آلة لحفظ المعلومات .

رابعا : مهارات التنظيم /Organizing Skills/ وقد حددتها أنظمتنا التعليمية بأنها تدور حول المقارنة /Comparing/ والتبويب والترتيب /ordering and Classifying/ والتمثيل Representing ، ومن الواضح أن المقارنة ، والتبويب يتطلبان تمييزا إدراكيا اقل من تمثيل المادة المتعلمة، وعلى حين أننا لا ننكر كون هذه نشاطات تفكيرية ومهارات فكرية ، إلا انه لا بد من التركيز على أنها تقنيات فنية لا بد أن تعاد صياغة أهدافها وبرامجها كي تتناسب مع الفهم العملي الجديد للنظام العقلي . فإذا كان التفكير مجرد تعامل مع مدركات موجودة ، فإن الباحثين قد اثروا هذه المجالات فعلا ، أما إذا كان الهدف هو تسخير هذه القدرات من اجل الهدف الأسمى المتمثل في خلق مدركات جديدة ، فلا بد من إعادة النظر بالبرامج التعليمية الموضوعة لهذه المهارات .

خامسا : مهارات التحليل /Analyzing Skills/ والهدف منها في نظامنا الحالي فحص الأجزاء المكونة للمعلومات والعلاقة القائمة بينها . وقد عظم الفلاسفة دور التحليل على أساس انه "مركز الفكر الناقد" المرجع السابق ص204. ولكنهم قصروا البحث فيه على ما هو موجود من حيث تحديد الخصائص ، والمكونات ، والعلاقات والأخطاء . والمشكلة هنا أيضا هي أن كل ما هو موجود يتم أخذه كمسلمات . بحيث يستحيل الخروج على النص ، فالنقد / أو الفكر الناقد / يأتي ضمن قواعد موضوعة مسبقا . حين يتم رفض مسلمات الفكر الديني ، فإنه يتم الإذعان التام لفرضيات ما على أساس أنها مسلمات . إن النظام العقلي الجديد يحاول أن يخرج من إسار المسلمات والمطلقات والتصنيفات القطعية / الخير والشر ، والحق والباطل / مع أن هذه قابلة للإدراك لدى الناشئة . ومقابل ذلك ، يطالبنا نظامنا التعليمي بالخضوع لتصنيفات هذه المدرسة الأدبية ، أو مطلقات

تلك المؤسسة العلمية ،مع أن التغيرات العلمية المتسارعة تعمل معـــول الـــهدم السريع في كثير من الفرضيات العلمية يوما بعد يوم . إن الهرم مقلـــوب هنـــا ، فالقواعد (الأخلاقية) العامة بحاجة إلى مسلمات ، على حين أن الفرضيات -بـــل وحتى النظريات العلمية – بحاجة إلى قدرة على التقـــاط إمكانيـــة التغيـــير فـــي أساسيات عملية التحليل من حيث الخصائص ، والمكونات والعلاقات ، والأخطاء .

سادسا : مهارات التوليد /Generating Skills/ وتتم علـــى عـــدة محـــاور : التفسير (Inferring) والتنبؤ Prediction والتوسع /Elaboration/ ، وقد ظلـــت هذه المهارات تعتمد على الفلسفة اليونانية التقليدية من استقراء استنباط . ومـــن مفارقات نظامنا التعليمي انه يعتبر أن التنبؤ غير فعال في تحسين الفهم (المصدر السابق ص218،219) وفي الوقت الذي كان يتعين فيه على نظرياتنا التربويـــة أن تبذل جهدا أكبر في قضية التنبؤ بعد تغيير محتواها وأهدافها ، فإنها أخذت تجنـــح إلى استبعاد التنبؤ بزعم انه يعيق التحصيل المدرسي لدى ذوي التحصيل المرتفـــع والمنخفض على حد سواء .إن التعامل مع المستقبل ، / وما يمكن أن يكون عليه الموقف إذا حصل كذا وكذا / ليس شرطا أن يدرج ضمن (تصنيف) التنبؤ ، بـــل إنه قد يكون نوعا من المستقبلية ، أو استشراف المستقبل ، وليس تنجيما . ولكن الخلط ممتد في ثقافتنا المعاصرة في كل مكان ، فكثيرون منا لا يزالون يتحدثـــون عن / المتنبئ الجوي / بدل / الراصد الجوي / عدا عن خلط كثير من باحثينا بين تنبؤات بعض المنجمين ، وبعض المعطيات السياسية المطروحـــة ، وهكـــذا . إن مفهوم التنبؤ يجب أن يلغى من قاموسنا التفكيري عموما ، والتعليمي خصوصـــا ، كي يحل محله مفهوم التبصر Insight ، وقد تم التطرق إلى الفرق بـــين البصـــر والبصيرة سابقا، ويكفي أن نقول هنا إن البصر قد يخضع للســـحر مثـــلا وأمـــا

البصيرة فلا تخضع له . إن التبصير هو حاصل المفاعلة المستمرة بين الدمـــاغ، وبين المعلومات الحسية الواردة إليه . تماما كما أن السمع هو عملية ميكانيكيـــة ، على حين أن الاستماع نشاط فكري وعملية عقلية . وباختصـــــار فـــإن التنبـــؤ بمفهوم التنجيم ليس مهارة فكرية أصلا ، وما ينبغي إدراجه هنا ، أما التبصــــير فهو نشاط فكري ، يؤدي إذا أحسن العمل عليه وبه إلى توسيع احتمالات النجـــاح في إعادة البناء ، وهي النشاط الفكري الأرقى .

سابعا : مهارات التكامل /Integrating Skills/ أو دمج المعلومات الســـابقة والجديدة في بناء جديد ، مما يتطلب القدرة على تلخيص المعلومـــات ، وتمييـــز المهم من غير ا لمهم منها ، من أجل إعادة بناء المواد المعرفية Restructuring وتغيير التطورات والمدركات والمعتقدات بما يتناسب مـــع المعطيـــات الجديـــدة . وعلى حين أن مهارات التكامل هذه /بما فيها إعادة البناء / يجب أن تكون غايـــة العملية التعليمية ومحورها ، إلا أنها تحظى بأبحاث أقل مما تحظى به مـــــهارات القياس والتصميم والتحقق . مع أن الأخيرة هي مهارات فنية، يمكـــن اكتســـابها بسهولة أكبر من مهارة إعادة البناء . ويعود السبب في عدم توفر اهتمام كـــــاف بإعادة البناء، إلى المفهوم التقليدي الضيق لهذه العبارة، إنه يقتصر – كما يفـــهم من الطروحات التربوية المعاصرة – على ترتيب المواد الموجودة، وكما يســـميه دي . بونو منطق سطح المائدة، حيث يتم وضع أجسام، ويطلب من المتعلم إعـادة ترتيبها، الآخر الذي لا يتطلب التفكير في مواد جديدة، وتصميم أشكال جديدة، بـــل يقف عند حدود التحليل (المنطقي) للعلاقات، لا يمتد نحو إيجاد علاقات جديدة.

مهارات التفكير الأساسية كما تظهر في النظريات التقليدية

1.مهارات التركيز (البأورة)	
أ. تحديد المشكلات	ب. صياغة الأهداف

2.مهارات جمع المعلومات		
أ. الملاحظة	ب. صوغ الأسئلة	ج. فك الرموز

3. مهارات التذكر	
استدعاء المعلومات	ربط المعلومات

4. مهارات التنظيم		
أ. المقارنة	ب. التصنيف والترتيب	ج. التمثيل

5. مهارات التحليل	
أ. تحديد السمات والمكونات	ب. تحديد الأفكار الرئيسية
ج. تحديد العلاقات والأنماط	د. تحديد الأخطاء

6. مهارات التوليد (التنبؤ)
أ. الاستدلال ب. التوسع
7. مهارات الدمج (التكامل)
أ. التلخيص ب. إعادة البناء
8. مهارات التقويم
أ. وضع المعايير ب. التحقق والتدقيق

إن نظرة إلى الجدول المرفق، تبين لنا بوضوح تام كيف أن مناهجنا وفلسفتنا التعليمية، موجهة أساسا إلى المعلم لا إلى المتعلم، وحين تخاطب المتعلم لماما، فإنها تتجه إلى القضايا الفنية أو الإجرائية أو الشكلية ، ولا تقتحم صلب عملية التفكير نفسها . ويندر أن تجد أبحاثا متكاملة ومستقلة لتطوير التفكير كمادة دراسية مستقلة، بل إن المطلوب من التفكير أن يكون مجرد أدوات في خدمة العملية التعليمية. إنها تطعم المتعلم سمكة ، ولكنها لا تعلمه كيف يصطاد السمك . وتعطيه الأفكار جاهزة، ثم تطلب منه أن يتعامل معها بدل أن يولد أفكارا جديدة ، بكل ما أوتي من ومضات ذهنية ، أو جهد دؤوب مثابر على حد سواء . ولننظر الآن إلى الأمام مع دي بونو في رؤيته الخاصة –ولكن الشمولية –لما

ينبغي أن تكون عليه نظرتنا إلى تعلم التفكير ، مقابل المدرسة التقليدية التي عرضنا لها بإيجاز نأمل أن لا يكون مخلا بالمعنى :

ثالثا: التعليم نظرات جديدة في مجالات مختلفة

لقد سبق القول إن الوظيفة الرئيسية للتعليم هي ارتفاع كلفة حضانة الأطفال * وفرص العمل التي توفرها هذه المهنة ولا يوجد خطأ في ذلك . إن (تمرير القيم الثقافية) و(التطور الروحي) و(تعليم المهارات الضرورية للحياة في هذا العالم) و(التدريب المهني) و(فتح المجال أمام الإمكانات الكافية) و(تشجيع حب المعرفة) و(تقديم أعضاء نافعين للمجتمع) كلها عبارات تستخدم لوصف أهداف التعليم ، ولكن معظم هذه الأشياء موجودة ، لأنها موجودة ، وكقضية مسلم بها † .

*** حيث تحتاج المعلمة الام إلى وضع أطفالها في الحضانات ، كي تعلم أطفال الآخرين .**

† لنأخذ مقابل هذه السياسة التعليمية القائمة على أساس الأمر الواقع ، سياسة إسلامية موضوعة وفق تصور مسبق ، كما جاءت في الصفحات 515- 530 من كتاب الإسلام – د. سعيد حوى : "إن السياسة التعليمية السليمة هي التي تفجر طاقات الإنسان كلها ضمن إطارها السليم بحيث تشتمل كل طاقات الإنسان : الجسد وطاقاته ، والعقل وطاقاته ، والنفس (الروح) وطاقاتها ، والطاقة الكبرى المتمثلة في العمل على تسخير هذا الكون والإفادة مما فيه ، وهناك طاقة الاستعداد للحياة العملية" .

ولو أننا أسقطنا التدريب المهني من حسابنا (في مهن معينة) فليس ثمة دليل قوي على أن التاريخ والجغرافيا والعلوم والشعر والأدب... الخ سوف يحدث فيها الكثير من الاختلاف الحقيقي . إننا نأخذ الأمر على انه قضية مسلم بها من حيث أن هذا هو جزء ضروري من الثقافة التي نرغب في توفرها لدى مواطنينا . أما في مسائل القراءة والكتابة والرياضيات، فإننا نعتبر أن من المسلم به أيضا أن هذه المهارات الأساسية نافعة بشكل واضح جدا لا يمكن معه وجود أدنى تساؤل بشأنها.

أما عندما يصل الأمر إلى تعليم مهارات التفكير ، فإننا نطالب عندئذ بضرورة توفر دليل على ضرورة ذلك ، على حين أن السؤال يجب أن يوضع مقلوبا بحيث يكون : كيف يمكن لأي نظام تعليمي يهدف إلى تعليم المهارات الأساسية التي يحتاج إليها في المجتمعات –وبخاصة الديمقراطية منها –أن يبرر تجنبه للمهارة الإنسانية الأساسية الأولى ألا وهي التفكير ؟ ولكن الرد سيأتينا سريعا ومفاده : حيث أن التقليد هو المهارة الأكثر أساسية من بين المهارات الإنسانية ، فمن المؤكد أن عملية التعليم تقوم بتعليمه أصلا ، ومن المؤكد أن التفكير يستخدم في تعلم أي موضوع .

إن طابعة تطبع بإصبعين فقط ستظل تطبع بإصبعين فقط حتى عندما تصل الستين من عمرها . ولا يرجع ذلك إلى نقص في ممارسة الطباعة – ولكن ما تتم ممارسته هنا هو الطباعة باصبعين فقط ، وكذلك ، فإن حقيقة استخدام التفكير لا تعني أنها تنطوي على تعلم مهارات التفكير ، فهذا التعلم يجب أن يتم بطريقة اكثر وضوحا ، ويجب أن يكون له مكان محدد في المنهاج الدراسي ، بحيث يعرف الطلاب والمعلمون والوالدون أن مهارات التفكير تتم تنميتها أيضا ، أما فكرة دمج

هذه المهارات في حقول مواضيع أخرى ، فقد تكون ملائمة نتيجـــة عـــدم وجـــود فراغات أو متسع في المناهج ، ولكن هذه الفكرة لن تؤدي أبدا إلى إحـــراز نفـــس التأثير.

إن المشكلة في نظام التعليم أنه نظام يحقق ذاته بذاته، فهو يضع أهدافه الخاصة بـــه ثم يمضي نحوها قدما. ولا يتصور الناس العاملون في التعليم التفكـــير إلا ضمـــن عمليات " التحليل " و "التفكير النقدي "، ذلك أن بدهية التعليم تقوم على طرح المواد أمام التلاميذ، ثم يطلب منهم أن يعطوا ردود فعل على المواد، ولكن الحياة لا تسير على هذه الشاكلة في كل نواحيها، ففي عالم الحياة الواقعية ينبغي على النـــاس أن يدمجوا كل العوامل التي يحتاجون في تفكيرهم بأي أمـــر : إن عليـــهم أن يقيمـــوا الأولويات، وأن يولدوا البدائل، وأن يتخذوا القرارات، وأن يقوموا بالمبادرات، وكل ذلك جزء من عملية أسميتها الإحاطة (Operacy).

لقد ظل التعليم معنيا على وجه الحصر بتفكير رد الفعل، ولقد بين لي عملـــي فـــي عالم الأعمال أن محددات القيام بتفكير رد الفعل كثيرة وكافية، ومن سوء الطالع أن معظم متخذي القرارات في العملية التعليمية لا يرون أمامهم إلا الحاجات الفطريـــة لهذه العملية، وهناك أحيانا دائرية مذهلة تنطوي عليها العملية، ومن ذلك أن وظائف اختبارات الذكاء وجدت لقياس أساسيات التفكير، وبالتالي، دعونا نعلم الطلاب كيفية تنفيذ مهام اختيارات الذكاء هذه (كالتقاط صورة الرجل الشاذ من بيـــن مجموعـــة صور مثلا)، وبعد ذلك نعود لاستخدام هذه الاختبارات ذاتها في إعطاء صلاحية لما نفعله.

ومن خلال تجربتي في برنامج تعلم مهارات التفكير، فإن إحدى أهم النتائج التي توصلت إليها تكمن في تغيير صورة الطالب من " أنا ذكي " إلى أنا مفكر " وهي صورة بناءة أكثر من الصورة الأولى بكثير، فلم تعد المسألة هي مسألة " أنا على صواب " بل أصبحت صورة " أنني أستطيع أن أفكر في هذا " كما ينظر إلى التفكير هنا على أساس أنه مهارة يمكن تطويرها من خلال الانتباه والممارسة، كما هو الحال في تعلم رياضة التزلج أو التنس أو أية رياضة أخرى .

إن التعليم يتعلق كله بالمعلومات وإجابات الصواب والخطأ، كما يقررهما الكتاب المقرر. وهكذا يتم التركيز على التحليل، والتفكير النقدي، والتوثيق المنطقي، على حين يتم إغفال الجانب الأكثر أهمية من جوانب التفكير ألا وهو الجانب الإدراكي حيث هناك شعور بأن هذا الجانب تتم معاجلته بكفاية بوساطة أمور مثل الأدب . ولأسباب سبق أن فصلتها في جزء سابق من هذا الكتاب، فإن هذا سوء فهم للإدراك، فالأدب يوفر الإدراك، ولكنه لا يوفر المهارات الإدراكية .

ولطالما عانى التعليم من سلبيات كثيرة منها : الاعتقاد بالتغيير من خلال التطوير ، وصعوبة الانتقال إلى الخطوة التالية ، ومشكلة ملأ الفراغ .

فما الذي يمكن أن يتكون منه التعليم ؟ ربما يكون هناك عنصر مهارات أساسية، فقد يتضمن التفكير (وليس التفكير النقدي فقط) بل التفكير البناء ، وهناك القراءة والكتابة ، ومهارات الرياضيات الأساسية (كما تستخدم في الحياة العملية) ، واستخدام الحاسوب ، كذلك مهارات الاتصال والمهارات الاجتماعية . كما يمكن أن تكون هناك مادة تبين كيفية عمل عالم اليوم فعلا في مجال الأعمال والسياسة وعلم الاجتماع الأساسي ... الخ . كما أن مستوى الخلفية الثقافية (وكذلك المستوى

السابق) يمكن أن تعامل بطريقة تختلف من الطريقة التي تعامل بها الآن حيث ستعالج قضايا التاريخ والجغرافيا والدراما من خلال مواد تعرض على جهاز تسجيل الصور (الفيديو) .

أما العلوم فسوف يعاد تركيبها والتعامل معها على مستويات ثلاثة: المهارات الأساسية (المناهج) ، والعالم الحاضر ، والخلفية الثقافية .

وإذا كنا بصدد البحث عن التغيير في التفكير كي ينهض بمهمته الأساسية ألا وهي مهمة تعليم التفكير ، فهذا اكثر أهمية من كل ما سواه . ومن الملاحظ أن التعليم يحجم عن أداء هذه المهمة لأن المنشغلين به منغلقون داخل نظام ذي نظرة محدودة جدا إلى ماهية التفكير ، وكذلك لان عليهم الالتزام بتطبيق معايير غير ملائمة .

ولكنه سيأتي سريعا ذلك اليوم الذي ينهض فيه الوالدون بكل بساطة مطالبين المدارس بالقيام بعمل أفضل في تعليم مهارات التفكير . وفي استطلاع أجراه ؛ جورج غالوب قبل سنوات طويلة ، أعلن اكثر من ستين بالمئة من الوالدين أنهم غير راضين عن التفكير الذي يتم تعليمه في المدارس * .

*** إن عدم رضا الأغلبية عن نوعية التعليم لا تعني أية بشرى للتغيير،لأن التعليم مؤسسة تستطيع أن تحمي نفسها من التغيرات المفاجئة . ولأن الشكل الحالي للأمور يحظى كما يبدو برضا النخب الفكرية والسياسية والإقتصادية . هذا في المجتمعات الديمقراطية، أما في غير ذلك من المجتمعات فلن يؤثر بسخط الناس أو رضاهم كثيرا على صناعة القرارات المتعلقة بالتعليم . أما ديمقراطية المؤسسة=**

العلوم

"هو الذي فعلها "

"لا بل هي "

"بل كان هو "

"إنني اعرف من فعلها ، ولكنني لن أقول "

إناء زهر في روضة أطفال ، تم إسقاطه من مكانه فتحطم . ويحاول الأطفال إرباك المعلمة بشان ما حدث ، فقد تكون المعلمة راغبة في اكتشاف من فعل ذلك (وربما لا تكون) .

هذا هو جوهر العلوم . إذ يحدث شيء ما ، وباستخدام بديهيتنا الموثوق بها بشأن "العلة والمعلول " فإننا نعرف أن لا بد من وجود سبب لما حدث في مكان ما " وهكذا نشرع في محاولة العثور على السبب . وفي قصة روضة الأطفال ، فإن المعلمة قد تكون لديها شكوك حول من فعل ذلك ، وهذا الشك هو الفرضية في

=التعليمية فلن تفكر في التغيير كما سيوضح دي بونو نفسه عندما يتحدث عن الجامعات لاحقا .

مجال العلوم [*] . إن العلم ينطلق محاولا تحديد السبب وعزله عن العوامل الأخرى، وللعزل عدة تأثيرات نافعة ، فهو يساعد على فهم العمليات كما تجري في الطبيعة، حيث يمكن تقصيها بعد ذلك كلا على حدة . كما أن بوسعك أن تزيل السبب .

لقد علقت في مواضع شتى من هذا الكتاب على سهولة خلق المعتقدات في الأنظمة الذاتية التنظيم الصانعة للنماذج . ونظام المعتقد السهل يسمح لنا بجعل العالم يبدو معقولا حتى عندما لا تتوفر لدينا الكثير من المعطيات – كما في حالة الطفل الذي ينمو . ولا يوجد مجال يظهر فيه عمل النظام الإعتقادي من المعتقدات التي تتكون لدينا حول أسباب الأمراض المختلفة .

إن مصطلح الملاريا قد أتى من منطقة روما في إيطاليا ، وببساطة فإن المعنى الحرفي لاسم هذا المرض هو "الطقس السيئ " لأنه كان يعتقد أن الطقس السيئ الذي يسود مناطق المستنقعات هو الذي يسبب الملاريا ولكن التقصي العلمي أدى إلى تضييق نطاق "الطقس السيئ " إلى البعوض الذي ينتشر في الطقس السيئ، ثم حصل تضييق آخر جعل السبب هو طفيليات معينة داخل جسم البعوضة [†] .

---

[*] قد يكون الشك أو حتى الرغبة في الإكتشتاف جزءا من الفرضية العلمية، ولكن لا يمكن أن نساوي بين الشك (الذي قد يكون علميا، وقد لا يكون) وبين الفرضية (التي لا بد لها من أساس علمي – في نظامنا التعليمي على الأقل .

[†] هذا التطور العلمي بالتجربة والخطأ، أو بالملاحظة والتقصي، طبيعي تماما في كل العلوم. وإلا لما كان هناك معنى للتطور العلمي مع ضرورة التنبه إلى أن توسيع دائرة المصطلحات هو الذي يخلق مشاكل في الفهم وفي الإدراك أحيانا،

وضمن حدود الطب نفسه . فقد كانت معتقدات قوية مسيطرة ، أصبحنا نعتقد الآن إنها زائفة . لقد كانت هناك عادة دارجة كعلاج الدم (الحجامة) ، حيث يتم تخليص المريض من كمية من دمه كعلاج لأي مرض . وغالبا ما كان يحصل إفراط في هذا العمل (على قاعدة أن الأكثر أفضل) إلى حد يشارف معه المريض على الهلاك نتيجة هذا العلاج . أما في المستقبل ، فقد نعيد الإعتبار لهذه العملية عندما نكشف إنها تحفز النخاع العظمي ليس لإنتاج المزيد من خلايا الدم الحمراء فحسب ، بل ولإنتاج خلايا كريات الدم البيضاء أيضا ، وهي التي تشكل دفاعات الجسم ضد الأمراض . وربما يكون الأمر أن الحجامة تستثير أيضا نظام الغدد

وكلمة (أعتقد) و (معتقد) من هذه المصطلحات ، ويشيع في العربية أن نستخدم كلمة أعتقد (بشكل يوحي بوجود معتقد) دون أن نقصد ذلك : "إنني أعتقد أنك قادم من جهة الغرب ". ولا علاقة لهذا الاعتقاد ببناء نظام تفكيري، ولا بالنماذج المستقرة التي تحتاجها المعتقدات، بل إن كلمة (أعتقد) هنا، قد تعني غلبة الظن، أو " أحسب أنك قادم من جهة الغرب " . وعند الحديث عن تطورات علمية من باب اكتشاف السبب (أو حتى المفهوم العلمي) للملاريا، أو أية ظاهرة (تجريبية) أخرى، فإن كلمة " افترض "، أو "أحسب" ، أو " أظن "، وحتى " أشك " أقرب إلى المفهوم المقصود من كلمة أعتقد التي توسع استخدامها كما قلنا أكثر مما ينبغي، ربما لإضفاء نوع من التوكيد على الحديث . يحصل هذا في العربية وفي الإنجليزية أيضا .

الكظرية من اجل إنتاج هرمون الكورتيزون الفعال لعلاج أمراض المفاصل ، وأنها قد تحفز الدماغ لإنتاج هرمونات تستثير عمل معظم أعضاء الجسم * .

إن الاسبرين (من لحاء الصفصاف) ، وكذلك أوراق القمعية الصفراء (من نبتة قفاز الثعلب الارجوانية) كانت تستخدم كعلاجات شعبية فعالة في حالات فشل القلب ، وقد انتقلت من كونها معتقدا شعبيا إلى اعتقاد مقبول طبيا ، حتى في ظل عدم اكتمال فهم الآليات المحددة التي يتم العلاج بها . كما أن استخدام أدوارد جينز لمطعوم جدري البقر كمطعوم ضد الجدري البشري المرعب ، جاء نتيجة الملاحظة الحاذقة† ، وأدى إلى محو هذا المرض عن وجه الأرض .

---

* إن هذا الحديث عن الحجامة يوضح الفرق بين المعتقد، وبين الفرضية العلمية. لقد شجع الإسلام على الحجامة، قبل أن يؤيدها الطب الحديث، ولكن تشجيع الإسلام لهذا العمل لم يأت كنصيحة صحية جاءت من فرضيات علمية ناقشها المسلمون آنذاك، بل من نصيحة نبوية تدخل في باب المعتقدات الدينية، وأخذها المسلمون الأوائل قضية عقيدية " وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " . وهكذا يقول المسلم " إنني اعتقد أن الحجامة مفيدة " على حين يقول غير المسلم " إنني افترض – أو أحسب – أو أظن أن الحجامة مفيدة " .

† إن عدم التقليل من أهمية الملاحظة الحاذقة ، لا يوجب التقليل من المراقبة الحثيثة . إن شخصا ما قد يلحظ علاقة ما بلمح البصر، ويخرج منها بنظرية متكاملة . ولكن هذا لا يعني أن كل الإكتشافات تأتي هكذا ، بل لا بد من تجارب ومتابعة ومراقبة دائبه لظاهرة ما أحيانا من أجل تنقيح فرضياتها ، والخروج

لقد برهن العلم على سطوته ومدى مساهمته بشكل بارع إلى حدٍ أنه صار يبدو وكأنه لا يطاله النقد * ، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك بعض التعليقات التي يمكن الإدلاء بها .

بالفرضية الأقرب إلى القواعد المستقرّة لخطة الإكتشاف – بصرف النظر عن استمرار استقرارها أو عدمه .

هذا النقد لا يطال العلم في فلسفات التفكير الوضعي، أما في التفكير الإسلامي، فإن كل المستقرّات العلمية يجب أن تظل موضع أخذ ورد وتقييم، لأن أي فكر بشري قد يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، والنظريات العلمية تظل أقل قدسية، في ظل نظام اعتقادي يقوم على أن القرآن هو وحده النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو في خلفه، ولنفترض مثلاً أن المسلمين كانوا يريدون اتخاذ موقف من شكل الأرض، فإن موقفهم سيختلف عن موقف الكنيسة (مع أن المفروض أن موقف الكنيسة ديني سماوي أيضاً)، لأن الأيات التي تتحدث عن تدحية الأرض، وعن دورانها، وعن دوران الشمس، الخ كثيرة جداً. وهنا يأتي الموقف الإسلامي اعتقادياً ، وصارماً، حتى لو كانت الطروحات العلمية أو السياسية تقول بغير ما يقول به القرآن في فترة معينة . وإلاّ فكيف يمكن للمسلم أن يتخذ موقفاً من تكون الأرض في تلك الفترة البعيدة من التاريخ ؟ إن لم يكن على أساس الآية الكريمة ﴿أو لم يرى الذي كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ الأنبياء –30 إن فكرة هذا التوحيد لم تكن عند ظهور الإسلام فكرة علمية ، ولذلك جاء طرحها في ذلك الوقت تحدياً علمياً للذين كفروا كي يفكروا به لاحقاً . وإذا وصلوا إلى فرضيات مخالفة لهذه الحقيقة، فلن يكون هذا الاختلاف حجة على القرآن – في نظر المسلم – لأنه=

إن أصول العلم كضد للأساطير والمعتقدات الشعبية ، قد أدى العلـــم إلـــى أن يتحاشى كل تلك الأمور التي لا يمكن فيها تخيل وجود رابطة عقلانيـــة للأفعـــال . وعلى سبيل المثال ، فإن العادة الصينية في استخدام الوخز بالإبر تبدو هراءً تاماً . على حين أن مادة النالوكسون الكيميائية تؤدي نفس الغرض ن الأمر الذي يشـــير إلى أن هنالك أساساً عقلانياً لإمكانية إنتاج مادة الاندورفين –التـــي تـؤدي نفـس الغرض– في الدماغ. وقد بدأ العلم مؤخراً جداً بالتحري عن بعض هذه العلاجـــات الشعبية . وإن كون كثير من هذه العلاجات هراء لا يعني أنها كلها هراء .

إن بدهية "السبب والعلة " البدهية متبوعة بالعزل وبتحديد السبب كـــانت أداة قوية جداً ، ولكنها لا تستطيع العمل بنفس القوة في أنظمة متفاعلة معقـدة ، حيـث توجد طائفة كاملة من العوامل المتعلقة بموضوع ما ، كما أن تجزأة الاشياء إلـــى أجزاء قد تجعلنا نضيع عوامل أخرى قد تظهر على أساس اكثر عمقاً .

إن هناك كثيرا من العلماء الذين يعتقدون أن التحليل المحض للمعطيات سـوف ينتج أفكاراً ، ولأسباب سبق أن ناقشناها ، فإن الحال ليس كذلك . إننا لا نستطيع أن ننظر إلى المعطيات إلا من خلال المفاهيم الموجودة لدينا أصـــلاً ، مثـل معـــامل الارتباط البسيط . وبشكل عام ، فإن التدريب العلمي لا يضع إلا القليل جـداً مـــن التركيز على توليد الفرضيات . وكان يمكن للعلوم أن تتقدم بشكل أسرع بكثير، لـــو أننا كنا ندرب العلماء على أن يكونوا اكثر قدرة على التخيل واكثر إبداعاً ،واكـــثر خصباً من حيث توليد الفرضيات . إن الفرضية ليست مجرد إطار يمكننا أن ننظـــر

يعتقد أن إنتهاء المراحل التجريبية ، والنتيجة العلمية النهائية التي ستسفر عنـــها الأبحاث ستأتي مصداقاً لما ورد في القرآن الكريم .

إلى المعطيات من خلاله ،ولكنه أيضاً سقالة تمكننا من بناء المعطيات وتحويلها إلى بناء . والعلم ليس مجرد تحليل لكنه الإبداع أيضا – في مجال خلـــق الفرضيـــات والتصميم التجريبي .

إن فكرة وجود الفرضية الواحدة الأكثر معقولية ، والتي نحاول أن ندحضها فيما بعد (وجهة نظر كارل بوبر بشان العلوم) هي فكرة غير فعالة علـــى أســس إدراكية . إذ فور أن تتوفر لدينا الفرضية الأكثر معقولية ، فإننا لا نستطيع أن نرى المعطيات إلا من خلالها ، وبالتالي . فإننا نحتاج إلى وجود فرضية أخرى واحــدة على الأقل ، مهما بدت لنا مخبولة وغير معقولة ، وذلك من اجل الحصول علـــى وجهة نظر من زاوية أخرى مختلفة بشأن المعطيات المناخية .

إن سيطرة تقليد الفكرة الواحدة هي السبب الذي يجعلنا أحياناً نعيد النظر فـــي معطيات قديمة ونحصل على استنتاج جديد ، كان من الممكن أن نصل إليه قبل ذلك بوقت طويل لو أن المشهد لم يكن محجوباً عنا بسبب الفرضية القديمة .

لقد سبق لتوماس كون (1962) أن ناقش مسألة صعوبة تغيير النسق (المثـــال الموجود) بكل براعة . إن العلماء يستمرون عند طريقة واحدة فـــي النظـــر إلـــى الاشياء . ويقاومون ، بل ويستبعدون أي جهد لتغيير تلك النظرة ، إلى أن يصبـــح الدليل دامغاً في النهاية ، ولكن في وقت متأخر جداً . إن العلماء لم يسبق لهم أبـــداً أن تعلموا الرقص . ولكنهم يجرون أقدامهم على الأرض بخطوات صغـــيرة إلـــى الأمام ، على الدوام . في الوقت الذي يتطلب فيه التنظيم الإدراكي خطوات إلـــى الأمام ، والى الوراء –على حد سواء –تماماً مثلما يحصل أثناء الرقص .

إن هناك أوقاتاً – وبخاصة في علم الاجتماع –نعتبر فيها أن هنالك دليلاً على أمر ما ، في الوقت الذي لا يتعدى فيه ما لدينا سوى نقصٍ في الخيال ، يؤدي إلى عجزنا عن إيجاد تفسير بديل لذلك الأمر . ويبدو أن هذا يفتح الباب أمام كافة أنواع المعتقدات الخرافية . ولكن علينا أن نحذر في المقابل ، عند قيامنا بإغلاق هذا الباب، من إغلاقه أيضا على إمكانية وجود تفسيرات أخرى لا نستطيع تخيلها في تلك اللحظة .

إن العلوم تتعاطى في العادة مع التبسيطات ، والمقاربات ومع الأنظمة الخطية، على حين يغدو وضع العلوم اكثر صعوبة عندما تتعامل مع الأنظمة التفاعلية المعقدة . وإن قدرة أجهزة الحاسوب على التعاطي الأفضل مع هذه الأنواع من الأنظمة يجب أن تكون ذات نفع في هذا المجال .

وفي العلوم ، نقيس ما نستطيع قياسه ، نتجاهل ما لا نستطيع قياسه ، وبوسعنا وضع اختبار لفحص معامل الذكاء ، وإعطائه الصلاحية دون أن تكون لدينا القدرة على قياس مدى حسن أداء شاب للعزف على البيانو إذ لا توجد لدينا اختبارات للأداء المعقد ، وهكذا ، نتجاهل الأداء ، ونعتمد في تقييمنا التعليمي على إستبانات معيارية ثابتة .

إن معظم هذه الأخطاء ينبثق من الاعتقاد بان العلم اكثر علمية ومنطقية مما هو عليه فعلاً . وفي الحقيقة ، فإن هنالك قدراً كبيراً من الإبداع والخيال والشعر في العلوم ، وما ذلك إلا لأن العلم إدراكي كما هو تحليلي ، وبنفس القدر . ولم يتم إدراك هذه الحقيقة إلا في هذه الأيام فقط ، وفي مجالات محددة مثل الفيزياء والرياضيات .

إننا نحسن صنعاً بالفعل إذا استطعنا استخدام أدوات العلم المتاحة لنـــا (تحديـــد العلة) ، فلقد وصلنا الآن نقطة الحاجة إلى تطوير المزيد من البدهيات* .

* هناك الكثير مما يمكن إضافته إلى عادات تفكيرنا العلمية، لكننا نحـــاول ضبـــط مجرى الحوار ضمن طروحات معينة قدر الإمكان . وإذا كان لا بد مـــن إضافـــة بسيطة فهي أن العلاقة بين التفكير وبين العلوم ستظل علاقة مقلوبة على رأســـها أمداً طويلاً، ولا توجد معطيات تبشر بغير ذلك، وكمثال فإن آليات التفكير يجب أن تغذي الحقول العلمية المختلفة بمدركات جديدة، وأن تفتح آفاقاً أكثر رحابة للعلوم، ولكن ما يحصل حتى الآن هو العكس، إذ أن التقدم العلمي يعطينا أفكاراً (تحليليـــة) ومعلومات أكثر . أي أن ميزان التبادل الفكري يميل لصالح العلـــوم التجريبيـــة، وليس لصالح التفكير كعلم . ولماذا سيطول أمد هذا التشوه ؟ لأن المجددين مـــن المفكرين لم يقدموا بديلاً مناسباً حتى الآن ، إذ لا يكفي ما يقوله دي . بونو عـــن ضرورة إثراء الفرضيات ومكاثرتها، ولو بفرضيات تبدو مخبولة ، لأن المطلـــوب فرضيات تبدو مخبولة، وأخرى تبدو معقولة، يتم توليدها باستمرار وبشكل قصدي في عقل الإنسان ليس من أجل حل المشكلات أو تحديد العلة ضمن قانون الســـببية (Cause and Effect) فحسب، بل من أجل خلق آفاق أرحب . وفي الإسلام، فـــإن القاعدة الشرعية تقول " إن لكل داء دواء... إلاّ السأم" وهكذا يصبح البحث عـــن بدائل علاجية لداء معين واجباً شرعياً ، يحركه دافع ذاتي داخلي، حتى لـــو لـــم يصب من الدنيا شيئاً .

الإبداع

من ناحية ثقافية فإن ما فعلناه حيال الإبداع فقيرٌ إلى حد مدهش ، رغم أننـــا نعترف أن تقدمنا قد اعتمد في قسم كبير منه على الإبداع . وهناك عدة أسباب لهذا الفشل الذريع .

إن اعتقادنا الأساسي بالمنطق التقليدي وبالعلوم وبالرياضيات ، قد أقنعنا بـأن التقدم سوف يحدث ضمن خطوات رشيدة ثابتة بحيث تستند كل خطوة بشكل بـارز إلى الخطوة السابقة لها . لكن تاريخ العلوم مثلاً . أوضح أن هذا الاعتقـــاد غـير صحيح إطلاقاً ، فلماذا نؤمن أذن بهذه الأسطورة ؟

إن كل فكرة خلاقة ذات قيمة يجب أن تبدو منطقية عند النظـــر إليــها برؤيـــة متأخرة ، وإلا فإننا لا يمكن أن نقدر قيمتها أبداً . وبالتالي ، ففور أن توجد فكـــرة إبداعية ما ، فإننا نصر على أنها لم تأت إلا من خلال منطق حكيم الخطـــوات * .

---

* **لا بد في النهاية من تسلسل، ولكن هل نحن قادرون دومـــاً علـــى رصـد هـــذا التسلسل ووضع مواصفات ومعايير له ؟ هناك اكتشافات بل وربما اختراعات تأتي (بالصدفة) أو (بالخطأ)، ومن وجهة نظر شخص مراقب للأمور ممـن الخـارج . ولكن كيف لنا أن نراقب تطور نضوج الفكرة في عقل العالم، طالما لا نعـــرف إلاّ القليل عن آلية عمل العقل البشري؟ ناهيك عن عدم القدرة على تصوير أو تمثيـل خطوات هذا التطور كما تحصل في داخل الدماغ البشري . وطالمـــا ليـس لدينـــا قاعدة علمية مستقرة حول ذلك ، فإننا لا ننكر أياً من الإحتمـــالات (الفرضيـات) المطروحة بشأن هذه الإختراعات.**

وإن كل الأفكار القيمة التي جاءت نتيجة بصيرة داخلية أو فرصة ما ، أو خطأ ما يجب أن تعرض دائماً في الأدب العلمي على أنها وليدة عملية من المنطق المتأنى الحكيم الخطوات ، وألا لما كان من الممكن أن تنشر أبدا . إن اختراع الصمام الألكتروني الثلاثي والذي، هو أساس كل الالكترونيات على يد (لي دي فوريست) ، قد جاء نتيجة فكرة مغلوطة تماماً ، حيث كان يعتقد أن عملية تفريغ كهربائي قد أدت الى إخماد شعلة غاز . أما عند النظر إلى الفكرة برؤية متأخرة ، فإننا نجد أنها عرضت كمنطق حكيم الخطوات ، وهكذا ، فإننا ننكر الإبداع * ، ونصر على أننا كنا نُستطيع أن نتوصل إلى الفكرة نفسها من خلال استخدام المنطق الملائم ، أو أن استخدام منطق أفضل كان سيوصلنا إلى تلك الفكرة على أي حال .

وقد لاحظنا أن النبوغ سوف يظل يتدفق سواء شجعناه أم لم نشجعه . ونحن نعرف أن من غير المحتمل أن ننتج نحن هذا النبوغ من خلال جهدٍ مباشر نقوم به،

---

* إن كلمة الإبداع تأتي كترجمة لكلمة Creation في مواقع كثيرة، وإذا قصرنا استخدامها الإصطلاحي عند مدلولها اللغوي، فإنها (تفيد إيجاد شيء من لا شيء) وحيث أن هذا المفهوم غير وارد بالمعنى العلمي لأن المادة لا تُفنى ولا تستحدث ولكنها تتحول من شكل إلى آخر، فإن الإبداع يبدو غير وارد في كثير من التطبيقات العلمية / العملية بل يكون الحديث في هذا المجال عن اكتشاف أو اختراع، ويصبح للإبداع عندئذٍ معناه في مجال خلق الأفكار، ووضع التصاميم غير الموضوعة للعلاقات والأشياء الموجودة . إن جملة «الله خالق السموات والأرض» تشير إلى فعل إيجادها، أما جملة «الله بديع السموات والأرض» فتنطوي على وضع تصاميمهما، وتصورهما، وتجسيد هذا التصميم .

وهكذا ، نحجم عن بذل أي جهد في اتجاه الإبداع قانعين بدورنا في تركه يحدث متى حدث -كنوع من التحولات العشوائية .

أما السبب الحقيقي الذي جعل ما فعلناه بشأن الإبداع قليلاً فهو بسيط جداً ويتمثل في أننا لم نفهم الإبداع على الإطلاق . إننا لم نفهم عملية التفكر . إننا لم نفهم الإبداع لأن من المستحيل عمل ذلك بمصطلحات عالم المعلومات السلبي وحسب قواعد المنطق التقليدي ، وهذا هو الكون الخاطئ (للإبداع) ولن يصبح الإبداع واضحاً وبسيطاً بالنسبة لنا ، إلا عندما نقوم بتلك القفزة -التي لم نقم بها بعد- إلى كون الأنظمة الصانعة للنماذج (والتي تتمتع ببعض الخواص مثل اللاتساوق) .

وكما سبق أن رأينا ، فإن التحريض يبدو أمراً منطقياً تماماً في نظام منمذج ذاتي التنظيم . فاللعب ، والدوران هو شكل من أشكال التحريض ، ولكننا لم يسبق أن منحناهما المكانة التي يستحقان ، كما أن تلك الأفكار الخلاقة التي تحدث بالصدفة أو الخطأ مثل اكتشاف مضاد الكوتريزون الحيوي ، وتطعيم باستور من خلال عامل مضعف ، واكتشاف النايلون ، والأشعة السينية ، والأفلام الفوتوغرافية... الخ هي افكار لا تحدث فعلاً إلا من خلال التحريض ، أما الفرصة فهي توفر لنا ما نستطيع أن نتعلم فعله بشكل مقصود عندما نفهم النظام الذي يسيره. أما التحريض فهو شيء لا ينبثق من إطارنا الراهن الموجود حالياً ، وعلى وجه التحديد : فإنه لا توجد أسس منطقية لعملية تحريض ما ، إلا بعد أن يصبح التحريض معروفاً وفعالاً .

إن الاستخدام الواسع لمصطلح الإبداع قد أعاق فهمنا للإبداع ، لأن هذا الفهم جعلنا نبحث عن تشكيلات سلوكية منتظمة عبر حقول متباينة جداً (حول كتابة

بيتهوفن لسمفونية ما ، أو رسم بيكاسو للوحة ، أو حول تنظير ماكسويل عن المغناطيسية الإلكترونية) . إن الوصف المتأخر اللاحق للسلوك ليست له قيمة كبيرة في مجال تحديد عملية ما ، ولهذا السبب كان من الضروري اختراع مفهوم التفكير الجانبي من أجل وصف سلوك محدد في نظام منمذج ذاتي التنظيم .

كذلك كانت هناك فكرة أن الإنسان خلاق بطبعه ، ولكن يعوقه عن الإبداع عوامل عديدة من مثل منطق ثقافتنا ، وخوفه من أن يظهر بمظهر الغبي ، وكذلك سيطرة عادة التسرع في إصدار الحكم الفوري ، وبالتالي ، فإن إزالة المعيقات يجب أن تجعلنا اكثر إبداعاً . وإننا يجب أن نتحرر حتى نكون على سجيتنا الخلاقة الطبيعية . وشكلت هذه الأفكار خلفية طريقة العصف الفكري * التي طورها اليكس أوسبورن لاستخدامها في مجال الإعلان . ومن بعض النواحي ، فإن هذه الطريقة قد ساعدت بالفعل في جلب الانتباه إلى الإبداع ، ولكنها من نواحي أخرى مقابلة ، قد ألحقت ضرراً بليغاً بالإبداع لأنها تشير إلى أنه مجرد عملية إطلاق وإزالة عوائق . ولهذا القول بعض من قيمة في عالم الإعلان ، ولكن قيمته تقل بكثير في المجالات الأخرى * .

*** شاعت ترجمة المصطلح Brain Storming على هذا الشكل، مع أن مصطلح " قدح زناد الفكر " أكثر مناسبة، ليس من حيث وجوده في الموروث العربي فحسب وإنما من حيث دقة وصفه للعملية المقصودة .**

*** لماذا ظهرت القيمة في عالم الاعلان أكثر ؟ لأن الإعلان مرتبط بالتصميم أكثر من سواه من المجالات . ومع زيادة الجهد المبذول والاستثمار الهائل في البحث عن تصاميم جديدة لخدمة الاعلان ، فإن ظهور الإبداع كان أقوى . أي أن=**

إن إطلاق المعوقات ينتج عنه بعض الزيادة في الإبداع , ولكنها ليست زيـادة كبيرة ، وبمفهوم التفكير الجانبي حول تغيير المدركات والمفاهيم ، فإن الإبداع ليس عملية طبيعية، ذلك أن العملية الطبيعية للدماغ تتمثل في تشكيل نماذج واستخدامها ، وليس في السعي إلى عبور مناطق النماذج المختلفة وقطعها ، وهكذا، فإننا بحاجـة إلى عمل الكثير وليس مجرد منع معيقات الانطلاق.

الإعلان لم يرفع القيود والضغوط (نظرياً) بل خلق دوافع جديدة للإبداع . وهنـا أيضاً جاء ميزان التبادل لغير صالح التفكير، فطرق التفكير انساب من الاعلان إلى مجال الأبحاث العقلية ، وليس العكس . إن علينا أن نتعلم درساً أساسياً بعد كـل هذه التجارب الإنسانية وهو أن الإبداع – وحتى البحث يجب أن يخلق التطورات ، ليس لأن التصور سابق على المادة – ولكن لأن الفكرة يجب أن تسبق الفعل فـي مجال النشاط الانساني، بمعنى أننا يجب أن نفكر قبل أن نكتب ، وقبل أن نتكلـم ، وقبل أن نبادر إلى العمل ، حتى نكون قد وضعنا معايير قيـاس وتحكـم داخليـة تجعلنا نسير على هدي خارطة مسبقة ، وليس خبط عشـواء. ومتـى يسـتطيع علماء التفكير إعادة التوازن بحيث يتدفق الابداع من مجال الأبحاث العقلية إلـى مجالات التعلم ، والإدارة ، والإعلان ، والسياسة ؟ لا بد أن يتم ذلك بسرعة قبـل أن يلغي العقل البشري لصالح الإنجازات المادية ، وعندها نكون قد خسرنا معركة الحضارة ككل ، وتصبح كل مختبراتنا ومصانعنا في غـير حاجـة إلـى الطاقـة البشرية، يصبح كل ما يحتاجه اكبر مصنع هو مجموعة الآت ، وإنسان واحـد وكلب ، الإنسان يأكل ، والآلات تعمل ، ومهمة الكلـب أن يمنـع الإنسـان مـن الاقتراب من الآلات !!

وهنالك أيضاً أسلوب "الصندوق الأسود" تجاه الإبداع ، وفي هذا الأسلوب ، فإننا نرفع أيدينا ونكتفي بالقول : إن الأمر كله هو حدس ، وشبه وعي ، وعواطف، ونبوغ . وليس هذا سوى أسلوب منمق للقول :.إن الإبداع يحدث . ولكننا لا نستطيع عمل أي شيء حياله .

إن فهماً بسيطاً للطبيعة المنظمة للإدراكات والمفاهيم يبين لنا أن التقدم لا يمكن أن يحدث بخطىً منطقية دائبة ، كما يوضح لنا –هذا الفهم –كيفية إمكانية زيادة تدفق الأفكار من خلال الاستخدام القصدي المتعمد لعمليات معينة مثل التحريض ،والإدخال العشوائي لبعض الكلمات ، ولا يوجد أي سحر في هذا أبداً ، إنه مجرد هروب من عالم المنطق التقليدي ذي الأنظمة السلبية * .

*** ولكن هذا (العشوائية) لا بدّ لها من ترتيب مسبق، وكون هذا الترتيب غير مرئي بالنسبة لنا لا يعني أنه غير موجود. لا نريد أن نقول إن العشوائية لن تحل مشاكل العالم، ولكننا نقول إن الكلمات العشوائية هي كلمات مختارة (سواء على صعيد العقل الواعي أم العقل الباطن). وطالما أن دي . بونو يعترف أن هذا التحريض الذهني يجب أن يكون قصدياً ، فلماذا هذا الإصرار على العشوائية. كذلك ، فإن هذه الكلمات (العشوائية) يجب أن تأتي من اللغة ، ومن المخزون اللغوي للفرد. وهكذا ، فإن عل علماء التفكير أن يبحثوا عن آفاق التطورات اللغوية القادرة على اختراع مفردات جديدة يمكن أن تكون أليق ككلمات مفتاحية من سواها . أما في اللحظة الراهنة، فإن الكلمة العشوائية نفسها، هي خطوة موجودة، وكل ما ينتج عنها لا بد أن يكون مرتبطاً بها بشكل ما . إنها تأريخ=**

نحاول صناعة المستقبل من مادته الخام، ولكن عملية المعاملة (Process) التـــي تحتاجها هذه المادة الخام لا يمكن أن تكون عشوائية أو غير طبيعية .

التاريخ

لن ينفذ التأريخ من عندنا يوماً ، بل إننا نخلق المزيد والمزيد من التاريخ يومياً ، كما أننا نستطيع أن نعيد النظر مرة تلو مرة وبعمق اكبر كل مرة في التاريخ الموجود لدينا أصلاً ، من خلال الأبحاث والآثار ، والتأريخ المغناطيسي ...الخ . كما نستطيع أيضا أن نضيف تعليقات أخرى جديدة على تعليقات المعلقين الذين علقوا على التاريخ ومن ناحية ثقافية ، فإن التاريخ يستحوذ علينا ، إلى حد يبدو احياناً أن هناك ثقافة تسمى ثقافة الجيف (أو الجثث) .

إن التاريخ مدعاة للرضا الذاتي فهو موجود وبإمكاننا أن نغرس أنيابنا فيه ، ولا تعتور التاريخ حالة اللايقين التي قد تواجه تجربة علمية ما ، أو رياضية ما لم تنجح ، أو حالة العناد لدى البشر الأحياء . وإذا شرعت في إجراء بحث تاريخي ما، فإنك تستطيع أن تضمن لنفسك دخلاً معقولاً ، وان تختار لك مكاناً . والتاريخ ليس عملاً فنياً ، وبالتالي ، فإن ذوي الأدمغة البحثية الذين لا يحبون العلوم أو الرياضيات يجدون لأنفسهم مجالاً في التاريخ .

ولكن هناك على أي حال ، أسباب أخرى اكثر أساسية لوجود مثل هذا الموقف الذي يصل في تطرفه احياناً حد القول بأن الحضارة هي الثقافة ، وان الثقافة هي

التاريخ . ومن حيث الجوهر فإننا نولي أهمية قصوى لأجدادنا -كما يظهر في الأسماء الإسبانية التي تتميز بالنبالة ، وتعطي فكرة فورية عن هذا الوضع* .

ولقد مر حين من الدهر ، كان بإمكاننا أن نحرز فيه كل التقدم في العلوم والرياضيات والفلسفة والأدب وفي كل مجال قابل للتصور-بمجرد النظر إلى الوراء . وكان ذاك هو عصر النهضة الأوروبية ، حين كان بوسعنا أن نتقدم إلى الأمام من خلال النظر إلى الوراء – إلى التفكير الحضاري اليوناني ،وإلى إدارة روما ، وإلى أدب الاثنين مهاً . كما أن العرب اسهموا أيضاً في مجال العلوم والرياضيات من خلال الصفر واستخدام الرموز** .

---

* **وفي مقابل هذا التعصب العرقي في ميدان التاريخ، فإن د.سعيد حوى يلخص موقف الفكر الإسلامي في التأريخ تلخيصا شافيا حيث يقول، في كتاب "الإسلام" ص 340 وما بعدها:**

"إن تاريخ المسلم لا يرتبط بطين الوطن، ولا بلون، ولا بجنس ينسب الإنسان إليه. إن تاريخ المسلم هو تاريخ الإسلام ودعاته. فأنا مسلم يرتبط تاريخي بآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. ولا يربطني بغير ذلك من التاريخ أي رباط سوى رباط الواقع المجرد. إن العربي لا يربطه بتاريخ الجاهلية العربية أي رباط تقوم عليه نتائج من الولاء أو الإعتزاز أو الفخر، بل يفتخر بالإسلام، ويخجل مما سواه...وفي الحديث (لينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان)

** **لن تختلف في نسبة هذا الموروث الحضاري إلى العرب أو إلى الإسلام، فقد عرفته أوروبا عن طريق العرب. ولكن الأوروبيين. وضمن انتقائية مفرطة لم=**

وهكذا ، كانت هناك تلك الفترة الاستثنائية التي كنا نستطيع خلالها أن نتقــدم إلى الأمام فعلاً بواسطة توجيه أنظارنا إلى الوراء بشكل كامل . وفي تلك الفــترة حصلت البعثات التعليمية والأبحاث على مكانتها ، وفيها أيضاً ترســخت الكتابــة والتعليم والجامعات . أما قبل تلك الفترة فقد كانت هنــاك عصورنـــا المظلمــة وإملاءات الكنيسة . وهكذا، فإن (عادة) التاريخ هذه ، والتي كانت قيمة جداً في ذلك الوقت ، ترسخت بشكل حازم كجزء مركزي من تقاليد تفكيرنا ، وفور أن تأسست، فإنها حظيت بدفاع بارع بناء على الأسس التي سوف أحاول أن أناقشها * .

يأخذوا الإنجازات العلمية والفكرية الإسلامية ضمن منظور شمولي، بــل حــاولوا التركيز على القضايا الواقعية، أو المادية، أو الملموسة فقط، لقد كانت حضــارة مادية تقوم على تجاوز مالا يعجب صناعها، بدل أن نقوم على هضم مــا ســبقها وما حولها قبل القفز عنها وتجاوزه. والخوف الفعلي هو أن تأتي نهضــة العقــل الجديد قاصرة أيضا من حيث إفراطها في الإنتقائيه، الأمر الذي يؤدي إلى التفريط بإنجازات فكرية إنسانية لم تأت إلاّ بشقّ الأنفس.

*مرة أخرى يعود هذا التشويش على المصطلحات . إن ظاهر النــص عنــد دي . بونو يوحي بأن دراسة التاريخ في العصور الوسطى ، أدت إلى تقدم فــي ذلــك العصر . وواضح أن المعنى هو أن دراسة الموروث الإنساني أدت إلــى إحــداث نهضة عقلية / أو علمية / وحضارية جديدة . ولما رأى الناس النتائج (الجيــدة) والتأثيرات الإيجابية لهذه النهضة على حياتهم ، فإنهم لم يستطيعوا إلاّ أن يعجبوا بدروس الماضي وبالموروث التاريخي الذي يشتمل على الإنجــازات البشــرية . ويأتي التشويش لاحقاً من طرح أمور لا رباط بينها : إن تطور الإتصالات اليـوم=

يقال إننا عندما لا نعرف التاريخ ، فإننا نكون مجبرين على تكرار أخطائــه . وفي هذا القول حقيقة ، ولكن فيه خطراً أيضا . فلقد تسارع العالم بشــكل كبــير ، وفي أيام الإمبراطورية البريطانية ، فإن الاتصال بين بريطانيا والهند كان يحتـــاج أسابيع ، أما اليوم فإنه يحتاج ثوانٍ معدودة . وفـــي المـــاضي ، كـــانت الحــروب تخوضها الجيوش في أماكن نائية ، أما اليوم ، فإن الحروب قد تشن بالصواريخ من ساحة منزلك . كما أن الديمقراطية الحديثة ، ووسائل الإعلام المعاصرة تعني كلــها أن الناس لم يعودوا يستثارون بسهولة تجاه الحملات الصليبية (الماجدة) . وربمــــا تكون دروس التاريخ غير ملائمة الآن ، بل إنها قد تكون مضلة أيضا.

إن الرد على الاعتراض الوارد أعلاه يتمثل في أن التاريخ ليس من الأحـــداث بل من الأشخاص ، والطبيعة الإنسانية الأساسية لم تتغير بين الماضي واليـــوم . وما التاريخ إلا مختبر نرى فيه الناس وهم يتحركون ، ولذلك فإن الـــدروس التـــي نستطيع أن نتعلمها سوف تظل صالحة طالما بقيت الطبيعة الإنسانية على الطريقـــة التي تستخدم بها هي التي قد تكون تغيرت . إن الحرب الفيتنامية لـــم تنجـح لأن

عما كان عليه الوضع أيام الإستعمار البريطاني للهند، لا يعيق دروس التـــاريخ ، ولا يعيق الحصول عليها . وليس شرطاً للإفادة مـــن التـــاريخ أن نســـقطه بكـل شخوصه وأحداثه ومفاهيمه على العصر الذي نعيش فيـــه . أمـــا بالنسبة إلـى الحروب الصليبية ، فإن على دي . بونو أن يتوقف عندها أطول ، فهو صـــاحب مقولة أن الأديان غذّت الحروب وشجعتها . إن الحروب قد تندلع لأي سبب مقدس أو غير مقدس . والسبب مهم جداً ، ولكن التفكير البشري والسلوك الإنساني فـــي الحرب له أهمية كبرى أيضاً .

شاشات التلفزة بثت وقائع الحرب في كل غرفة معيشة أمريكية بشكل مباشر ، ولأن الضغط على مجلس الكونغرس الأمريكي أدى إلى منع "الحرب الشاملة " التي كانت تقتضيها الاستراتيجية العسكرية .

وفي حرب جزر الفولكلاند (بين بريطانيا والأرجنتين) ، كما في الغزو الامريكي لجزر غرينادا ، فإن وسائل الإعلام قد فتحت على مصراعيها بسبب التجربة الأمريكية في فيتنام . وهكذا ، فقد كان ذلك درساً نافعاً تعلمناه من التاريخ القريب جداً * ، ولكن هناك دروساً أخرى من الماضي البعيد قد تكون غير ملائمة الآن . وعلى سبيل المثال ، فربما كان بالإمكان في الماضي أن تستثار أمة إلى حد السخط والحرب بسبب تنمر أمة اصغر منها عليها ، أو بسبب إهانات قد توجه إلى مواطني أمة اكبر ، أما اليوم فإن مثل هذا السخط يظل دون مستوى الحرب * .

*** هذا ما نقوله بالضبط : إن جدوى أو عدم جدوى أي درس تاريخي يعتمد على منظور رؤيتنا للأحداث وللأفكار التي قادت الأحداث وأدت إليها وبنت عليها .**

*** إن القول أن الذهاب إلى ساحة الحرب أصبح أمراً أكثر صعوبة من ذي قبل هو قول تدحضه الأحداث المتسارعة خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين. فعلى جانب الغرب : هناك دول إسلامية وعربية تتهم صباح مساء بأنها دول مجنونة لا بد من السيطرة عليها وكبح جماحها . ولا نريد الدخول في جدل حول شرعية أو عدم شريعة الأعمال العسكرية الأمريكية أو الإسرائيلية أو الأطلسية ضد العراق، وليبيا، ولبنان، والسودان ... ألخ . ولكننا نقول إن الذي كان يمنع اندلاع الحروب في تلك السنوات هو ميزان القوى، فماذا لو أن السودان هي التي قصفت واشنطن بالطائرات سنة 1998 ؟ ألن يؤدي ذلك إلى حرب شاملة حينها بصرف النظر عن**

وربما لم تتغير الطبيعة الإنسانية , ولكل ناحية منها وهي المتعلقة بفهم فظائع الحرب ، صارت تتغلب على الناحية التي تتبع السخط الأخلاقي أو الوطنية .

وهكذا ، فإن دروس التاريخ لا تحظى بذكرٍ كثير ، مع أن من الممكن أن تكون ذات قيمة . فإذا أعلن طرف ما من أطراف نزاع ما ، انه تلميذ للتاريخ ، فإن هذا يشير إلى الطريقة التي تصور النزاع على أساسها ، والخطوات التي من الممكن القيام بها . وبطريقة خفية ، فإن هذا يشكل تهديداً باتخاذ إجراء . وإذا كان كلا الطرفين تلميذين للتاريخ ، فإن لعبة "الشطرنج" بينهما قد تلعب عندها من خلال مرجع تاريخي فقط * .

مشروعية أو عدم مشروعية أعمال أي من الدولتين، فللمشروعية بحث آخر: إن الذهاب إلى ساحة الحرب أصبح كفعل أيسر من ذي قبل، إذا كان من يريد شن الحرب قادراً عليها .

*** لا شك أن للحروب دوافع أخرى غير التاريخ ، وإلاّ لما أوشكت الوحدة الأوروبية / وهي تشمل ألمانيا وفرنسا/ أن تتحقق . وليس هناك حروب شنت على أساس تاريخي باستثناء الحروب الإسرائيلية ضد العرب طيلة سنوات القرن العشرين. بدعوى أن أرض فلسطين هي حق تاريخي للشعب اليهودي، بكل ما ارتبط بهذا الإدعاء من بنى فكرية تتحدث عن التفوق العرقي و / أو الديني . ولكن مما يلفت النظر، أن الفلسطينيين – الذين صورتهم آليات الإعلام على انهم الأقل تقدماً وتطوراً، قد تعاملوا مع هذه الغزوة على أساس مستقبلي لا ما ضوي أو تاريخي ، وكذلك كان حال العرب والمسلمين الذين غيبوا مرجعيتهم التاريخية في هذا الصراع لصالح التعامل مع موازين الأمر الواقع. وعلى أي حال، فإن**

والسؤال هو :

إذا كنا لا نشتري سوى الأثاث القديم فقط ، فمن الذي سوف يصمم تحف الغد القديمة ؟ وإذا كان معظمنا ينظر إلى الوراء ، فمن الذي سوف ينظر إلى الأمام ؟ ليس ثمة أي تساؤل عن حالة اللاتوازن في مجال الموارد العقلية من حيث تحبيذ النظر إلى الوراء على النظر إلى الأمام ، ذلك أن أية ورقة علمية تحظى بالمصداقية ، إلا إذا كانت تنظر إلى الوراء ، وتلتقط الفكرة الجديدة من خلال ذلك المنظور التاريخي الذي نطلق عليه اسم البحث . إن كلمة الباحث تنطوي على معنى "الطالب لما كان " ، وليس على معنى المصمم لما قد يكون .

الحديث عن السلبية المطلقة للتاريخ في القرن العشرين، ربما تكون ناجمة عن أن الدولة الأقوى في العالم – الولايات المتحدة – تظل تشعر بضعف ما، من حيث حداثة تاريخها وعدم عراقته، ومن هنا نلحظ التركيز الأمريكي على (الديمقراطية) أو على العالم الحرّ، وكل الأسماء التي تقصر الحديث على اللحظة الراهنة . وكأن الولايات المتحدة تقول : لا تاريخ لدي ، وتاريخ الآخرين يذكرني بذلك، ولذلك لا أريد المزيد من الحديث عن هذا التاريخ . وفي المقابل ، فإن الفكر الإسلامي ، لا يتناول التاريخ كأحداث وشخصيات، بل كمنطلقات فكرية، ونشاط عقلي تمت ترجمته مادياً، ولا فضل فيه لعرقٍ أو لون أو دولة كما سبق أن بينّا. الأمر الذي ييّسر لحملة الفكر الإسلامي عملية الحوار على مائدة المستقبل، لأن ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا يتعلق بفكر ورسالة ، لا بشخصٍ، أو بحدود ، ولا بأحداث ... ذات صفات عرقية أو مقولبة أو متحيّزة .

إن للتاريخ مكانته –كما للملح على الطعام وضعه –ولكن كثيراً منه قـد يمنـع التقدم (وهذا مثال آخر على المنحنى الطبيعي) * .

---

* ودون اختلاف على تحديد نسبة هذا القليل أو الكثير من ملح التاريخ، فإن هـذا ما نريد قوله تماماً. ولو أن دي . بونو انطلق منذ البداية من مقولة أن الفضيلـة في الوسط ، من دون إفراطٍ أو تفريط، لكان أفضل لمجرى الحوار . ولكـن : ألا يستحق الملاحظة هنا، أن دي . بونو في موقفه من التاريخ لم يترك عقله يعمـل كنظام صانع للنماذج المستقرة، بل عبر قاطعاً المسافة إلى نمـوذج آخـر ؟ إنـه طريق جانبي يمكن أن ينجح في جعل أطراف الحوار يتجاوزون ورطة جدال وقعوا فيها.

الفن والإدراك

إن الصور المتحركة يمكن أن تكون أرقى أشكال الفنون " من الواضح أن هذا القول هو سخف ، أو استفزاز ، أو إدراك خاص بحاجة إلى تبرير .

إن هناك الناحية الجمالية للفن (كما في الموسيقى ، والرقص والعمارة ، والرسم التجريدي) ، كما أن هناك الناحية العاطفية (كما في الأدب المسرحي، والروايات ، والرسم الكلاسيكي القديم والشعر . وتأتي من بعد ذلك الناحية الإدراكية للفن (الصور المتحركة والنحت). وطبيعي أن هذه النواحي تتشابك ، ويمكن لأي عمل فني أن يتضمن أي مزيج منها . وأنا لم أزد عن الإشارة إلى الأنواع التي تشكل أمثلة صرفة على النواحي الجمالية والعاطفية والادراكية .

إن الصور المتحركة تلتقط الجوهر ، بل ويمكن لها أن تجبرنا على إدراك ذلك الجوهر والتعرف عليه حيث أنها تقود الإدراك بقوة . بل إن الناس يبدون استعداداً للظهور بمظهر شخصيات هذه الصور الكاريكاتورية ، اكثر من استعداد هذه الصور للظهور بمظهر الأشخاص . إن هذا التركيز هو عملية إدراكية قوية ، حيث أننا نجد أنفسنا مجبرين على التركيز على شيء ما ، ونصبح واعين له . لقد سجل لكتاب "الربيع الصامت" فضل البدء بالقلق على البيئة . وعملية التركيز والمركزة هذه هي إحدى المدركات .

ومن ناحية ثقافية ، فإننا أسلمنا الادراك إلى عالم الفن ، وليس إلى الفن الراقي فقط ، وانما للفن بمفهومه الأكثر اتساعاً أيضاً . ولطالما اعتقدنا بان الإدراك بكل ما فيه من قابلية للتغيير ليس له مكان في الأديان ، والمنطق ، والرياضيات والعلوم ،

وبالتالي يمكن أن نسلمه إلى الفن بكل اطمئنان * . فهل يغير الفن الإدراكات أم انه يعزز الأدراكات الموجودة في المجتمع أصلاً . وهل الفن مرآة أم انه معدات تشخيص ؟ ليس هناك ثمة شك في أن الأدب في معظمه إنما يعكس الحالة الإنسانية الداخلية ، وكذلك القيم السائدة في الأزمنة المختلفة . وحتى الكتب مثل كتاب "ذهب

---

* يكمن الخلل في طروحات دي . بونو من عدم تحديده تعاريف محددة للكثير من المفاهيم الشائكة أصلاً. بل إنه يوسع حدود هذه المفاهيم أو يضيقّها دون أن ينبّه إلى حدود التعديل الحدودي الذي أجراه. إن مصطلح الفن / Art / مصطلح مرن يسمح بالكثير من التجاوزات، كذلك الحال مع مصطلح (الإدراك) – الذي يأتي من حيث الإستقرار في التكوين العقلي بين الشعور العاطفي ولييد اللحظة، وبين المعتقد الراسخ . ومن المفارقة أن كلمة أدرك تعني الوصول إلى هدف محدد في التو واللحظة. حقاً، إن الفن والأدب يغيران المشاعر، والعواطف والمدركات والمعتقدات، بل والقيم أيضاً – ولكن هذه التغييرات لا تأتي من فيلم سينمائي، ولا من عمل روائي، ولا من لوحة تشكيلية، ولا من الصحيفة، ولا من التلفاز، ولا من الكتب المنشورة حديثاً، ولا من الجامعات ، بل من كل هذه مجتمعة .

والمدارس كثيرة في هذا المجال، ولا يمكن الخوض في حوار مفصل إلا بالعودة إلى بعض أساسيات هذه المدارس، ولكن نكتفي هنا بالقول إن الفن و / أو الأدب ليس شرطاً أن يكون انعكاساً أميناً للواقع، بل إن البعض يرى أن الفن للفن والأدب للأدب، وأن هذه الإبداعات ليس شرطاً أن تكون وظيفية، تنطلق من واقع ما وتدور حوله، بل إنها قد تصمم واقعاً جديداً كما في كتب وأفلام الخيال العلمي Scientific Fiction ، أو حتى في الرسوم المتحركة التي لا ندري لماذا أفرد لها دي. بونو مبحثاً خاصاً مستقلاً عن الفن ؟

مع الريح " ، فإنه إنما يعكس وضع السود في المجتمع ، وإدراكات ذلك الوضع.
أما الكتب المدرسية فإنها تعكس النمطيات المقبولة للتمييز الجنسوي في المجتمع .
وإذا كان للفن أن يكون مرآة يرى فيها الناس الحالة الإنسانية ، فإن هذه المرآة يجب أن تعكس ما هو موجود حقاً .

إنه لصحيح القول بأن الإنعكاس والتركيز والمركزة (كما في روايات تشارلز ديكنز) يمكن أن تؤدي بذاتها إلى تغيير في الإدراكات ، كذلك وفور أن ينطلق توجه ما ، فإن الفن يمكن أن يسارع ذلك التوجه بسرعة عالية جداً . ويمكن في مجال الأدب استخدام كل ما للغة من عدم صدق (سواء من حيث الملاحظة الجزئية، أو المبالغة ، أو استخدام الصفات ، أو السخرية ، أو التحويلات ، أو رزم المعاني) وذلك من أجل قيادة التوجه الجديد . ومن الملاحظ هنا ، تلك السرعة التي تم فيها تغيير الموقف العام في الولايات المتحدة تجاه القضايا العرقية والبيئية خلال فترة قصيرة نسبياً * .

---

* هل التغير يعود إلى الفنون وحدها ؟ وماذا عن اختلاف وسائل الحياة؟ وماذا عن تطلع الولايات المتحدة إلى وضع دولي خارجي ، بدل التوقف عند سياسية جورج واشنطن التي كانت تركز الأنظار داخل الحدود؟ من الطبيعي أن أي مجتمع يخوض تحديات وصراعات خارجية لا بد أن يجنح إلى التماسك الداخلي، أما إذا لم تكن هناك جبهات خارجية (سياسية أو إقتصادية أو عسكرية) فإن المجتمع الداخلي لأية دولة قد ينشغل عندها بصراعاته ، وتقسيماته الداخلية. هذا من جهة. أما من جهة أخرى، فإن التركيب الديمغرافي ساهم في هذا التطور كما أن ظهور قواعد مدينية لمجتمع صناعي خفف من غلواء حب المغامرة، إضافة إلى

هذا و لآليات الدعاية نفس القوة من ناحية إدراكية، وفي أي اتجاه يتم استخدامها فيه حتى لو كنا نصف اتجاهاً واحداً بأنه الحقيقي من بين الاتجاهات الأخرى . فقبل وقت ليس بعيداً ، كان غير المدخن يشعر وكأنه منبوذ إن هنالك طرفة عن رجل كان معتاداً على ولوج صيدلية طالباً بعض السجائر ثم يسأل بعد ذلك هامساً عن واقيات جنسية كان ذلك في الماضي ، أما اليوم ، فإن نفس الشخص يدخل الصيدلية ، ويطلب الواقي الجنسي بصوت عالٍ ، ثم يخفض صوته طالباً الحصول على السجائر .

إن الإدراك يمكن تغييره فعلاً بوساطة الفن ، ولقد تغيرت مشاعر الناس تجاه الحرب من ظاهرة ماجدة حيث كانت الحروب تلاقي التشجيع بالفن ، إلى ظاهرة وحشية ، وذلك من خلال الأدب والسينما والتلفزة * .

إعادة توزيع مراكز الثروة التي أصبحت بحاجة إلى الاستقرار ، لأن إدارة كارتيل ضخم تختلف عن مغامرة للبحث عن منجم ذهب في منطقة مأهولة. وأكثر من ذلك، فإن السود قد ناضلوا أيضاً لتغيير مواقعهم السياسية والإقتصادية والإجتماعية وضحوا في سبيل ذلك. أي أن التغير جاء بفعل سلسلة طويلة ومتداخلة من العوامل، وليس مجرد استجابة لهذا الفيلم ، أو تلك اللوحة الفنية .

*** إن كل الصناعة السينمائية وأقلام الأدباء لا تسنع حرباً، إن أي مهووس يمكن أن يشعل حرباً. وإذا وضعنا ضغوط صناع السلاح أمام الأعمال الفنية، فمن الواضح أن صناع السلاح أكثر (إقناعاً) والشعب لا يشعل حرباً، إننا نحتاج إلى شخص واحد كي نشغل حرباً ، ولكننا نحتاج إلى شعبين معاً لإيقاف الحرب !! ومن ناحية أخرى فإن الإنسان يمقت الحرب ، حتى وإن كان فيها منافع. الإنسان**

وهكذا يمكننا القول إن الفن يخدم الغايات الثلاثة معاً وهي : أن يعكس الإدراكات الموجودة ، وأن يسارع عملية تغيير هذه الأدراكات ، وأن يبادر احياناً إلى إحداث تغيير في الإدراكات . ويقوم الفن بكل ذلك من خلال التأكيد ، والتصلب والاستقامة ، والتكييف العاطفي ، والرؤية الومضية المتقطعة ، وكافة حيل وسائل الدعاية . والفن شديد التعصب ، وربما يجب أن يكون كذلك . وهكذا يعود إلى العمل كل تعالي المنطق ، وأنظمة المعتقدات . ولكننا لا نأبه أبدا ، تجاه ما إذا كان كل ذلك يسير في الاتجاه الصحيح أم لا ، كما لا نأبه أبدا للكيفية التي يتم تحديد صحة الاتجاه بها . وقد لا يكون هناك اتباع واسع النطاق في البداية لذلك الاتجاه ، أما إذا حصل هذا الإتباع في نهاية المطاف ، فإن التوجه يجب أن يكون صحيحاً عندها .

بالمطلق، والإنسان الذي لدية فكر ديني أكثر " كتب عليكم القتال، وهو كرهٌ لكم ". العجيب أنه كانت هناك ضغوط داخلية في حرب فيتنام في الستينات ولكن حجم مثل الضغوط تناقص بعد ذلك خلال السنوات الأخيرة في القرن العشرين: لقد أرسلت القيادة الأمريكية الأمريكيين وراء البحار، على الرغم من آلاف التصريحات التي كانت تنفي وجود ذلك الاحتمال، وإن مراجعة تطورات أزمة الخليج في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات توضح ازدياد حدة اللامبالاة من المواطن الأمريكي العادي تجاه السياسية الخارجية لحكومة بلاده . إنه يثق بالنظام ، أو أن النظام لا يعطيه فرصة ... أو أنه لا يهتم على قاعدة : " لا يهم، طالما ليس في بيتي !!.

ولكن هناك مشكلة طفيفة تتمثل في أن الفن بمفهومه الأوسع ، لا بد أن يكـون مثيراً ، وأسراً من ناحية عاطفية ، وبخلاف ذلك فلن يجد من يستمع إليه . وسـيبدأ تغيير محطات الإرسال . والآن يأتي هذا الاعتبار المهم جداً كي يؤثر على نوعية (مرآة) الفن ، فالكتاب لا يميلون إلى الكتابة عن أناس عـاديين ، مثـل الأدب ، الممل عن الجرار الزراعي في الاتحاد السوفييتي خلال أيامه الأولـى ، ولكنـهم يكتبون عن أناس ذوي تعقيدات عصبية مفرطة ، كما أن على الرسامين أن تكـون لديهم أساليب بمكن الحديث عنها والكتابة حولها ، كما ذكر (توم ولف) قبل وقـت طويل مضى . أما التلفاز ، فإنه يجب أن يكون طافحاً بالعنف وحوادث الموت لأن هذا هو الترقيم الدرامي الأكثر موثوقية * .

وإذا تمسكنا بمقولة أن الفن يطلق الإدراكات ويحولـها ، فـهل يمكـن لـهذه الإدراكات التي تقودها الأفلام التجارية مثل رامبو وسـواها أن تطلـق مدركاتـها

*** هناك أكثر من وسيلة لجعل العمل الفني (مثيراً)، حتى لو قصرنا الإثـارة علـى البعد العاطفي، مع أن الإثارة يمكن أن تكون عقلية بنفـس المسـتوى لمختلـف الفئات العمرية المتلقية للعمل الفني. إن برامج المسابقات تحظى بشعبية كبـيرة، حتى لو كان ذلك من أجل الجوائز. كذلك ، فإن المفارقة، أو الطرافـة، يمكـن أن تكون بديلاً للعنف، وتلقى قبولا واسعاً . ونلاحظ هنا أن دي . بونو الـذي وجـه سهام النقد إلى أنماط تفكيرنا التقليدية لأنها أهملت الدعابة والفكاهة والمفارقـة، قد تعمد إهمالها أيضاً، عندما بلغت الحاجة إليها ذروتها عند الحديـث عـن دور الفن. مع أن المفارقة قادرة على عبور وقطع النمـاذج بـدل توسـيع النمـاذج الموجودة .**

الخاصة بها أيضاً ؟ أم أن المدركات لا يطلقها إلا الفن الجيد فقط ؟ وان بإمكاننا استبعاد الفن المتبقي على انه قمامة لا تأثير لها ؟

وهل يكفي أن نقول إن المجتمع يمكن أن يسلم الإدراكات طائعاً إلى الجانب الفني فيه ، على حين يسيطر المنطق والعلوم والرياضيات على كل النواحي الأخرى؟

إنني أرد على ذلك بنفي قاطع ، رغم قبولي بالدور القيم للفن في مجال تطوير الإدراكات ، ذلك أن الفن قد يغير الإدراكات ولكنه لا يفعل شيئاً لتشجيع العادات الإدراكية القيمة .

فالاستقامة واليقينية اللتان سبقت الإشارة إليهما ، هما المقابل المعاكس للطبيعة الذاتية للادراكات ، ولإمكانية النظر إلى الأمور بطرق مختلفة . وربما نستطيع الاعتماد على الفن من أجل الإثراء الإدراكي ، ولكننا لا نستطيع الركون إليه من أجل خلق مهارات إدراكية . ولهذا السبب ، فإنني اعتقد أننا بحاجة إلى تعليم المهارات الإدراكية في المدارس مباشرة، وبخاصة من حيث الاتساع والتغيير.

ولا أريد أن أنكر قيمة الفن ، بأكثر مما فعلت مع العلوم والرياضيات ، ولكنني أريد أن أبين فعلاً أن هناك عيوباً خطيرة في بعض العادات والطرائق المقبولة لدينا من وجهة نظر إدراكية .

التفكير والذكاء

إن إحدى المشاكل التي تجابه عملية تصميم جهاز حاسوب مفكر بارع فعلاً يتميز عن الآلات الحاسبة المتطورة الموجودة ، هي أننا لن نؤمن بالنتائج والقرارات التي سوف يضعها مثل هذا الجهاز أمامنا، وينبغي أن يكون ذلك الحاسوب ذكيـاً إلـى درجة كافية لأن يدرك أن أولائك المحيطين به ليسوا بـارعين بدرجـة كافيـة ، ويحتاجون بالتالي لان توضح كل الخطوات الموصلة إلى النتائج أمامهم بشكل علني واضح * .

وفي ثقافتنا التفكيرية ، فإننا كنا دوماً ننظر إلى الذكاء بنفس الطريقـة التـي عاملت بها براعة الحاسوب المفكر الجديد . لقد كان الذكاء يعتبر كافياً دائماً ، فـإذا كنت ذا ذكاء مرتفع ، فإن كل شيء سوف يحدث في رأسك، وهذا زيف غير موفق ينطوي على عاقبتين خطيرتين في مجال التعليم : العاقبة الأولى هي أننا نعتقـد أن ليس هناك أية حاجة لعمل أي شيء لذوي الذكاء المرتفع فيما يتعلق بتفكيرهم ، أمـا العاقبة الأخرى فهي أننا نعتقد أن ذوي الذكاء الأقل لا يمكن عمل شـيء بالنسـبة

---

* هناك مشكلة أخرى قد تكون أكثر أهمية، وهي الشك والتشكيك في كل جديـد . ويعرف الذين يعملون في تسويق أفكار أو صناعات أو خدمات مبتكرة أنه كلمـا زادت حداثة ما يسوقون ، كلما واجهوا صعوبـات فـي تسـويقها . إن النـاس يشترون راحة بالهم مقابل نقودهم، وبالتالي يحجمون عـن المغـامرة – عندمـا تتطلب منهم استثمار أموالهم أو عقولهم في (صرعات) جديدة. وهكـذا ، فعلـى الحاسوب الذكي أن يزيل كل شكوك الناس الذين من المقدر له أن يتعامل معهم .

لهم*. ولذلك ، فإننا لم نزعج أنفسنا بعمل أي شيء تجاه تعليم التفكـــير إلا مؤخـــراً جداً.

ولسوء الحظ ، فإن كثيراً من ذوي الذكاء المرتفع يغدون مفكرين ضعافاً فـــي الواقع ، إنهم يقعون أسارى " مصيدة الذكاء" ذات النواحي المتعددة . وعلى ســـبيل المثال ، فإن شخصاً مرتفع الذكاء قد يتبنى وجهة نظر حيال موضوع ما . ويـــأخذ بالدفاع عنها من خلال استخدام المقدمات المنطقية والإدراك ببراعة متناهية ، كلمـــا

***هذا الموقف هو نفس الموقف العام من الإبداع. إنه يحدث لأنه يحدث ولا دخـــل لنا فيه. وهذا هو موقفنا . وهذا الموقف السلبي يزيد من ثمـــن الفواتـــير التـــي تدفعها الدول للعلاج النفسي لكثير من «الأذكياء» أو القادرين على الإبداع . فكم من مبدع يتجول في حديقة مشفى أمراض نفسية، بدل أن يقبع في مختـــبره . ومـــن سوء الطالع . أن المؤسسات التي تتشدق كثيراً بأهمية الإنسان، وبكونه محـــور التنمية المستدامة وغايتها ، لا تستثمر الكثير في عقل هذا الإنسان . هكذا، وكـــان المطلوب هو الوصول إلى عالم من أبطال الكمال الجسماني دون إعطاء العقل مـــا يستحق . ويكفي أن نشير هنا، إلى التركيبة الحكومية في دول العالم، إن كثـــيراً من النشاطات لها وزارة، والتفكير والعقل ليس لهما مكان . وحتى عندما تتطلـــب الضغوط البرلمانية أو الشخصية وضع شخص ما في الوزارة ، فإنه يتـــم تعينـــه وزيراً بلا وزارة !! فهل الصحة أهم من التفكير ؟ وهل الصادرات الخارجية أهـــم من العقل ؟ وهل العمل الإستراتيجي المســـتقبلي يمكـــن أن يوكـــل إلـــى وزارات التخطيط ، إن الأسم نفسه التخطيط يوحي بالاعتماد على الأنظمة الخطية وليـــس العقلية .**

قل تحسنت قدرة شخص ما في الدفاع عن وجهة نظر ما ، كلما قل ميـل ذلك الشخص فعلاً إلى استطلاع كنه الموضوع . وهكذا ، فإن ذوي الذكاء المرتفع يمكن أن يقعوا في مصيدة الذكاء ، * وفي شراك المنطق الذي يقول إنـك لا يمكـن أن تكون مصيباً اكثر من الصواب ضمن وجهة نظر واحدة . أما الشخص الأقل ذكاءً، فيكون أقل تيقناً من مدى صوابه ، ولذلك يأخذ راحته اكثر في استطلاع الموضـوع واستطلاع وجهات النظر المختلفة . إن ذا الذكاء المرتفع عادة ما ينمو وهو يحمـل شعوراً بذلك التفوق الفكري ، ويَحتاج لأن يراه الآخرون مصيباً وحاذقاً . ومثـل هذا الشخص أقل استعداد للمخاطرة بأفكار إبداعية وبناءة لأن مثل هذه الأفكار قـد تحتاج إلى وقت حتى تظهر قيمتها أو حتى تحظى بالقبول، وذوو الذكـاء المرتفـع غالبا ما تجذبهم سلبية المردود السريع ، وإذا هاجمت أفكار أو تفكير شخص آخـر بنفس الطريقة ، فإن الذكاء هو الإمكانية الكامنة لدى الدماغ، والطريقة التي يتم من خلالها وضع هذه الإمكانية موضع العمل هي مهارة التفكير. وقد تكون هناك أدمغة جبارة تستخدم بشكل سيء ، على حين تكون هناك أدمغة اكثر تواضعاً تقاد بشـكل جيد .

ومن المرجح أننا سوف نكون قادرين يوماً على قياس الذكاء بشـكل بسـيط باستخدام اختبار كيميائي ، بحقن مادة كيميائية موصوفة ، يتلوه تصوير للدماغ * .

---

* لهذا علاقة بالتفكير قصير المدى الذي سنعرض له لاحقاً .

* لنا أن نفكر في تصميم نظام كيميائي / كهربائي / مغناطيسي لا يكتفي بقيـاس مستوى الذكاء، ولكنه يؤدي إلى رفعه بعد عدة جلسات من المعالجـة .وبحيـث يصبح التخلف العقلي مرضاً عادياً يمكن الشفاء منه بسهولة . ألا نلاحظ أن العالم

إن الذكاء يمكن أن يكون ناشطاً عند نقاط محددة في الشبكة العصبية ، ومن المحتمل أن تحصل زيادة في سرعة التصوير ، لأن منطقة ما من النشاط سوف تكون أسرع من غيرها ، مما يسارع في نقل النشاط إلى المنطقة المجاورة بشكل أسرع من المعتاد . ومن المحتمل أن تكون التغذية الراجعة السلبية (كبح نموذج ما) اكثر قوة ، وبالتالي ، تزداد النقاط التي يمكن تحديدها بشكل حاد اكثر . إن هناك كثيراً من النقاط التي يمكن عندها تحسين الكفاءة الوظيفية للنموذج . وربما يكون الإنزيم (أو الخمائر) التي تعالج الترابط في الدماغ اكثر فاعلية ، بحيث يتم ربط الأشياء بسهولة أكبر ولا أنوي عند هذه المرحلة اتخاذ قرار محدد .

لقد شددنا في الماضي بشكل كبير على اختبارات معامل الذكاء لأنها تجعلنا نحصل على إنجاز فوري ، كما نحصل أيضاً على شعور مفيد بالتفوق . وبمصطلحات الفكر ، فإن الهجوم هو عمل سهل ورخيص (كما سنرى لاحقاً) لأن المهاجم يستطيع دائماً أن يختار الإطار المرجعي الذي يريد .

لا يزال يتعامل مع نتائج التخلف العقلي ، دون أن يحاول ابتداع طرق لاجتثاثه؟ إن أولوية ما يجب أن توضع لعلاج الأمراض العقلية بكل أنواعها، أما هذا الحياء المصطنع الذي يصل أحياناً حد تسمية المرض العقلي بالمرض النفسي فهو إلتفاف على الواقع في أحيان كثيرة .... ولا يؤدي إلاّ إلى مفاقمة وتدهور الوضع العام للحالة المرضية ، كل ذلك من أجل أغراض (إجتماعية) ليست ذات بال في نهاية الأمر .

إن الدماغ الذكي يعمل بسرعة * ، وبشكل أسرع مما ينبغي أحياناً ، وذو الذكاء المرتفع قد ينتقل بسرعة من الإشارات الأولية الأولى إلى نتيجة قد لا تكون بنفس جودة نتيجة أخرى يتم التوصل إليها بعقل يعمل ببطء اكبر ويكون مجبراً بالتالي على أخذ المزيد من الإشارات ، قبل أن يتقدم قدماً نحو النتيجة .

إن المال مفيد عندما تكون ترغب في شراء سيارة رياضية سريعة ، ويقال أيضا إن الجينات الوراثية مفيدة عندما تكون راغباً في أن تصبح ذكياً ، ولكن امتلاك سيارة رياضية سريعة لا يجعل منك سائقاً جيداً بشكل تلقائي ، بل قد تكون لديك سيارة جبارة تقاد بشكل سيء ، بينما قد يكون لدى شخص آخر سيارة متواضعة تقاد بشكل جيد . إن قوة محرك السيارة وهندستها توفر الإمكانية ، ولكن مهارة السائق هي التي تضع هذه الإمكانية الكامنة موضع العمل. إننا نميل دائماً إلى الأمان الذي يحدثه القياس حتى لو كان جوهر ما نقيس موضوع شك ، وبشكل أجمالي ، فإن اختبارات معامل الذكاء ترتبط بدرجة معقولة مع الأداء المدرسي

---

* **الذكاء مرتبط بالإذكاء ، بالومضة السريعة، والعقل مرتبط بالهدوء ؟**

† **ومن متناقضات عالمنا أيضاً، أن الجميع يشير إلى أن اختبارات الذكاء ليست معبرة عن القدرات العقلية للفرد، ومع ذلك لم يتم تطوير هذه الاختبارات حتى الآن. وعندما يكتشف مفكر ما مدى عجز هذه الاختبارات، فإنه (يغلف) الموضوع بالقول إنها مناسبة للحياة المدرسية . وغير مناسبة لمرحلة ما بعد المدرسة . كما هو حاصل مع دي . بونو ، وذلك بدل الاعلان عن الحقيقة الصارخة كما هي وهي أن لا اختبارات الذكاء ، ولا حياة المدرسة أو الجامعة متناسبة مع الفهم العلمي للقدرات العقلية . وعندما نجزم أن اختبارات الذكاء غير**

لسبب بسيط هو أن التفكير المدرسي يشبه إلى حد كبير الذكاء الذي تطلبه اختبارات معامل الذكاء (رد الفعل والتحليل) . ولكن هذه الاختبارات مؤشر ضعيف للنجاح في حياة ما بعد المدرسة ، حيث المطلوب هو نوع مختلف من التفكير . وعلى سبيل اليقين ، فإن هناك بعض المهن بوابات دخولها هي امتداد للنظام المدرسي ، وهنا تشكل اختبارات الذكاء مؤشراً جيداً للتوقع . وقد بدا (هاورد جاردنير) في جامعة هارفارد وغيره بدراسة مقولة الذكاء الفني ، وذلك من أجل التركيز على المجالات المختلفة للقدرات الموهوبة للفرد .

لقد كنت أعرّف الذكاء غالباً على أنه " مهارة التشغيل التي يعمل بها العقل اعتماداً على الخبرات السابقة ، ونحن بحاجة إلى تطوير مهارات تفكير تمكننا من

ملائمة لقياس القدرة العقلية ، ولكنها مع ذلك تناسب الأداء المدرسي ، فإن علينا أن نفكر عندها جدياً في مدى سلامة العلاقة بين القدرة العقلية والنظام المدرسي . إن محاولة الدفاع عن اختبارات الذكاء بهذا الشكل تؤخر إصلاح الإختبارات وتعطل إمكانية التفكير في المساس بالنظام المدرسي وتعديله .

إن التمكن من قياس القدرة العقلية كطاقة كامنة وسلوكية معاً، هو تحدٍ لابد من الإسراع في حله. لأن القول بالذكاء الموروث حسب اختبارات الذكاء التقليدية ، جاء متساوقاً مع بعض النزعات العرقية ، ولم يأت انسجاماً مع توجهات علمية . أما الحديث عن جينات الذكاء ، ومحاولة تعزيز دور العامل الوراثي (والعرقي)، فإن المفروض أن ينطلق من بدهية توفر هذه الجينات كطاقة كامنة لدى الجميع، كي ينتقل الحديث بعد ذلك عن امكانات هندستها وتحسينها حتى نحصل على إنسان عاقل ، وذكي .

الاستخدام الكامل للإمكانية التي توفرها الخبرة ، ولهذا السبب فقد انخرطت عميقاً في التعليم المباشر للتفكير في المدارس . ولقد وجدنا من خلال الخبرة العملية أن الطلاب الموهوبين (ذوي الذكاء الأعلى جداً) يحتاجون إلى مهارات التفكير لديهم ، تماماً مثل أي شخص آخر ، وأحياناً بشكل يزيد عن الآخرين ، وذلك من أجل التغلب على التعالي الطبيعي الذي يحدثه عندهم ذكاؤهم المعروف * .

---

* بل إننا نلاحظ أحياناً أن ترك الطلاب الأذكياء قد يكون أفضل لنا ولهم. افضل لنا لاقتطاع كلفة بعض البرامج غير المجدية، وأفضل لهم، لأننا لا نحترم تفوقهم . وكمثال، فقد اطلعت على دراسة عن تعليم الأطفال الموهوبين) منشورة سنة 1998، وعلى أهمية الدراسة (في الخلط بين الذكي Intelligenct ، وبين الموهوب Cifted ، وبين المتفوق Superior ، وبين العبقري Genius ، وبين المبدع Creative ،فقد استوقفتني سطورها التي تتحدث عن اختبارات القدرة اليدوية حيث تقول الدراسة " إن القدرة اليدوية لازمة لبعض المهن التي تتطلب مهارة، كما هو الحال في المطابع حيث يقوم العامل بجمع الحروف وصفّها بدقة وسرعة ". لقد ركزت على سنة نشر الدراسة (1998) لأن الدراسة مصفوفة على جهاز حاسوب، ومطبوعة على طريقة الأوفست، وليس الصف اليدوي. السنة مهمة هنا ، لأن 99 بالمئة من المطابع في العالم – المتقدم والنامي – كانت قد تخلت عن طريقة الطباعة بالصف اليدوي ، واستبدلته بالصف الضوئي . أي أن الأطفال الموهوبين الذين نركز على دراسة اختبار قدرتهم اليدوية، إنما نريد أن نفحص إمكانية تشغيلهم في المطابع الأكثر تخلفاً !!=

إن اليافعين الأعلى ذكاءً يفضلون غالباً تفكير رد الفعل ، وهم جيدون في حـــل الفوازير عندما توضع كل الأجزاء المكوِّنة لها على المائدة أمامهم . ويبدون أقـــل سعادة بالتفكير المبادر حيث يتعين عليهم جمع وتقييم العوامل التي ينبغي تمحيصـــها من أجل التوصل إلى نتائج ، كما ويبدون اقل سعادة بالمنظورية والتوازن وعمليـــة الحلول .

ومن الواضح أننا نستطيع تعريف الذكاء بحيث يعني كل شيء جيد ورائع فـــي التفكير. ولذلك على وجه التحديد . فإن أي شيء يقصر عن بلوغ ذلك لا يمكـــن أن يسمى ذكاء وهذا تعريف يقوم على الإدراك المتأخر للنتائج ، وبالتالي فهو غير مفيد تماماً في وصف عملية ما . إن هذا الاستخدام المحدد للذكاء ملائـــم اكـــثر كنعـــت لوصف التفكير الممتاز ، وبالتالي فإن السؤال يصبح : لماذا يؤدي امتلاك الذكـــاء أحياناً إلى نتيجة تقصر عن بلوغ السلوك الذكي ؟

إن الاستخدام الذي يبدو معقولاً اكثر لكلمة "الذكاء" هو تناوله كعملية ناجحـــة عن القدرة الذهنية وسرعة الدماغ ، والقدرة على الأداء الجيد في اختبارات الذكاء . وهذه الآن (عملية) وليست مجرد وصف لنتيجة .

ويمكن أن يكون الحال هو أن التوازنات الكيميائية الصرف التي تـــؤدي إلـــى الذكاء (خمائر أو مرسلات عصبية ...الخ) تؤدي أيضا إلى الحذر والجبن ، وإلـــى

=إن الحديث عن حاجة (الأذكياء) إلى تطوير مهاراتهم (التفكيرية والجســـدية) يجب أن يكون مرتبطاً برؤيا شمولية لما نريده مـــن هـــذا التطويـــر . لا بـــد أن نطورهم كي يعيشوا زمانهم، فقد "خلقوا لزمان غير زماننا " .

أنماط من الشخصية تحظر الاستخدام الناجح للذكاء الموجود . ومن الممكن أن تميز الذكاء موجه إلى التفكير ، والفعل وحل الفوازير اكثر من توجهه إلى التفكير المبادر الواسع حيث يجب أن تتدخل عوامل التحزير ووضع الأولويات ومن الممكن أن الذكاء وحده ليس كافياً إذا لم توجد مهارات تفكير محددة , بل ومن الممكن أن مجرد تميز الذكاء هو أمر عقيم بحد ذاته . إن طول الرجل يمكن أن يكون ميزة في بعض الأحيان ، عندما يطل من فوق رؤوس حشد من الناس ، ولكنه أمر سلبي في أحيان أخرى ، عند حفر حفرة مثلاً ، وكلما زاد مضاء نصل السكين كلما كان ذلك مفيداً اكثر عند استخدامها . ولكن ذلك يزيد من خطورتها أيضاً . وهكذا ، فإن من الممكن أن مجرد وجود الذكاء يسمح لنا بأن نلعب اللعبة الإدراكية بشكل ممتاز فعلاً ، وحيث أن هذه اللعبة فعالة ، فإننا عندها نلعب لعبة فعالة بشكل جيد ، وبالتالي فإن النتيجة لن تكون مواتية .

إن السلوك الطبيعي للإدراك هو أن يشكل نماذج قوية من أجل تذكرها بسرعة فيما بعد واستخدامها دون زيغ ، وكما أكدت مراراً ، فإن لهذه العملية قيمة أولية ولكنها تؤدي بعد ذلك إلى تغليف العالم بأسلوب قصري محدد وإن الدماغ الذي يستطيع بفضل كيميائية أن يلعب هذه اللعبة بتفوق ، سوف ينتهي به الأمر إلى ضعف إدراكي من حيث الأتساع ، والاستطلاع ورؤية الأمور من زوايا مختلفة * .

---

* **هذا صحيح تماماً في ظل عدم قدرتنا على ضبط أو حتى مراقبة الذكاء ، والإدراك . فإذا كنا عاجزين / حتى نهاية القرن العشرين / عن توصيف المفهومين ، ووضع معايير لهما، فإننا أكثر عجزاً عن التحكم فيهما . وهكذا، سيظل الطفل الذكي مصدراً للمتاعب ، ونفضل الطفل الخامل أحياناً عليه ، لأنه=**

إنَ الطفل الأكثر ذكاءً يتعلم في المدرسة كيف يلعب لعبة التوافق والانسجام : كيف ينجح في الامتحانات ،.وكيف يرضى المعلم ، وكيف يقوم بالعمل الضروري فقط وليس غيره .وهكذا يترك الإبداع إلى المتمردين الذين لا يجيدون

يبقي لنا على لحظات هدوء في المنزل.والمدرسة، كما أن الطفل ذا الميول الإدراكية الإيجابية سيظل أيضا مصدراً للمشاكل ، مع الجيران والبيئة .

لماذا الخوف من التمرد العقلي ؟ إنه خوف مؤسسة لا خوف مفكر . إن التمرد العقلي يؤدي إلى تمرد إقتصادي ، أو ديني، أو سياسي، أو إجتماعي. وليس الخوف من معاملة الأذكياء المتمردين كعصابة (أشرار) بل الخوف من أن يكون معظم (الأشرار) أذكياء؟ أما المفكر فإنه لا يخاف نفس الخوف من تمرد الذكاء أو حتى التمرد العقلي (الأكثر ديمومة ونضجاً) لأنه يعرف أن لا بد ما دوماً من التغيير، وأن هذا التغيير لا بد أن يقوده أشخاص رأوا ضرورته رأي العين. ومن ناحية أخرى، فلماذا لا نعتبر فكرة التفكير الجانبي تمرداً على الأساليب التقليدية في التفكير ؟

إن التمرد هو البديل الوحيد المتاح أمام الأذكياء، في عالم لا يريد أن يتفهم الذكاء والعقل. وحتى لو قصرنا البحث على النظام المدرسي أو الجامعي (التعليمي) عموماً، فسنجد أنه نظام يعاقب من يلتزمون به، ويكافئ الخارجين عليه. وهذه نقطة يتجاهلها الجميع – حتى دي.بونو وغيره من المفكرين .

إن الطفل الذي يلتزم بالقواعد الأساسية للعبة التعليم يصبح أولاً موضع سخرية زملاء وأقران أقل انضباطاً منه. وبالتالي نجده يفتعل المشاكل كي يثبت لأقرانه أنه لا يقل عنهم . هذا هو عقابه الأول من أقرانه . أما عقابه من المعلمين فواضح ، لأن المعلم المناوب في ساحة المدرسة ، لا يأبه بأسراب الطلاب في=

أداء اللعبة المناسبة (للنظام المدرسي) أو الذين لا يرغبون في أدائها لأنهم يعرفون أنهم لن يتفوقوا فيها . ولكننا إن استطعنا أن نفهم لغة الإبداع (كما في التفكير الجانبي)، فإننا قد نصل إلى مفارقة غريبة تجعل التوافقيين (من الطلاب) يصبحون أكثر إبداعاً من المتمردين ، بأن يصبح اداؤهم في اللعبة الجديدة أفضل مما هو عليه الآن.

وبالتالي فإن علينا أن نفلت من التقليد الذي يقول أن الذكاء وحده يكفي .

الساحة، بمثل ما ينتبه إلى شجار بين طالبين في زاوية ساحة ما . لقد أعطى المعلم (انتباهه) وهو مكافأة مهمة إلى إثنين من المتشاجرين ، وتغافل عن كل السلوك المنضبط لعشرات الطلبة . كذلك الحال في المنزل، فالأب والأم لا يعيران الأطفال أي اهتمام، طالما أن الأطفال يلعبون في غرفتهم بهدوء، ومتى يظفر الأطفال، باهتمام الأب أو الأم (ولو على شكل تأنيب)؟ إن ذلك يحصل فور أن يرتفع الصراخ أو الضوضاء من غرفة الأطفال إن النظام الأسري يعاقب الطفل المطيع بالإهمال، ويكافئ الطفل المتمرد بالإنفعال. هل يظل هناك فائدة كبيرة لكل الدراسات حول تعزيز السلوك الإيجابي للطلاب. سنعود إلى موضوع الخلل في علاقة انظمتنا مع الملتزمين بقوانينها في مجالات أخرى . لذلك كان الحديث عن ترك الأذكياء وشأنهم – حديث جد لا هزل.

الجامعات

كما يوحي اسمها ، فإن الجامعات تحاول أن تفعل الكثير، ولقد كان هنالك حين من الدهر كانت المعرفة الإنسانية فيه قليلة إلى حد يمكن دمجها كلها في جامعة، ولكن ذلك الزمان ولى منذ وقت بعيد .

إن الجامعات قد وجدت لتشجيع الاكتشاف المعرفي والأبحاث والتعليم ، والجامعة موئل الباحث الذي يتحرى عن جانب متخصص جداً من جوانب الحضارة، بحيث تتدعم الاستنتاجات التي يتوصل إليها ضمن النسيج الثقافي العام، ومثل هذا الباحث قد لا يجد مأوىً في أي مكان آخر غير الجامعة .

إن ناحية الكشف الثقافي هذه التي تقوم بها الجامعات تعني أن قسطاً وافراً من الموارد يتم قصره على أقسام التاريخ واللغة والأدب والفلسفة * . ولقد سبق لي أن

*** الجامعات ومؤسسات التعليم ترتبط في التفكير الإسلامي بسياسة تعليمية واضحة تقوم على تضيف للعلوم والمعارف على أساس شرعي قال الفقهاء : "واعلم أن تعلم العلم يكون فرض عين، وهو بقدر ما يحتاج إليه المتعلم لأمور دينه، وفرض كفاية وهو ما زاد عليه لنفع غيره، ومندوباً كالتبحر في علم الفقه، وحراماً كالسحر والتنجيم والموسيقى، ومكروهاً كأشعار الغزل والبطالة إلا لحاجات بلاغية، ومباحاً مثل ما لا سخف فيه من الشعر ".**

إن فروض العين المطلوب تعلمها يجمعها أصلان : معرفة حق الخالق، ومعرفة حق المخلوق على مقتضى الشريعة، وكل من اشتغل بشيء وجب عليه علمه بما فيه من حلال أو حرام . وقد اعتبر الفقهاء أن كل علم تحتاجه الأمة الإسلامية=

أشرت في صفحات سابقة إلى استحواذ التاريخ علينا ، والذي يشكل تحيزاً تاريخياً قدم إليها منذ ذلك الوقت الذي كان التاريخ فيه يستطيع أن يعلّمنا الكثير – أي خلال أيام النهضة الأوروبية، وهكذا أصبحت أقسام التاريخ منتجة وتجتذب طلاباً كثيرين، وأصبحت قوية بما يكفي لها لأن تدافع عن مكانتها. وربما يكون التاريخ أسهل مجال من المجالات التي يمكن الحصول منها على معرفة دراسية تلقى الكثير من التثمين، وفي الحقيقة، فإن كلمة بحث معرفي بحد ذاتها قد أصبحت مرادفة للوعي بالتاريخ وما يتعلق به .

هو فرض كفاية إذا لم يقم به بعض افرادها أثمت الأمة جميعاً. الأمر الذي يحتاج (مركزية ديمقراطية) قال صاحب كتاب تبيان المحارم (ص 524 من المرجع السابق) " وأما فرض الكفاية من العلم، فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب ، وعلوم الحديث، وأصول الصناعات من الحجامة والحياكة وحتى السياسة، وفي التطبيق العملي فإن في البترول وحده حوالي 80 صناعة كلها تحتاجها الأمة، ووجود هؤلاء المختصين فرض كفاية، وكذلك في الطب، ولو وجد على سطح الأرض دواء واحد لا يوجد بين المسلمين من يتقن صناعته لأثم كل المسلمين على ذلك. وكما يبين د. سعيد حوى، فإن ذلك بحاجة إلى إحصاء، وتخطيط، وتنفيذ، ينسجم مع الحاجات؛ ولا يؤدي إلى تضخم جانب على حساب جانب، أو إيجاد بطالة لمختصين لا حاجة لهم. وإذا أخذنا ما سبق بالحسبان، فإننا نخلص إلى أن الجامعة الإسلامية التي تبنى على هذه الأسس ستكون متميزة ليس عن الجامعات الغربية فحسب بل عن الجامعات الإسلامية الموجودة حالياً ، من حيث أنه لا يستحوذ فيها فرع معرفة على فرع آخر، ومن حيث ربطها باحتياجات المجتمع، بدل إن تطور (قلاعاً) أكاديمية خاصة بها.

وهناك أفراد من المجتمع لا يرغبون في أن يكونوا تقنيين ، فيأتي التاريخ أو اللغة أو الأدب لإعطائهم خلفية ثقافية عامة .

أن المزيد والمزيد من الطلبة في الولايات المتحدة ، قد أصبحوا يتجهون الآن لدراسة القانون والتجارة والإدارة لأنهم يرون أن هذه المعارف تشكل خلفية معرفية لهم في مجال النشاطات التجارية خلال حياتهم العملية بعد الدراسة .

أما في حقول الرياضيات والعلوم والطب والحقول التكنولوجية المختلفة، فإن التعليم الجامعي ما هو إلا تدريب مهني بدرجة أو بأخرى . وحيث أن المجتمع يحتاج هؤلاء الناس، فإن هذا التدريب لا بد أن يجري في مكان ما ، وهناك دول – مثل ألمانيا– أصبحت تقوم به في كليات جامعية فنية متخصصة ذات مراكز مرموقة.

وهكذا، فإن لدى الجامعات النواحي الثقافية، والنواحي المهنية وفيما يتعلق بالمجتمع ككل، فإن هذه النشاطات الجامعية على درجة عالية من الأهمية، ولكنها أيضاً تشكل مدعاة للسأم. وفي نهاية المطاف، فإن البحث هو الذي يسهم بشكل مباشر في خلق أفكار جديدة، وفي التقدم ، ولكن لا يوجد أي برهان حقيقي على أن الجامعات لا

---

[*] لا بد أن نذكر هنا بأن الفروق الفردية المعتبرة تربوياً ، لا تحول بين الإنسان وبين أن يتعلم تقنية ما، أو مهنة ما. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (أني لأرى الرجل فيعجبني، فأسأل هل له حرفة، فإن قيل لا سقط من عيني)، بل أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : (إن الله يحب العبد المحترف). كذلك، فكل نبي كانت له صنعة، كي يتعلم البشر أن تحصيل العلوم والمعارف النظرية، قد لا يغني في الحياة العملية، لمن يريد أن يكون عضواً ناجحاً في المجتمع .

تزال حتى الآن هي المكان الأمثل لإجراء الأبحاث. لقد جاءت معظم الأبحاث في الماضي من الجامعات، لأن الجامعات كانت هي المكان الوحيد الذي يجري فيه عمل الأبحاث ، أما عندما بدأت كبريات الشركات تقوم بأبحاثها الخاصة بها ، فقد أصبحت لدينا كمّ كبير من الأبحاث التي جاءت من هذه الشركات . وهناك باحثون ليست لديهم أية رغبة في أداء أعمال التعليم، بل إنهم قد لا يتقنون القيام به إطلاقاً. وقد تكون هناك حجة في إقامة معاهد بحثية محددة جداً، مثل معاهد الدراسات المتقدمة كمؤسسة برنيكتون مثلاً . ومن ناحية أخرى، فإن الجامعات تريد الاستقلالية لنفسها، لأنها تخشى أن تجبر على اتباع سياسة الحكومة إذا ظلت مجرد ذراع مباشر للحكومة، ذلك أن اتباع سياسة الحكومة يعني مزيداً من الحقن لاستخراج المزيد من مهندسي الالكترونيات، ولكن الاستقلالية أيضا قد تخلق ديمقراطية غير فعالة ولا مؤثرة *،ولو أن كل قسم دراسي له حق التصويت على إقامة أو عدم إقامة قسم جديد، فإن من غير الممكن خلق أقسام جديدة، ولعل جامعة كامبرج في بريطانيا خير مثال على ذلك ، فهناك تعترف الجامعة بالرياضيات على أنها موضوع يستحق الدراسة منذ سنة 1850 ، وعلى الرغم من ذلك فلا توجد فيها حتى الآن كلية تجارة !!

*** إن ما سبق عرضه عن التعليم المتخصص في الفكر الإسلامي يصل أيضاً إلى هذه النتيجة، وهي أن استقلالية الجامعات غير نافعة، ولن ينتج عنها إلا وجود مؤسسات تعليمية في واد، ووجود احتياجات مجتمعية في واد آخر. ومن أين ستأتي الجامعات بالأموال اللازمة لإعالة العاملين فيها ؟ إنها تأتي من المجتمع أولاً وأخيراً .**

إن حال الجامعات أشبه بحالة اختيار خلافة القاصد الرسولي البابوي أي أن من يتم تعيينهم من الجدد، يتم اختيارهم على هوى تصور القاصد الرسولي الموجود .

والجامعات كذلك مؤسسات بيروقراطيه صار الحفاظ فيها على التوجه القائم اكثر أهمية من كل ما عداه من أمور وللجامعات قواعد تاريخية منيعة ، ولعل هذا واحد من الأسباب الكثيرة التي جعلت التغيير قد آن أوانه من أجل تغيير التصور الموجود، وللتشريع في التعليم والبحث والاستمرار الثقافي .

إن الجامعات تقوم بعمل جيد، ولكن نفس المواد المخصصة لها لو انفقت في أبواب أخرى لأدت عملاً أكثر جودة ..

حتى لا يكون هذا كلام حق يراد به باطلاً، فإننا يجب أن ننبه إلى ضرورة زيادة الأموال المخصصة للتعليم (على مستوى الدولة) وللتدريب (على مستوى الشركات التجارية) وللبحث والتطوير (على مستوى الشركات الصناعية). وهناك مجالات إنفاق رسمية وخاصة في كل دول العالم يجب أن تصلها الاقتطاعات ، وسكين التخلص من الدهن الزائد، قبل الاجامعات .

بل المفروض أن يتم وضع أسس جديدة لموارد الجامعات، بحيث ينتقل تركيز هذه الموارد إلى تعليم التفكير، والاستثمار في الموارد العقلية، وليس في أنظمة المعلومات السلبية المقتصرة على الحفظ والاسترجاع. إن الجامعات ليست متاحف للماضي، بل هي مختبرات المستقبل، والمستقبل للجميع، وبالتالي لا مكان لمؤسسات منعزلة ، سواء في لغتها، أو في وسائل عملها . إن الاكاديميين مثلاً يعتزون بالرطانة الاكاديمية ، وكثيراً ما يشار إلى بحث ما، على أنه سلبي من حيث أن لغته لغة إعلامية !! هكذا، وكأن اللغة الإعلامية غير كافية كجسر=

لعبور الأفكار والمعلومات، مع أن هذه بالضبط هي وظيفة الإعلام. إن العالم الذي يحارب من أجل حرية وسهولة البضائع، يجب أن يحارب أيضا من أجل حرية وسهولة انتقال الافكار والمعلومات، من المؤسسات العلمية إلى كل من لهم علاقة بهذه الافكار أو المعلومات . وحسناً تفعل بعض الجامعات بتبني برامج الخدمة العامة والتعليم المستمر، ولكن هذه النشاطات يجب أن تكون (ضريبة) تدفعها الجامعات إلى مجتمعاتها المحلية، وليس العكس . أما من حيث محتوى التدريس فيكفي أن نشير إلى أن الجامعات التي يجب أن تكون أول من يعترف بهذا التسارع المذهل في التطورات العلمية والتقنية والفكرية ، تحاول احياناً تجميد معلومات طلابها سنوات طويلة، من خلال الإصرار على استخدام الكتب المرجعية Text books ، مع أن مقالاً في مجلة متخصصة قد يكون أوقع تأثيراً وأبلغ أثراً على التخصص المعني، من كتاب وضعه أحد المتخصصين قبل سنوات. إن المنهاج الجامعي، يجب أن يكون ديناميكياً متحركا يضم صور مقالات أو أبحاث حديثة ومقتطفات من كتب مرجعية وأشرطة مسموعة ومرئية ، وأقراص حاسوب...الخ، بعيداً عن (التعصب) للكتاب المقرر، وبعيداً عن حرمان الطالب من تصوير ما يحتاج من مواد بعض الكتب بحجة حماية حقوق الملكية الفكرية. وإضافة إلى ذلك ، فإن أساليب كتابة البحوث والدراسات يجب أن تتغير، ولا مانع من وضع معايير فنية وشكلية، ولكن التركيز يجب أن يكون على المحتوى ، وعلى إعطاء هامش أوسع لتعبير الباحث عن نفسه وأفكاره، فذات الباحث هي أيضاً جزء من الواقع الموضوعي لعملية التعليم .

الفصل الرابع

تطبيقات

أولا: قواعد اللعب

خذ شخصاً ذكياً، وعلّم ذلك الشخص قواعد لعبة محددة، ثم اطلب منه بعد ذلك أن يلعبها بشكل سيء، إن هذا سيكون سلوكاً سخيفاً، حيث أن الشخص الذكي سوف يرغب دوماً في أن يلعب اللعبة بشكل كامل وحسب نصوص قواعدها *، ولقد

---

* يأتي الالتزام بقواعد اللعبة من الرغبة في البقاء في الملعب أما إذا كان اللاعب لا يريد البقاء في الملعب، فإنه سيحاول الخروج على وعن قواعد اللعبة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، تماماً كما يحصل مع الطفل الذي يشعر بالملل من لعبة ما، إنه سيبدأ بالخروج على القواعد، إلى أن يتمرد عليها تماماً. إن الرغبة في البقاء في الملعب تضمن سطوة الأسرة على أطفالها، والجامعة على طلابها، والمؤسسة على أفرادها، والوزارة على وزرائها، والشركة على مدرائها، والمجتمع على مكوناته كلها. ويلاحظ القارئ أن دي.بونو لم يكن موفقاً في عرض هذه القضية المهمة، وإن كان مسلياً جداً.

إن قواعد اللعب تشمل أسس التفكير المنطقي والجدل الذي هاجمه دي .بونو لأن هذه تتم حسب القواعد المنصوص عليها والتي تحظى بالإجماع أو الأغلبية.

وبالتالي، فهي محددات تقف في وجه التفكير المبدع الذي يطمح دوماً إلى تحريك المياه الراكدة، ولو بإلقاء حجر فيها .=

اخترعت كلمة لودسي "Ludecy" من الكلمة اليونانية (أنا ألعب) كي تغطي معنى أداء لعبة معينة حسب الطريقة التي كتبت بها قواعد هذه اللعبة .

إن ما يقصد بأسواق الأسهم هو أن تعكس قيم الشركات المدرجة فيها، ولكن هنالك تأثيراً أكثر مباشرة على أسعار الأسواق يتمثل في مدى توجه الناس إلى الشراء والبيع. فإذا انتبهت إلى توجه زملائك (المشاركين في الأسواق) وتوقعت توجهاتهم، فإنك سوف تلعب بذكاء في السوق . وبمرور الوقت تصبح العملية لعبة بحد ذاتها

كذلك، فإن قواعد اللعب تعني بوضع الفرد تحت رقابة بيئته الخارجية، ولا تستطيع أن تخلق له معايير خاصة يحتكم في سلوكه إليها، وبخاصة في القضايا الأخلاقية ... إن كثيراً من الناس لا يأخذون رشوة، ولا يسرقون، ولا يأتون منكراً من الفعل لأنهم يخشون ما سيقوله الناس ، ويخافون رد فعل الناس. وهكذا يكثر المترددون الأذكياء تدريجياً إلى أن لا يعوّد بالإمكان التقدم قدماً من خلال التثوير ، ويصبح التطوير هو البديل الوحيد . أما الأديان، التي مر دي .بونو على موضوعها (مرور الكرام) ، فإنها تعني اصلاً بخلق المعيار الداخلي لدى الفرد بحيث يحتكم إليه ويحكم هو على أفعاله بناء على ذلك المعيار القوي ...القادر ليس على جعل هذا الفرد مستعداً للخروج من الملعب فحسب، بل وعلى انتقاد قواعد اللعبة، والخروج عليها. إن هذا الفرد (المؤمن) مستعد لأن يؤثر الموت على الحياة عند مفترق ما، لأن معياره الداخلي مختلف، وإذا كان المعيار شاملاً لكل أمور العمل والدين، ولكل شؤون الفرد وشجون المجتمع، فإن الإلتزام به يصبح شاملاً، وهذا ما يحصل مع الفكر الإسلامي تحديداً لأن فيه معايير شمولية للتجارة والسياسة والمعاملات والعبادات أيضاً.

مع تراجع قيم اسهم الشركات إلى الخلفية، رغم أنها تعود إلى واجهة المسرح بين فترة وأخرى كي تعقلّن بعض السلوكيات التي ربما تكون قد استندت إلى عوامل أخرى ، ولا مفر من حدوث هذه العملية، لأننا بعد مضي فترة ما سوف نتوقع توقعات زيادة قيم الاسهم، كي يأتي شخص آخر ويتوقع توقعاتنا حول التوقعات. إن اللاعب الداخل في اللعبة يعرف أن الارتفاعات المستمرة دوماً لا تحصل غالباً، ولكنه يستطيع جمع المال من التذبذبات .

وكل ما هو مطلوب هو الحصول على إشارة بدء متزامنة (ومن غير المهم أن تكون لها صلاحية) بحيث ينطلق عدد كاف من الناس لقيام بعمل ما معاً، وعندئذ يبدأ الناس ممن هم خارج اللعبة في الشراء، فإنك كشخص داخل اللعبة – تستطيع أن تبيع وتحقق أرباحاً . ولقد أوضح التاريخ أن أوساط الناس خارج الملعب تسمح باستغلالها على هذا النحو، لأن أعضاءها يتذكرون المناسبات التي تواصل فيها ارتفاع أرباحهم فترة من الوقت . إن الإشارات المتزامنة تشمل فيما تشمل رجهات نظر الخبراء حول أسعار الفائدة مثل هنري كوفمان، وكذلك بعض النشرات الإخبارية المحددة حول أسواق الأسهم .

أما المحامي فإنه يجمع المال من خلال لعبه لعبة القانون حسب القواعد المنصوص عليها لهذه اللعبة، ويشمل ذلك تسويات الطلاق، ودعاوي إساءة المعاشرة، رحقوق الانتاج، وقوانين الاستيلاء على الشركات ...الخ ، ولا يهم المحامي حقيقة كون تسويات سوء المعاشرة تؤدي إلى دفع أقساط الأطباء ، التي تعود على المريض إضافة إلى إجراء سلسلة من الفحوصات المرتبطة بذلك – وكلها تتم على حساب المريض، أما دعاوي الديون الباهظة فتعني أن أنواعاً معينة من النشاط (مثل

رياض الأطفال) يمكن أن لا تحظى بأي نوع من أنواع التأمين، وهذا أمر ليس من شأن المحامي أيضاً. فإذا كانت القواعد مكتوبة بشكل يمكن المحامي من الحصول على نسبته من التسوية ، فإن المحامي سوف يحاول جهده أن يتوصل إلى تسوية كبيرة، وهكذا فإذا لعبت اللعبة حسب قواعدها، فإنك تكون تجيد اللعب .

أما وكلاء العقارات فيريدون أن ترتفع أسعار العقارات إلى أقصى حد ممكن لأن عمولتهم تأتي على شكل نسبة من الثمن الإجمالي . وليس من شأن وكيل العقارات أن يؤدي ارتفاع الأسعار المذهل إلى جعل شراء عقار للمرة الأولى في العمر أمراً مستحيلاً .

كما أن التعليم ذاته شاهد آخر على "قواعد اللعب" حين توضع موضع العمل، فالتعليم يضع معايير واختبارات ثم يحكم على أدائها استناداً إلى هذه المعايير والاختبارات نفسها . فإذا كانت هذه لا تغطي ما ينبغي تعلمه فعلاً. فإن هذا الأمر سيء جداً لا لشيء إلاّ لأن احتياجات المعايير أو الاختبارات هي التي يجب أن تأتي أولاً .

وإذا كان منتج تلفزيوني ما يعرف أن العنف سيجعل برنامجه يحظى بالمشاهدة، فإن العنف يجب أن يدخل ذلك البرنامج .

واللعبة التي يلعبها المنتج لعبة بسيطة تقوم على أن برنامجه يجب أن يشاهد ، وإذا كان ارتفاع وتائر العنف ضارا بالمجتمع ، فإن هذا ليس من شأن المنتج ، بل هو شأن سواه .

كذلك رجل السياسة فهو يعرف اللعبة لمتي تؤدي إلى انتخابه ، كما إنه يعرف لعبة وسائل الإعلام التي تقوم على : كيف تكون موضوع ملاحظة النـــاس دون أن ترتكب زلة اجتماعية ، لأن زلة واحدة فقط كفيلة بتدمير المستقبل السياسي. وهكذا، فإن الجودة في لعب لعبة الانتخاب لا تعني جودة الاضطلاع بالحكم .

إن كل هذه قد تبدو أمثلة على الجشع والمصلحة الذاتية ، ولكنها ليست كذلك، فالجشع والمصلحة الذاتية يمكن السيطرة عليها بسهولة من خلال ضغط المجتمـــع ومجموعة الأقران ، ولكن السابقة هي أمثلة على " قواعد اللعـــب" ، فـــإذا كـــانت القواعد مكتوبة بطريقة ما ، فإنك ستكون غبياً إذا لم تتبـــع هـــذه القواعـد ، وإذا أحجمت ، فإن الآخرين لن يحجموا . ولو أنك كنت محاميـــاً ولـــم تبـــذل جـــهدك للوصول إلى تسوية ذات قيمة كبيرة ، فإن زبائنك سوف يذهبـــون إلـــى محـــامين آخرين ، ولو انك كوكيل عقاري لا تقترح أسعاراً مرتفعة للعقارات فـــإن الباعـــة سوف يذهبون إلى وكلاء غيرك يقترحون عليهم أسعاراً لا تستثمر إلا على أســـاس القيمة الحقيقية ، وليس حسب توجيهات السوق . فإنك سوف تتخلف عـــن الركـــب كثيراً .

ومن اللافت للنظر أن "قواعد " الأديان تنجح تحديداً في التغلب على الأنانيـــة والجشع ، ذلك أن الدين يضع قواعد (لعبة) أخرى تختلف عن قواعد المصلحـــة الذاتية العاجلة . وكلما طبق الناس قواعد هذه اللعبة بشكل افضل ، كلما اســتطاعوا التغلب على الجشع والأنانية لصالح الفوز الآجـــل ، وتقديـــر الـــذات ، والقبـــول الاجتماعي .

إن قواعد اللعب تشكل معضلة حقيقية ، لأنك لا تستطيع أن تلوم الناس الأذكياء إذا أدوا اللعبة طبقاً لقواعدها المنصوص عليها *.

لقد تجاهل دي بونو مسألة على غاية في الأهمية : إن قواعد اللعب الوضعية، تعاقب الملتزمين بها وتكافئ الخارجين عليها ، أما القواعد الدينية فلا يمكن إلا أن تكافئ الملتزمين بها / إن عاجلاً أم آجلاً / ، ومن هنا يأتي الاطمئنان إليها ، والاستقرار عند ممارستها .

ولا يمانع الفكر الإسلامي ، من التعامل مع الحياة على أساس قوانين اللعب بل إن النص القرآني سبق دي بونو في ذلك بوقت طويل حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ – الأنعام –31 . وأيضاً : ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ العنكبوت =64 . وأيضاً " إنما الحياة الدنيا لعب ولهو " محمد –26. ويأتي التفصيل في الآية 20 من سورة الحديد : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . نلاحظ هنا أن استخدام (إنما) يأتي للحصر والتحديد ، وأين هي الأهداف الأخرى للحياة الدنيا بعيداً عن إطارات معاني هذه الكلمات والموجودة ؟ حتى الأمثلة التي جاء بها دي بونو من واقع أسواق الأسهم إنما يتضح فيها اللعب واللهو ، والزينة (تزيين عمليات البيع والشراء) ومكاثرة الأموال . ومن الواضح أن الحياة طالما اعتبرت لعباً ، فلا بد لها من قوانين تحتكم إليها . والمشكلة مع هذه القوانين هي أنها محكومة باللعبة نفسها من حيث أنها قابلة للتغير السريع كما توضح نفس الآية الكريمة ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ . فأي مناهج التفكير يغلق الأبواب وأيها يفتحها ؟ هل

البقاء في دوامة اللعبة وقوانينها إلى أن تنتهي بفعل عوامـــل خارجيـــة (غيـــث) وأخرى داخلية (يهيج) ، إلى أن يأتي الإدراك البشري للواقع (فتراه مصفـــراً)، هو الحل الأمثل؟

في طرح دي بونو لا مجال أمام المفكر إلا أن يرفع يديه ، ويـــترك الذكـــي يؤدي اللعبة حسب قانونها كي لا يخسر ، وكي لا يخرج من الملعب . وفي النص القرآني ، فهو يدرك أن هذه القوانين ليست حدود العالم أو أن اللعبة ليس نهايـــة وغاية ذكائه . لان التغيير قد يأتي سريعاً ، بفعل عوامل خارجية بعيدة عن هـــذا النبات يهيج (عامل داخلي بعيد عن تأثيرنا) ، فتراه مصفـــراً (جـــاء هنـــا دور الإدراك البشري) الذي قد يتوقف عند شحوب اللون الأصفر علـــى انـــه نهايـــة اللعبة ، وقد يواصل حتى بعد أن يرى الحطام ، فيرى العقاب والمكافـــأة ، معـــاً . وعليه أن يختار بناء على تفكيره هو ما الذي يريده تماماً . لقد اتسعت قوانيـــن اللعبة الآن وأصبح الذكي قادراً على الإفلات من إسارها ، واثقاً من أن النتيجـــة النهائية ستكون لصالحه، فالعملية مستمرة وليس لها آنية قوانين اللعب المدركـــة من قبل الجميع فقط بل أن لها مكافآت أخرى . وان خياره الذي يتبناه قد يجعلـــه يكسب اللعبة العاجلة ، ويخسر الآجلة .

أليس في هذا دعوة واضحة إلى توسيع آفاق التفكير وعدم الخضوع لقوانيـــن اللعبة متى ثبت بطلانها ؟ .

النقطة المهمة في الاختلاف بين الضوابط الدينية ، وقوانين اللعـــب ، هـــي أن قوانين اللعب تعاقب الملتزمين بها ، أما الضوابط الدينية فلا تفعل ذلك كما أشـــرنا . ولسنا بحاجة إلى الكثير من الأمثلة ، ولكن نضيف على بعض الأمثلة التي سبق

أن طرحناها – في مجال عقاب المدرسة لطلابها ، والأسرة لأطفالها أمثلة أخرى من أنظمة حياتية عامة :

– سكرتيرتان في نفس الشركة : الأولى تطبع الأوراق بكفاءة عالية ، وبسرعة بالغة ، ودقة متناهية . إنها تتعامل مع عملها وجهازها وأدواتها بمنتهى الانضباط (الذاتي) والجدية . أما زميلتها الثانية ، فتطبع وهي تقضم شطيرة أو هي ترد على مكالمة من صديقة... الخ وفي كل يوم اثنين يطلب المدير من الأولى أن تفرغ نفسها لطباعة محاضر اجتماعات مجلس الإدارة ، ويعفي الثانية ، لأن طباعتها غير لائقة . أي أن أسلوب تفكير المدير يؤدي إلى مكافأة السكرتيرة الثانية (المهملة وغير الملتزمة بقواعد اللعب) ويؤدي إلى عقاب السكرتيرة الأولى (الملتزمة بقواعد اللعب) من خلال زيادة مهامها الوظيفية .

– في الدول –وبخاصة النامية منها – يتم السكوت عن معاناة آلاف الأفراد العاطلين عن العمل ، وتقوم الدنيا إذا فصلت صحيفة أو إذاعة عدداً من الصحافيين العاملين فيها لأغراض إعادة التنظيم أو الهيكلة . فما هو موقف النظام العام ؟ العاطلون عن العمل من (الأغلبية الصامتة) فلتؤجل مشكلتهم ، أما الصحافيون الخمسة فيتم الخضوع لابتزازهم ، وتحصل قضيتهم على تغطية إخبارية وسياسية واسعة لان لكل واحد منهم فماً واسعاً .

–في النظام السياسي الدولي العام ، نلاحظ أن الدول الخارجة عليه /كإسرائيل من حيث عدم الانضمام إلى معاهدة حظر الأسلحة النووية ، أو تحديد حدود ، أو وضع دستور ،أو إعادة (حقوق إنسان) فرد أو حقوق شعب آخر، لاقت مكافأة –

بل مكافآت – لا حصر لها .أما من لا يزال له حقوق / معنوية وأدبية في فلسطين المحتلة 1948 ، فلا ينتبه النظام الدولي العام لها كثيراً ، إلا عندما :

– يصعد عدد من الشباب الذين يحدثهم آباؤهم عن بيوتهم وبياراتهم التي لا يستطيعون الوصول إليها على متن طائرة ، ويأخذون من عليها رهائن . لنفكر في الأمر من زاوية غير تقليدية الآن : كيف يكون خاطف الطائرة أقوى من المسافرين عليها حتى لو كانوا بالمئات ، وحتى لو لم يكن سلاحه سوى مسدس دمية ؟ إن ركاب الطائرة (يثقون) بحماية النظام العام لهم ، ولذلك فهم غير مستعدين للاعتماد على طاقاتهم أو تفعيل إمكاناتهم .أما المتمرد فيعتقد بضعف النظام العام ، ويثق بقدرته على مواجهته.

–لقد وثق العرب مثلاً بالنظام الدولي العام سنة 1918 ، ولكن آمالهم خابت . ووثقوا بالنظام العام سنة 1948 ، وتكررت خيبة الأمل ، ووثقوا بالنظام سنة 1967 ، وزادت خيبة الأمل ، وهكذا , لا بد أن يأخذ شخص ما (أو جماعة) القانون بيديه حتى يقتنع النظام العام بضرورة الإصلاح .

إن الحديث هنا ليس حديثاً في السياسة ، ولكن في التفكير ، إن كل نظام عام – محلياً أم إقليمياً أم دولياً كان – لا بد أن يحتوي على قواعد لعب تفيد المتعاقدين الداخلين فيه ، بحيث يكافئ الملتزمين به ، ويعاقب الخارجين عليه . ولكن هل نترك الإطار العقلي المرجعي العام إلى قوانين اللعب المؤقتة ؟ أم لا بد من وضع قواعد اكثر نزاهة ؟ ويظل السؤال : من أين نأتي بهذه القواعد – طالما لا يوجد أحد مستقل ، فلكل إنسان أو جماعة مصلحة تجعله غير محايد ! ليس من الصدفة أن تتساوى المصلحة الذاتية مع الاهتمام في اللغة الإنجليزية

(Interest)، فهذه المفارقة اللغوية البسيطة توضح كيف أن الاهتمام الذي يســرع عملية خلق المدركات والمعتقدات مرتبط بالمصلحة الذاتية

إن الفكر الإسلامي يحل هذه المشكلة ، وله في ذلك قوانين وآفاق ، تنبع من رؤية شمولية . فهل هناك إطار عقلي مرجعي وضعي آخر يمكن الدخول معه فـي حوار ؟

في الحياة المادية (العلمية أو العملية) يطالب العالم المفكر المسلم بأن يبين لهم البديل الإسلامي (في المصارف ، وشركات التامين ، حتى عروض الأزياء) ، أما في مجالات التفكير والحياة العقلية فيجب علـى المفكـر المسـلم أن يطـالب الآخرين ببدائلهم .

ثانيا:- التفكير قصير المدى

توجد في الولايات المتحدة تقارير فصلية تحليلية حول أسعار الأسهم ، فإذا انخفضت مؤشرات اسهم شركتك في هذه التقارير فإن الناس سوف يقبلون على بيع أسهمها ، مما يؤدي إلى مزيد من الانخفاض في أسعارها إلى أن تصبح شركتك هدفاً للاستيلاء عليها * . أما في اليابان ، فإن حامل الأسهم يأتي في المرتبة

---

* هنا تأتي أهمية التاريخ التي طالما حاول دي . بونو أن ينكرها . ولكنه التاريخ الموضوعي الذي يتعامل مع الوقائع . فتاريخ الشركة المعنية أو المستهدفة قد يسهم في حمايتها ، حتى في ظل أجواء الذعر (Panic) التي قد تبستعر أحياناً في أسواق الأسهم والسندات. وهنا يأتي أيضاً دور الدعاية والإعلام الإعلاني المحترف. إن قرارات حملة الأسهم حول البيع والشراء، لا تأتي على هذه الرتابة التفكيرية التي يتحدث عنها دي . بونو . وهناك أكثر من عامل - غير النشرات الإخبارية وإضافة لها تتظافر معاً كي تقرّر وضع شركة ما . ولا نستطيع الأخذ بما يقوله دي . بونو إلاّ في حالة توفر دراسات حالة لكل شركة تهاوت أسهمها نتيجة " انخفاض " اسهمها في النشرات الإخبارية . بل إن السؤال الأكثر أهمية : هل يأتي هذا الانخفاض خارج حدود تفكيرنا مثل الانخفاض في درجات حرارة الجو ؟ أم بعيداً عن تأثيرنا كما يحصل الابداع ؟ إن لدى المؤشرات المختلفة مصداقية ما - ولا نقول صدقاً ما - لأهداف تجارية واضحة ـ وهي استمرار اعتقاد الناس بها . وبالتالي ، فعندما تنخفض مؤشرات أسهم شركة ما ، فإن ذلك يكون مرتبطاً أولاً بوضعها الداخلي . إن المدير القادر على إدار عقله ومؤسسته ، يجب أن ينظر داخل مؤسسته إذا واجه مثل هذا الموقف بدل أن يقف ليهاجم=

الأخيرة ، فهناك الشركة أولاً ، ثم العاملون ، ثم المستهلكون ثم المصارف ، وأخيراً يأتي حملة الأسهم . وفي الولايات المتحدة يتنقل المدراء بين الشركات ، وعند انضمامه إلى شركة ما ، فإن المدير لا بد أن يظهر حركة من حوله ، وبسرعة يدخل المدير (مجال العمل) وتبدأ نتائج حركته في الظهور ، إن قلة الحركة في اليابان تعني بقاء المدير في المكان حتى يرى نتائج عمله على حين أن المدير في الولايات المتحدة ينبغي عليه أن يبحث عن نتائج سريعة وعن تحركات تعزز أسعار أسهم الشركة بسرعة . أما الاستثمارات الأبعد مدىً فهي اكثر صعوبة بكثير.

لقد سبق لي أن قابلت عدداً من كبار رجال السياسة وأعضاء مجلس الشيوخ في واشنطن ، حيث وجدت أن هناك إطاراً زمنياً معقولاً بالنسبة لرجال السياسة يتراوح بين ستة أشهر وسنة واحدة . وبعد ذلك قابلت . بعض أبرز رجال الصحافة ودهشت لأنني وجدت أن الإطار الزمني للصحفي هو بحدود اليوم الواحد فقط ،

المؤشرات . لأن هجومه لن يفيد مؤسسته. ومن الطبيعي ، أن ليس هناك مطاعيم جاهزة للوقاية من الإنخفاض الحاد في أسعار الأسهم إذا حصل بشكل مفاجيء، ولكن معظم عمليات الإنخفاض تأتي نتيجة تردّي أوضاع الشركة المعنية قبل ظهور ذلك على مؤشرات الأسهم بوقت طويل. إن المؤشرات هي لحظة إعلان النتائج، أما الأداء فهو جهد سنوات. ومع ذلك، فليس الانخفاض كارثة أو شراً من كل نواحيه. إن شخصاً ما يمكن أن يشتري أسهمه بأسعار أعلى ، ويمكن أن تكون أيام الانخفاض فرصة لإعادة هيكلة المؤسسة بما يفيدها على المدى البعيد . وباختصار ، فليست المشكلة مشكلة إدارة فقط.

وان ما يحدث اليوم – بالنسبة لهم – يجب أن يُنظر إليه على انه الأمر ذو الأولوية الأولى .

أما المستقبل ، فإنه لا يمكن أن يأتي إلا يوماً إثر يوم . وهذا موقف معقول جداً، وليس سوى مثال جديد على " قواعد اللعب " ، ذلك أنك إذا جلست لتكتب قصة خبر ما كما ينبغي على الصحفي أن يفعل ، فإنك لا تستطيع أن تقول إن ما يجري اليوم ليس سوى زوبعة في فنجان ،أو أن ما يجري ليس بكثير ، بل يتعيـــن عليــك أن تظهر أن ما يحدث اليوم هو أمر ذو مغزىً بارز جداً ، وعليك بعد ذلك أن تحمـــل القارئ معك إلى حيث تريد *

في استراليا تجري الانتخابات البرلمانية مرة كل ثلاث سنوات ، الأمر الـــذي يعني في أحسن الأحوال أن تكون هناك سنة للاستقرار ، وسنة لممارســة الحكــم

---

* ولكن هذا عيب مهني وعدم موضوعية ، لأن الموضوعية تعني " النقــل غــير المشوّه للخبر "، وقد أصبح من المتعارف عليه أن كلمات مثل " أقوى ، أفضــل، أحسن، أسوأ، أول، أعظم " وغيرها من كلمات التفضيل لم تعد مناسبة لنقل الخبر، فالخبر (جسم) يجب تركه يتحدث عن نفسه . وعلى حين أن التوجهات الإعلاميــة المعاصرة لا تنكر على الإعلان حقه في إبداء الرأي، ولكن في مكان آخر غـــير مكان نقل الخبر . والقاعدة الذهبية هنا هي أن " الخبر مقدس ، والتعليق حــرّ" . وإذا استطاع الصحفي أن يلتقط منحىً أو مغزى معيناً من حــدث يبـدو للنــاس بسيطاً، فإن عليه أن ينقل الخبر كما هو، ثم يقدم استشرافه الشخصي أو المــهني أو السياسي للحدث ولكن ما العمل عندما تشح الأخبار ؟

فعلياً ، وسنة ثالثة للتحضير للانتخابات التالية * . وبسبب حاجتهم إلى إعادة انتخابهم ، فإن الساسة لا بد أن يكونوا ذوي آفاق قصيرة المدى جداً . أما القيام بعمل ما غير شعبي نتيجة القناعة بأنه سيكون مفيداً في المستقبل ، فهو عمل لا يبدو معقولاً ، وربما ينسى الجميع لك هذا الفضل . ومن حسن الحظ أن مثل هذه المشكلة يمكن حلها من خلال ظهور التيارات الدارجة ، وعلى سبيل المثال ، فإن البيئة تشكل موضوع تفكير بعيد المدى ، ولا يوجد ساسة يمكن أن يخاطروا بالتوازن بين مصالح البيئة في مواجهة المصالح العاجلة للتطور الصناعي ، أما وقد أصبحت البيئة (موضة) دارجة ، أو توجهاً جارياً ، أو شيئاً جيداً ، فإن التصويت للبيئة صار يبدو معقولاً على المدى القصير أيضا * .

- **وماذا لو كانت هناك سنة للانتخابات ، وسنة للراحة ، وسنة ثالثة للتحضير للانتخابات؟**

*** هذا القول يفترض أن السياسي هو صانع سياسة أيضاً. ولكن العالم لم يشهد إلاّ القليل من الحالات التي كان السياسي يستطيع فيها أن يصبح صانع سياسة . أما في الأحوال العادية، فإن السياسي (موظف) عند حزب أو تكتل أو تيار قادر في معظم الأحوال أن يضعه أو يرفعه . ومثل هذا السياسي يجب أن يتقيد بالقواعد (الآنية) الصارمة للعبة ، وعليه أن يتجنب اتخاذ قرارات لا تحظى بالشعبية ، إلاّ في المسائل التي لا تحظى باهتمام عام، أو التي يمكنه أن يتخذ فيها موقفاً إستناداً إلى تفويض حزبه، أو ثقته به . إن هذا العجز لدى معظم الموظفين السياسيين يعتبر من إحدى نقاط ضعف الديمقراطية ، الأمر الذي سنعرض له لاحقاً . ولكننا نتوقف هنا مع المهني – أي مع السياسي الموظف – الذي يمكنه أن يركن إلى التيار الذي أوصله إلى سدة الزعامة ، ويمكنه إذا كان تفكيره مستقبلياً منذ=**

إن هنالك تداخلاً واضحاً بين التفكير قصير المدى وبين " قواعد اللعـــب " ، فإذا كانت قواعد لعبة ما تتطلب تفكيراً قصير المدى ، فإن تطبيــق هـذه القواعـد سوف يضمن وجود تفكير هذا التفكير القصير المدى .

=لحظة انطلاقه – أن يخطط بحيث يصبح هو داعم الحزب والتيار الذي يمثلـــه . ألم تكن شخصية جمال عبد الناصر تسبق التيار ؟ ألم يكن غاندي يشـــكل دعمـاً لحزب المؤتمر الهندي ، ربما أكثر مما كان الحزب يدعم غاندي ؟ والأمثلة كثيرة. وإذا كانت تلك الزعامات التاريخية قد وجدت في الماضي بالصدفة ، فإن النظــام العقلي الجديد ، يجب أن لا يركن إلى الصدفة وحدها ، بل ينبغي أن يلتقط صنـــاع السياسة منذ نعومه أظفارهم باختبارات تختلف عن اختبارات الذكاء التي لا نـــزال نقف عندها منذ الخمسينات ، ونصفق لأنفسنا طويلاً إذا عدلّنا أحدها ، وعممنـــاه على مدارسنا . إن كليات العلوم السياسية في الجامعات ، مثلـــها مثـــل= أقســام الآداب وكلياتها، قد تساعد على إيجاد ناقد أدبي ، ولكنها لا تخلق أديباً. وحيث أن موضوع السياسة هو من المواضيع الخطيرة، فلا ينبغي تركها للصدفة ، إذا كنــا نخطط لحياة أفضل لأن السياسي قد لا يستطيع صياغة وبناء حيـــاة أفضــل فــي دولته، ولكنه قادر باقتراف أية حماقة على شطب هذه الدول من سجلات الأمم .

ثالثا: الاتصال والإعلام

من المرجح أن تكون اللغة هي العائق الأكثر أهمية أمــام التقــدم ، ومــن المحتمل أننا لا نستطيع أن نحرز المزيد من التقدم اكثر لا لشــيء إلا لأننــا قــد ارتطمنا بالجدار النهائي الأخير للغة * . ولقد تناولت فــي فصــل ســابق بعــض إختلالات اللغة إذا أخذناها كنظام تفكير ، وهي من هذه الناحية اكــثر فقــراً ممــا نفترض ، ولا نزال لا نميز بين الطلاقة وبين القيمة * .

---

* أين هي حدود التقدم التي سدتها اللغة حتى الآن في كل طروحات دي . بونــو؟ اعتقد أن قسطاً واقراً من أفكاره قد وصل إلى الناس ، ومن خــلال هــذا الجــدار اللغوي الصلد ؟ هل استخدم دي . بونو وسيلة أخرى غير اللغة ؟

* " أننا لا نزال نميز بين الطلاقة وبين القيمة " هذا جديث فكر يمكن المضي معــه قدماً في الحوار، وهذه الجملة العقلانية المعترضة ، يمكن أن تصلح بداية أخرى . لقد ضبط الفكر الإسلامي الطلاقة اللسانية كي لا تتحول إلى قوة مدمرة للعلاقــات الإنسانية ، وللفكر ، وللعمل ، وتالياً بعض الأمثلة مما يأتي به د. سعيد حوى في كتابه الإسلام ص 278 وما بعدها :–إن غير المسلم لا يقيد كلامــه قيــد ، فــتراه ثرثاراً كثير الكلام بعلم أو بغير علم، بتحقيق أو بغير تحقيــق ... ويجــادل بعلــم وبغير علم ، ولا يقصد في جداله إظهار الحق، بل غلبة المناقش .... ويقسو فــي تعبيره أحياناً، ويشتط أحياناً. ويتكلف الفصاحة ويكثر من التشدق والتقعر (أو مــا تسمى Jargon في الإنجليزية) ... يتكلم ولا يأبه أخطأ أو أصاب . أما المســلم فملتزم ألا يتكلم إلا بخير أو ليصمت . وان يحاسب نفسه قبل إلقاء الكــلام علــى عواهنه لأن " الرجل ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها فــي=

وبالنسبة إلى معظم الناس ، فإن الاتصال يتم عبر اللغة كناقل وسـطي مـن خلال الكتب والصحف والإذاعة والتلفزة والحديث والخطابات السياسية والمناقشات والتعليقات .

وهناك بعض الصحفيين العلميين الممتازين ، وكذلك الحـال بالنسـبة إلـى صحفيي الاقتصاد ، بل وحتى المعلقين السياسيين ولكن ما حصل هو أن نوعيـة الناس الذين ولجوا مجال الصحافة في الماضي لم تكن نوعية ممتازة جداً ، ذلك أن المبادرين كانوا منهمكين بمبادراتهم الاقتصادية ، وكان العلماء جد منشغلين كونـهم علماء ، ولم يكن أمام هؤلاء وقت يخصصونه للاتصال بالناس مباشرة ، مما جعل معظم عمليات الاتصال تتم عبر هذه النوعية

=نار جهنم سبعين خريفاً ، ويتجنب الجدل لأنه " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل. ولا يحب التشدق والتقعر لأن أبغض النـاس إلـى الله وأبعدهـم مجلساً من نبيه عليه السلام هم " الثرثارون المتفيقـهون المتشـدقون " وينـأى المسلم عن الكذب، بل " يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا " ... والمسـلم ملتزم بالتحري عن صحة كلامه ، وعدم إطلاق الأحكام جزافاً لأن النبـي عليـه السلام يقول : " أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار" ، وعلى المسلم أن يكـون واضحاً في كلامه لأنه لا يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كـان لبعضـهم فتنة . إلى هنا ، وتنتهي هذه المقتبسات من كلام سعيد حوى ، ويطول النقاش لو عرضنا إلى كافة الضوابط التي يضعها الإسلام على اللسان / ككلام /، والمقصـود أن في الفكر الإسلامي تمييزات واضحة بين الطلاقة و بين القيمة .

إن قوة الدعاية كانت ماثلة في كل هذه الأمثلة في قضايا خيرة , وفي بعض المجالات ، فإن وسائل الإعلام تصبح قوة تغيير وتجديد في المدركات ، وفي مجالات أخرى ، فإن وسائل الإعلام تعزز المدركات القديمة وفي كل الأحوال ، فإن القاعدة تظلّ تكمن في البحث عن أي شيء من شأنه الوصول إلى الصيغة الأكثر إثارة * .

---

*وما هي الإثارة؟ هل هي الإثارة الجنسية ؟ أم العاطفية ؟ أم السياسة ؟ أم " إثارة الحمية " أم الإثارة العقلية ؟ لقد كانت الدعوة الإسلامية مثيرة جداً !! وليس كل مثير سلبي لأن ليست كل (ثورة)سلبية . ونجد في القرآن الكريم إثارة لوجدان وعقل الإنسان كاملاً : لو توقف بجوارحه أمام وصف جهنم ، ألا ترتعد فرائصه كلها ؟ من العجيب أن كثيراً من المحافظين أو التقليديين لا يزالون يطالبون وسائل الإعلام بأن تكف عن الإثارة ... إنهم يقصدون الإثارة الجنسية أو العاطفية. ولكنهم يقعون في تعميم غير مقصود يودي بالرسالة التي يريدون إيصالها . إن أي نظام عقلي جديد لا بد أن يتميز بالإثارة وحشد المثيرات Stimulus المطلوبة لخلق إدراكات جديدة وللحدّ من الرتابة التي تفرضها الحياة الروتينية والبيروقراطية في كثير من المجتمعات . إن مكافحة التدخين ، والكحوليات والمخدرات و .... كلها مما يحتاج إلى إثارة عقلية وعاطفية محددة، بشكل يعتقد معه صانعو الإعلام أنه سيوصل المدمّن إلى إدراك ضرورة التوقف عن إساءة استخدام هذه المواد . يجب أن تكون المثيرات أقوى من عاداته ، حتى يبدأ بمراجعة هذه العادات . ومن حسن الحظ، أن طرح مدركات جديدة أيسر من محاولة تعزيز مدركات موجودة، مما يفتح الأبواب واسعة أمام المبدعين،=

=لتصميم أفكار جديدة، وتصميم وسائل جديدة لعرضها . والقاعدة الذهبية هنا هي أن لا تقفز عن مدارك جمهورك، ولكن أن لا تخضع لها أيضاً . يجب أن نصل إلى مرحلة نكف فيها عن الإقتتال حول الإثارة ، كي نصل إلى ضوابط قيمية أخرى.فإذا كان الجسد الإنساني هو المقصود بالإثارة ، فإننا يجب أن لا نكف عن الحوار حول اعتبار الإثارة الجسدية والجنسية نوعاً من التعدي على حقوق الإنسان ، ورقاً أبيض جديداً لا بد من محاربة كل أشكاله القائمة على استغلال جسم الإنسان ، وعندها يصبح عنوان الحوار هو وقف إساءة استعمال / استغلال جسم الإنسان .

على أن هناك قضايا أخرى لم يتوقف عندها دي. بونو في مجال محتوى الرسالة الأعلامية وقدرتها على تغيير المدارك، منها التوقف عن اعتبار حياه الإنسان مجرد صدف / مصادفات سعيدة أو شقية، بما يستلزمه ذلك من تغيير نصوص المواد المقروءة أو المسموعة أو المرئية ، أو منح الجوائز ... إذ من النادر أن تجد صحيفة أو إذاعة أو محطة تلفزة تخصص جوائز لأفضل نقد يوجه إليها ، وتجد في المقابل جوائز لا عدّ لها كل ما تقوم على الصدفة !!

كذلك هناك قضية المبالغة / أقوى، أبشع، أسوأ، أفضل / وغير ذلك من أفعال التفضيل، وصيغ المبالغة حتى في نقل الأخبار ، وقد سبق أن عرضنا لذلك، ونضيف هنا إن الوصف البياني هو أداة هائلة، ولكن حسن استخدامها يقوم على إعطاء الحرية للمتلقي كي يقررّ، أما المباشرة في الوصف فلا تفيد لأن الإنسان بطبعه لرفض الإملاءات والأحكام الجاهزة . وكمثال فإن كثيراً من الصحف لا تزال تستعمل صيغة الأمر في تعاملها مع القارئ : ما تسمع مذيعاً يقول : " إليكم هذا النبأ الهام " أو : " والآن مع طائفة من الأخبار الطريفة " من الذي قررّ نيابة عن

إن الحقيقة أنه لا توجد حقيقة في وسائل الإعلام ، ولا مناص من الوقوع في الجزئية أو الانتقائية . إن الإدراكات تأتي دائماً من وجهة نظر محددة .إن لقطة دموية على شاشة التلفاز ، تظل موضع إثارة دائماً رغم أنها قد لا تشكل إلا عينة بسيطة جداً من ا لمسرح الشامل للقضية التي قد تكون مختلفة تماماً ، وإذا جرح شخص ما ضمن حشد من الناس فإن كل عدسات التصوير سوف تنصب –ما أمكنها ذلك – على ذلك المصاب .

إن التذمر من الإدراك الجزئي هو تذمر مبرر ولكنه من غير المحتمل أن يغير أي شيء ... إنها طبيعة الوسط الناقل وطبيعة اللعبة .

وتستطيع وسائل الإعلام أن تطلق الإدراكات ، وهذه قوة سواء كانت للأفضل أم للأسوأ ، ولقد لعبت وسائل الإعلام دوراً هاماً في حملات كثيرة مثل : جودة المنتوجات ، والغذاء الصحي ، والتمارين ذات التأثير الصحي البارز ، وفي أثناء الحروب مثل حرب فيتنام وفي قضايا البيئة والحفاظ عليها ، وفي المواقف العنصرية والجنسوية ، وفي أخطار التدخين عبر وسائط ناقلة تعرف باسم " الصحفيين " بالمعنى الأوسع لهذه الكلمة

المتلقي أن هذا النبأ هام، أو أن هذه الأخبار طريفة ؟ يجب الحدّ من أشكال الديكتاتورية المباشرة (أو المكشوفة) في وسائل الأعلام معنىً ومبنىً .

*** في هذا الطرح إجحاف بحق الصحافة ورجال الإعلام عموما لأن الطرح يوحي بأن الصحافة هي مهنة من لا مهنة له ، أو أنها مهنة " الأقل حظاً " حياتياً أو مهنياً أو أكاديمياً . إن النجاح المهني صحافياً لا يشترط الملاءة العلمية من المادة التي تتعرض للنقل . إن الصحافة أشبه بجسر وسيط تعبر منه وعليه وسائط نقل**

إن المقدرة المجردة للصحفيين على استيعاب حقول معرفية مختلفة هي قدرة محدودة في العادة ، وهكذا فإنه يتعين عليهم أن يتكئوا على ثلاث أساسيات هي : الزاوية الإنسانية ، وزاوية التحليل البارع ، وزاوية الهجوم . وهنا يصبح الغرض الرئيسي ليس كشف موضوع ما ، بل تحقيق الإثارة الصحفية ، وتغدو اللعبة واضحة . إن لديمقراطية الإعلانات التجارية لعبتها الخاصة بها ، فكلما اتسع نطاق قراءة الموضوع ،أو ازدادت إمكانية مشاهدته ، كلما ارتفع معدل الإعلانات التجارية ،وهكذا يصبح البحث عن السوق الجماهيرية أمراً لا مندوحة عنه . كما

مختلفة ، ولا يشترط فيمن ينظم عملية النقل هذه أن يقود كل وسائط النقل بنفسه. ولا يصح أن نقول أن ضابط المرور هذا لو كانت لديه شاحنه يقودها على الجسر، لما وقف على الجسر ! أو أنه هناك لأنه لا يوجد سائق مستعد للوقوف مكانه . إن لكل دوره ، ومهمة الوسيط الناقل ، (إخبارياً) أن يتحرى الموضوعية كما= =سبق أن أشرنا ، ويجب أن يكون خبيراً بأساليب التغليق إذا أراد أن يتقن قواعد اللعبة . أما الكاتب أو المحلل الإقتصادي ، أو الإجتماعي ، فإن له وضعاً مختلفاً من حيث كونه خبيراً من جهة في مجال تخصصه ، وقادراً على أن يؤدي وظيفة الجسر . تماماً كما في عملية التعليم ، إذ تجد أحيانا معلماً مقتدراً متمكناً من تخصصه، ولكنه لا يستطيع إيصال المادة التعليمية إلى تلاميذه بشكل مناسب، وقد تجد من هم دونه في الكفاءة العلمية أكثر قدرة منه على التوصيل . إنها خيارات مهنية في مقابلة قدرات موجودة، قد تسير على أحسن وجه، وقد يعثر بها خلل ما في ناحية ما .

هذه ليست مشكلة الصحفي وحده، إنها مشكلة المنظومة القيمية للمجتمع كاملاً ، ونجدها في صناعة السينما مثلاً حين نرى منتجاً أو مخرجاً من عيار ما ، يصنع

أن الصدامية والجدل يظلان وبشكل فطري اكثر إثارة من الاتفاق ، مما يوجب تصعيد الخلافات والتأكيد عليها . أما الفضائح فهي ممتعة ، وبالتالي ، فإن الشخصانية تلعب دوراً اكبر من جوهر الموضوع .

إن كل هذه النقاط تضاف إلى محددات وسائل الإعلام في دائرة " الحقيقة ، فكما لا توجد حقيقة في مجال الإدراك، كذلك الحال في وسائل الإعلام.

فيلماً دون المستوى المتوقع منه مهنياً، وعندما تسأله عن سبب هذا التراجع، يتذرع بالقول : إن شباك التذاكر يتحكم في هذه الصناعة . كذلك الحال مع ناشري الكتب مثلاً، حيث تجد أن الكتب الأكثر مبيعاً في بعض الدول هي كتب السحر، أو كتب الجنس،أو حتى كتب الطهو، وتجد الناشر مضطراً أحياناً (لمسايرة)= =السوق، إذا وصل إلى مرحلة يعتقد عندها أنه على شفير الإفلاس ، إننا نجد مشكلة السوق الجماهيري في كل مهنة ، حتى في السياسة ، كما سبق أن أسلفنا عند الحديث عن التهرب من المواقف والقرارات التي قد لا تحظى بالشعبية . وهنا تصبح المسؤولية مشتركة من حيث السعي إلى تغيير المدركات ، والمعتقدات السائدة أحياناً .

رابعا: الديمقراطية

من الناحية النظرية ، فإن المجتمع لا يمتلك سوى القليل من وسائل الحماية في مواجهة سياسي لا يرغب في إعادة انتخابه ، أما في الممارسة العملية ، فإن هنالك غرور ذلك السياسي ، وهناك ضغط الحزب ، وهما يعملان على توفير الحماية من سياسي يفكر بشكل طويل المدى . إن السياسي يرغب في الخروج بوميض المجد ، على حين أن الحزب يرغب في الفوز بالمقعد المطلوب في الجولة التالية (من الانتخابات) * .

---

*هذا لأن الأصل في الأنظمة المعاصرة أن يسعى السياسي إلى طلب المنصب/ وبخاصة بعد أن صار العمل العام مرتبطاً بمنافع شخصية . أما في الفكر الإسلامي ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة والحرص عليها ، بل ومنعها عن طالبيها . وعن عبد الرحمن بن سمرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها "، وعنه صلى الله عليه وسلم " إنكم ستحرصون على الإمارة ، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها". ولا تشترط رفعة المنصب للإمارة ، بل إن كل عمل يشترك فيه ثلاثة أفراد بحاجة إلى أمير . في الفكر الإسلامي ، تغدو المشكلة مع الفرد الذي يعرض عن المنصب، أما في الديمقراطية المعاصرة، فإن المشكلة هي مع غير المؤهلين للمنصب . في الفكر الإسلامي: يدرك السياسي أن كل أفعاله مسجلة لحظها الناس أو غفلوا عنها، أما في الفكر المعاصر ، فالرقابة مناطة بعدسات التصوير ووسائل الأعلام. إن حرص السياسي المسلم عل

ومن المفترض أن للديمقراطية أربع قواعد تتمثل أولاها في اختيار شخص ما تثق به وتعتقد انه سيمثل آراءك وقيمك ، أما القاعدة الثانية فهي التهديد ، بأن ذلك الممثل إذا لم يخدم أهدافك ، فإنه لن يعاد انتخابه في الانتخابات التالية ، وتتمثل القاعدة الثالثة في الاعتقاد بان الجدل والمناقشة كفيلان باستطلاع الحاجات والإمكانات والحلول بشكل تام . وتتمثل القاعدة الرابعة في القبول بأن إجراء تعداد بسيط سوف يوفر أداة للحسم في آخر الأمر .

إن الاختلافات القاسية لعملية الاختبار لا يمكن جعلها محتملة في الواقع العملي إلا من خلال النظام الحزبي ، ومن خلال حقيقة انك تفضل " رجل حزبك " على "رجل الحزب الآخر " حتى لو كان الاثنان كلاهما أبعد ما يكون عن المثالية , وتأتي تعليقات وسائل الإعلام كي تعزز إلى حد كبير من السيطرة على سلوك السياسي فور أن يتولى زمام السلطة . بل إنه ليس من الضروري أن يقوم السياسي بعمل غبي ، بل يكفي أن يفعل أي شيء يمكن تأويله على أنه عمل غبي من قبل وسائل الإعلام المحلية منها أو العالمية . ومن المرجح أن شان الجدل والنقاش هو شأن ضئيل في هذه الحقبة من التاريخ ، ذلك أن القضايا (المطروحة) تتم الإشارة إليها بوضوح تام في كل مكان في وسائل الإعلام . أما الصفقات التي تتم داخل أروقة الجلسات وكذلك التسويات فهي جزء من عملية التفاوض الضرورية ، وعلى

=التفاف الناس من حوله وحبهم له، وما ينطوي عليه ذلك من دوافع تدفعه إلى خدمتهم ، إنما يأتي من اعتقاده بأن : الناس لا يلتقون على باطل ، وأن من أحبه الله، حبب إليه خلقه .

حين أن عد الرؤوس للاقتراع هو عمل فج وتبسيطي ، إلا انه يظل عملية حسابية يمكن الوثوق بها * .

ومن الواضح أن الغلبة في هذا التصميم كله تكمن في الخوف من فقدان الأفضلية، والذي يتفاقم نتيجة الخشية من مراقبة وسائل الإعلام † كما سبق لي أن أشرت .

*** طالما أن " عدّ الرؤوس " هو ركن أساسي من أركان الديمقراطية ، وعملية حسابية سهلة يمكن الوثوق بها، فإن السؤال هو : كيف يجب اختيار الرؤوس التي سوف تعد أصلاً ؟ وكيف الوصول إلى مقاعد التمثيل ؟ طالما أن العملية ستنتهي بعملية تعداد بسيطة، فإنها يجب أن تبدأ بعملية تعداد بسيطة ، بحيث يكون للفرد / أو العضو الواحد نسبة قوة النسبة التمثيلية ، لنفترض أننا أمام عملية انتخاب مجلس نيابي مكون من 100 عضو في دولة يبلغ عدد سكانها مليون نسمة، فإن القوة التمثيلية للمواطن الواحد $\frac{1}{10.000}$ ، من عشرة آلاف) . أي أن المستقبل لن يتحمل أية تحيزات غير حسابيه ، (طائفية أو إقليمية أو شخصانية أو مهنية)، يمكن أن تعطي إنسانا عضوا في جماعة طاقة تمثيلية أكثر من زميله في نفس الجماعة .**

† إن وسائل الأعلام ليست آلية مراقبة كافية، لأنها تخضع إلى عوامل الصدفة، وتقع تحت تأثير جماعات الضغط المختلفة . وإذا كان هناك حرص على المصلحة العامة، فإنه يجب أن تكون هناك حلقات استشارية ليس لها صفة وظيفية ، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وقد أرسل إليه عمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدي : " قد وجهّت إليك ألفي رجل ... فشاورهما في الحرب، ولا=

إن صناعة الأعداء أسهل بكثير من صناعة الأصدقاء ، وإذا أهملت صديقاً لك، فمن غير المحتمل أن يعبر هذا الصديق الخطوط ويتحول إلى عدو ، بل إن الصديق يظل على الجانب المؤيد لك ، ولكنه يصبح صديقاً ممتعضاً ، أو صديقاً عن بعد . أما العدو الذي تصنعه، فإنك تخسره بسرعة وفور أن تصنعه . وهكذا ، فإنك كرجل سياسة ، تحجم عن القيام بالأعمال التي قد تغضب الناس ، لان تحولاً نسبته خمسة بالمئة فقط في أصوات الناخبين يمكن أن يلقي بك خارج (اللعبة) في الانتخابات التالية . وهكذا ، فإنك لا تتفوه أو تفعل أي شيء قد يستعدي نسبة

=تولهما شيئاً " •إن وجود هيئات مراقبة واستشارة مستقلة غير ذات مصالح أو أرباح هي من الصمامات التي ينبغي للعقل البشري أن يتوسع في تصمم المزيد منها . وحتى يستقيم أمر الحوار، ويقوّم أود العلاقات بين الاتجاهات التفكيرية مستقبلاً، فلا بدّ أن يحترم كل منها الإطار المرجعي الفكري للطرف الآخر، وأن يتم التقيد بقواعد اللعبة النهائية ، فإذا كانت لعبة الديمقراطية لابد لها من دستور تحتكم إليه ، فإن الدول التي ليس لها دستور يجب أن تكون خارج تصنيف الديمقراطية [ظلّ العالم الغربي يعتبر إسرائيل ديمقراطية منذ سنة 1948، وعلى الرغم من عدم وجود دستور لها]. وإذا كان مطلوباً من المفكر المسلم أن يحترم دساتير الدول ، فإن هذا (مطب) ينطوي على مبدأ المعاملة بالمثل ضمناً، إذ من حق حملة الفكر الإسلامي أن يردوا خلافاتهم إلى الله والرسول وأن يذعنوا لدستورهم دون خشية من انتقاد أو لوم .

الخمسة بالمئة من الناخبين ، حتى لو كان الناخبون الآخرون يريدونك أن تنـول أو تفعل ذلك الشيء *

---

* هذا لأن المنصب أصبح هدفاً لذاته وملذاته . وعندما ينشغل السياسـي بفـارق الأصوات ، فإن تفكيره سيكون محدداً بها. إن النجاح في الانتخابـات ، وإعـادة الترشيح هي محددات تعيق الإبداع السياسي ، ولا يمكن كبحها ، إلاّ بالعودة إلـى الأسس التي يتم عليها اختيار الأشخاص وتنسيبهم لتولي القيادة . لننظر تالياً فـي نموذجين لاختيار القيادة، أحدهما إسلامي ، والآخر يهودي يردان في الآيـة 246 من سورة البقرة : " إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنى يكون لـه الملـك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكـم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليهم " ... لقد جاء التنسيب من نبي لقومه ، وقد تم رفض هذا التنسيب بسـبب أن الملـك الجديد فقير إلى الموارد المالية ، ولكن الله سبحانه رفض هذا التبرير على لسان نبيه، كي يعلمنا أن نضع المال والمقدرات المالية للسياسي جانباً عندما نرشـحه وننسبه ، وأن نأخذ في الحسبان العوامل التالية :

- إن الملك لله، والله يؤتي ملكه من يشاء . ولا مجال للتـذرع بوجـود "حـق" تاريخي أو طائفي...الخ
- إن العبرة في العلم والحكمة .
- إن التكوين البدني مهم جداً .

نلاحظ في هذه الأيام أن هناك توجهاً قوياً للاعتماد على شكل الوجه ، وحركـات الجسم كشروط للإقناع والتواصل مع الناس . وإن البسطة في الجسـم عمومـاً، وبسط الكفين أثناء الحديث ، كلها مما يعطي انطباعاً للمتلقي بالثقة. فـالدرس لا=

إن الديمقراطية هي طريقة ممتازة لضمان عدم إنجاز الكثير من العمل ، فهناك دوماً مصالح قد يتم سحقها ، وأية مبادرة جديدة تظل عرضة للهجوم عليها ما لم تكن قد جاءت رداً على أزمة ، كما لا يوجد أي سبب يدعو إلى افتراض أن التغييرات المطلوبة يمكن أن تحظى بالقبول الفوري داخل الإطار الراهن .

إن الأفراد ذوي القدرة القيادية والرؤيا يمكن أن يصلوا إلى السلطة بين فترة وأخرى ، ذلك أن السخط الشعبي يمكن أن يخلق ضغوطا لصالح تغيير ما لا يجرؤ السياسيون على مقاومتها ، وهناك أزمات لا بد من التجاوب معها ، وهكذا تحصل التغييرات ، إنها تحدث رغماً عن العملية الديمقراطية وليس بسببها . ويمكن أن يكون هذا ترتيباً معقولاً للأمور شريطة توفر الطاقة الكافية لإحداث تغيير يأتي من جهة ما * .

=يزال صالحاً، وليس المقصود بسعة الجسم القوة العضلية أو البدنية كما كان يظن ، بل الشكل العام الذي يوحي بالثقة والإطمئنان، أما الدعاية الانتخابية فينبغي أن تكون متاحة للجميع ، ولا ينبغي حرمان أي فرد من حق الطموح السياسي لمجرد أنه غير قادر على تمويل حملة انتخابية ما . إن هذه خطوة ضرورية ، إذا كنا نريد أن يحكمنا العقل في الأيام المقبلة، بدل أن تستمر سيطرة المال على كل شيء . فالمال يجب أن يسخّر للنشاط العقلي وليس العكس .

*** كيف يكون هذا ترتيباً معقولاً للأمور ولا مكان فيه للعقل ؟ إن سياسة ترك الأمور تحدث لا تتناسب مع إدارة الموارد العقلية ، بل لا بد أن نتدخل بعقولنا وتفكيرنا بشكل قصدي منهجي تجنباً لأية ثورات عمياء . إن ما يجري اليوم هو ضمان سيطرة أصحاب المال ، على نواحي الحياة الإنسانية والمطلوب أن نصمّم=**

وربما يكون علينا يوماً ما أن نقسم الديمقراطية إلى وظيفتين وظيفة تحكيم ووظيفة قيادة حيث تمثل مهمة التحكيم قيم الناخبين وأولوياتهم وتقيم ما تطرحه القيادة. أما وظيفة القيادة فسوف تتكون من أناس يتم انتخابهم على أسس المهارات والمؤهلات من اجل طرح الأفكار البناءة والتغييرات التي ربما لا يمكن أن تطرح من قبل هيئة تمثيلية فقط .

هذا وقد أصبح يوجد الآن تقاطع في وجهات النظر السياسية في معظم البلدان، حيث تتصرف حكومات عمالية في استراليا ورئيس اشتراكي في فرنسا بشكل يشبه المحافظين تماماً ، بل إننا سوف نشهد حدوث أمور معقولة لا بد من القيام بها مهما كانت نوعية الحزب الذي يشغل مواقع السلطة . وقد تكون هناك اختلافات طفيفة *

=نظاماً تفكيرياً غير هذه مثلاً، يمكن التفكير في تحرير وسائل الإعلام بأن لا تظل السيطرة عليها والسطوة فيها لرأس المال، أو للتعيينات الرسمية ، من خلال السماح بفترة انتقالية مثلاً يكون فيها من حق كل عشرة صحافيين إصدار مطبوعة لهم، دون شروط رأسمالية . إن العقل لا يعمل وحده ، ولكن المال لا يعمل وحده أيضاً ،.. هذا مفهوم، ولكن القيادة في التفكير يجب أن تعطى للعقل . كما يمكن التفكير في وسائل بديلة لتصميم الحملات الانتخابية بحيث لا تظل حكراً على من يستطيع أن يدفع . هذا إذا كنا نريد لفرص التفكير أن تتحسن .

*** لا توجد ضمانة لأن تكون اختلالات توزيع الموارد (طفيفة)، طالما أن انظمتنا التفكيرية الحالية مصممة لحل المشاكل فقط ، وليس لتجنب حدوث المشاكل ، إن تحسين الحياة لا يأتي من حل المشاكل فقط . أما سلوك هذا الحزب أو ذاك سلوكاً مغايراً لطروحاته أحياناً، فإنه يدل على براغماتية سياسية ذات قدرة عالية على=**

في توزيع الموارد على المجالات المختلفة من صحة وتعليم ودفاع وغيره ، ولكن اختلافات السياسة التي تفخمها الصحافة من أجل إحياء الاهتمام بالسياسة ، سوف ينظر إليها على أنها مبالغات زائفة.

=تخطي الحواجز، أو حتى على عقول قادرة على القفز عبر النماذج المستقّرة، وليست دليلاً أبداً على فقدان الشهية لحرارة الإختلافات السياسية . لا نريد الحديث بمصطلحات الستينات التي تعتبر السياسة هي البنية الفوقية مقابل الإقتصاد الذي يشكل البنية التحتية ، ولكن لا بد في المقابل من النظر إلى السياسية على أنها تعاقدات بين الأفراد والدول ، على تنفيذ عقود معينة . لا بد أن تكون هذه العقود عقلية كما هي مالية أيضاً . وإلاّ فإننا عندئذٍ نكون كمن يبحث عن سياسة بلا تفكير . إن حدة الصراعات السياسية الداخلية والخارجية قد تعبر أحياناً عن محاولة تكيف مع أوضاع داخلية أو دولية ، ولا ضير في أية عمليات من هذا النوع ، المهم أن توضع الضوابط الفكرية والعقلية اللازمة للعمل السياسي ، كانعكاس للقدرة العقلية للفرد والدولة .

خامساً: الذرائعية *

هناك شارع مشهور في أمستردام بهولندا ، تجلس فيه المومسات ليلاً داخل شرفات مضاءة جيداً بانتظار الزبائن ولقد علمت أن البغاء غير مشروع في هولندا، ولكن سلطات الضرائب هناك تتقاضى ضريبة دخل إضافية حسب تقديراتها لمداخيل المومسات .

إن للذرائعية صيتاً سيئاً † لأنها تبدو [illegible] " ولكن هذا غير مبدئي ، وبالتالي تعود إلى مشكلة حدة التقسيمات التي سبق لي البحث فيها في هذا

*** لقد استخدمنا كلمة الذرائعية كبديل لكلمة النفعية في ترجمة الكلمة الإنجليزية (Pragmatism) لأنها أقرب إلى توصيف المعنى من حيث أنها تشمل القدرة على الإحاطة بموضوع ما وتحمله والتعايش معه أو عدم القدرة على ذلك " سيء بهم وضاق بهم ذرعاً " كما أن الذراع يوحي بالإحاطة أو الوصول إلى الشيء أو إمكانية قياسه بين بدائل أخرى . كما توحي الكلمة باستخدام التبرير للقبول بأمر استثنائي ، يبدو القبول به غير مقبول في سياق التفكير المعتاد .**

† الذرائعية كسلوك عقلي لا هي سلبية ولا إيجابية ، وما ينبغي اتخاذ أي موقف منها ، إنما الموقف يتخذ من السلوك الناجم عنها ، ومدى تقبله ضمن أطر المرجعية العقلية السائدة. فالسلوك الذي تتخذه سلطات الضرائب الهولندية مثلاً غير مقبول إسلامياً ، والشيء بالشيء يذكر : فلماذا يعيبون موقف الإسلام من الجواري ، طالما يمكن أن تكون هناك جارية بالأجرة فترة محدودة؟ على الرغم من أن الموقف العقلي الذي نميل إليه هنا لأغراض هذا البحث أن تأجير أو شراء الإنسان مرفوض تماماً . إنما تعامل التفكير الإسلامي مع ظاهرة كانت موجودة –

الكتاب . إن الذرائعية لا تعني بالضرورة غياب المبادئ ، بل إنها يمكن أن تعني أيضاً رفض الإنجرار إلى عمل غير مجدٍ عملياً بسبب مبادئ قصرية .

ورغم أن كل حكومة وكل مؤسسة اكثر ذرائعية بكثير مما تعترف به ، إلا أن مفهوم الذرائعية لا يستهوينا . فهو يعني من أحد نواجيه سلوكاً رجراجاً وأن أي شيء يمكن أن يقبل ، إضافة إلى الفوضى، كما أن هذا المفهوم يتضمن من ناحية أخرى لي القوانين ، والمصلحة الذاتية والفساد .

وهناك عدد من الطرق الممكن انتهاجها في التعامل مع هذه المعضلة ، وإحدى هذه الطرق تتمثل في إحداث زيادة كبيرة في عدد المبادئ المتوفرة ، وإذا كان لدينا مدىً أكثر اتساعاً من المبادئ ، فإننا قد نجد أن مبدأ ما يمكن أن " ينسخ " مبدأ آخر * . وعلى سبيل المثال ، فإن مبدأ ما قد يجرنا إلى الحرب ، على حين أن

وقد توجد في أي زمان ومكان – مشذباً لها كي تخف ممارسات الإغتصاب الوحشية في الحروب ، ... وكفترة انتقالية في الحياة الإنسانية ، لأن الشارع الحكيم تعامل بالتدريج وبطول النفس مع كل الظواهر التي رفضها .

*** مرة أخرى نلاحظ أن نصوص التفكير الإسلامي كانت سباقة ليس من ناحية تقديم المدركات المعقدة بيسر وسهولة ، ولكن من حيث اكتشاف بل ووضع المعتقدات المناسبة ، ليس للمشاكل التي كانت موجودة وقت ظهور الإسلام ، بل وللمشاكل التي ستواجه التفكير الانساني لاحقاً.= =ولن نطيل البحث في مفهوم تعدد المبادئ الإرشادية ، و الناسخ أو المنسوخ : " ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " البقرة – 106 وكذلك : "فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته " الحج – 52. =**

مبدأ آخر يقوم على "التعقل في العمل " يمكن أن يحول دون نشوب الحرب . كذلك فإن مبدأ حرية التعبير (وقلة الرقابة) يمكن أن ينسخه فرض كلفة محددة على التعبير كضريبة بمقدار خمسة آلاف جنيه عن كل جثة (لقطة عنف) في البرامج التلفزيونية ، إن هنالك مبدأ المسؤولية الموجود الآن والذي يمكن له أن يؤدي هذا الدور إذا احسن استخدامه * .

=إن فكرة نسخ المبادئ ليست فكرة غريبة عن التفكير الإسلامي ، بل إنها عملية مبرمجة لها قوانين تحكمها : إذ يتم توفير كثرة من المبادئ الإرشادية العامة ، على أساس إتاحة الخيار ما بين ما هو مناسب وأكثر مناسبة من البدائل ، أما من حيث ما يلقي الشيطان / فلم يتم التعامل مع طروحات الشيطان على أساس نفيه بالجملة وقبل أن يلقيه ، بل إن العملية بحاجة إلى تفاعل حتى ينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته ، و (ثمّ) كما هو معروف تفيد التراخي الزمني ، بمعنى أن عمليات التفكير يجب أن تأخذ وقتها ضمن رؤية شمولية لما ستؤول إليه النتائج .

*** كحل فكري لمشاكل العنف : فإنه لا يمكن اعتبار فرض ضريبة على لقطات العنف بديلاً مبدئياً، لرفض السماح بالعنف ، مع السماح بعرضه . أما المسؤولية التي أوردها دي. بونو لاحقاً فهي بديل مبدئي فعلاً . ولكن علينا عند التخطيط العقلي للإعلام ، أن لا نتجاهل ضرورة تعبير الإعلام عن الأوضاع العامة ، إن العنف موجود في كل المجتمعات داخلياً وخارجياً . وهو موضوع مواقف مسبقة مقولبة ، وقضية يحاول كل طرف تحميل طرف آخر المسؤولية عنها . فالإسلاميون يشيرون إلى محاكم التفتيش،، واليهود إلى النازية والفلسطينيون إلى اليهود، والرأسماليون إلى الشيوعيين، وحركات التحرر إلى الاحتلال وهكذا .=**

إن مبدأ العدالة قد يؤدي إلى الإصرار على أن لصاً مداناً بجريمة يجب أن ينال حكماً متساويا مع لص آخر أدين بجريمة متشابهة ، ولكن مبدأ جديداً قد يضيف إلى ذلك عاملاً آخر هو مدى انتشار الجريمة ، فإذا كانت الإحصاءات تشير إلى أن شهراً ما (أو سنة ما) قد شهدت أحداث سرقة اكبر بكثير من شهر أو سنة أخرى سابقة فإنه يمكن تشديد العقوبة بشكل أكبر ، وقد يبدو هذا عملاً كريهاً . ولكن هل ينبغي أن يكون القانون عقداً مع المجرم ينص على الحصول على عقوبة محددة مقابل القيام بجريمة محددة ؟ *

=والحكومات تتهم وسائل الأعلام بالتحريض على العنف ، أما وسائل الأعلام فكأنها تنتقد الأداء الحكومي على استحياء في لعبة شد حبل لا تقتصر على دولة دون أخرى. إن العنف تجارة مثله مثل المخدرات . إنه إساءة استخدام مقدرات عقلية أو بدنية أو مالية ، ولكن الخطاب العلاجي هو خطاب عقلي لأن العنف يبدأ من التفكير ، ولا يوجد عنف يحدث هكذا بمحض الصدفة ، وبعيداً عن عقولنا وعن تفكيرنا .

*** مع التشديد على أن هذا (الحوار)ليس بحثاً في أي فرع من فروع المعرفة أو العلوم، وإنما هو بحث في التفكير الجديد خلال الألفية الثالثة ، من أجل تعديل بعض المفاهيم والتصورات ، وربما المعتقدات ، وصولاً إلى ما نعتقد أنه الأفضل للبشرية، إلاّ أننا لا بد أن نقف عند بعض العموميات. إن ظاهرة العقد بين المجرم والمؤسسة ، ظاهرة معروفة سماها المفكرون المسلمون ظاهرة العود – وهي أن يتلقى المجرم العقاب ، فيكرر فعلته ، لأنه سينال نفس العقاب . وبغض النظر عن الأسلوب المتبع حتى في علاج هذه الظاهرة – مثل تغليظ عقوبة الجريمة عند=**

وقد يكون من الذرائعية أن يعطي سجناء المدد الطويلة تعويضاً عند خروجهم من السجن بحيث لا يكون عليهم أن يعودوا إلى أساليبهم القديمة إن نزعة الارتداد إلى الإجرام هي نزعة عالية جداً من ناحية إحصائية , والمبدأ المعتاد لدينا الآن

=تكرارها. إلاّ أنه لا بد من الإشارة إلى أن تكرار العقوبة غير وارد في جرائم الحدود ... فالسارق تقطع يده في المرة الأولى، وما يقطع في المرة الثانية ليس نفس اليد، وإنما يد أخرى. وأما الحبس فليس عنصراً أساسياً في قوانين العقوبات الإسلامية ، فلا هو لجرائم القتل ، ولا الزنا ، ولا قطع الطريق ، إنما (باجتهاد) القاضي كعقوبة عن بعض الجرائم الثانوية . ولا مجال في الإسلام أصلاً لسجون مكتظة يمكن تشغيلها كمدارس إجرامية ..هنا ينطلق التفكير الإسلامي من موازنة حماية الفرد والجماعة والنظام بشكل صارم، لا يحتمل المجاملة ، ولا يسعى إلى الشعبية، ولا هوامش واسعة فيها أمام إجتهاد القضاة في الجرائم الخطيرة ، لأنه يركز على محاربة الفساد قبل وقوعه بكل مظاهر الإصلاح ، محاولاً تحقيق وتلبية الحاجات الدنيا (حسب مفهوم ما سلو لهرم الحاجات)، من طعام وجنس ومأوى لجميع رعاية الدولة الإسلامية ، ويواكب ذلك منظومة قيمية متكاملة تقلل عدد من يتعرضون إلى العقاب إلى أدنى حد، وتقلل من شعبيتهم هم إلى أدنى حدّ . وليكن مفهوماً أننا لا نطالب بعقوبات إسلامية ، بل نطالب بالتفكير الإسلامي أولاً، وبتطبيق هذا الفكر . أما العقوبات فليست أول هذا التفكير ، لأن الإسلام يتميز بالأخذ بالأيسر من الأمور ، ما لم يكن عليه حدّ مقررّ ... وعندما يصبح الزواج ميسوراً جداً ، وكذلك الطلاق ، فما معنى الزنا ؟ إن الرأي العام قد يتعاطف مع لص جائع ، ولكنه لا يمكن أن يتعاطف مع منظمة تحترف السرقة ... إلاّ عندما يكون هناك خلل كبير ، وعدم ثقة بالمؤسسة وقوانينها .

سوف يرتعد رعباً من فكرة مكافأة الخطيئة هذه . ولكن ما هو المبدأ الذي ينبغـــي أن يكون ؟ هل هو معاقبة الجريمة ؟ أو تخفيض نسبة الجرائم في المجتمع ؟

وهل ينبغي أن يكون لدينا مبادئ متراخية نلتزم بها بصرامة أم ينبغي أن يكون لدينا مبادئ صارمة نتعامل معها برخاوة ؟ إن مبدأ "احترام الآخرين " هو مبدأ رخو ولكن يمكن تطبيقه بصرامة كذلك الإخلاص هو مبدأ صارم ولكننا نطبقه برخـلوة ، وبخاصة في مجال الإدراك الجزئي على صعيد السياسة والصحافة .

وهناك نقطة مهمة أخرى ، فهل ينبغي أن يكون تفكيرنا منقاداً إلى مبادئنـــا أم انه يجب أن يتماشى معها ؟ الأمران مختلفان تماماً لان الإدراك مختلف فـــي كـل منهما . فعندما ننطلق مع المبدأ ، فإننا نستطيع أن ندرك الموقف من خــــلال ذلــك المبدأ فقط ، أما عندما نقوم بعمل ما ثم نرجع إلى المبدأ بعد ذلك ، فإن الفرصـــــة تزداد أمامنا في الحصول على إدراك اكثر اتساعاً بكثير من الأول .

فهل ينبغي أن نكون ذرائعيين بما يكفي لأن نكون ذرائعيين وان نعلن مع ذلـــك أننا نتبع المبادئ ؟

إن القانون هو مسألة مبادئ ، وحيث يكون القانون منسقاً كما في فرنسا ، فإن شروحاته تساعد على تحديد إمكانية تطبيق المبادئ . وحيث يوجد القانون العضوي الذي يتطور إلى الأمام استناداً إلى وجود حالات جديدة ، ومبادئ جديدة . كما فـــي المملكة المتحدة والولايات المتحدة ، فإن هنالك هيئات مثل المتعلقـــة بالمبـــادئ :

فهل عقوبة الإعدام قاسية واستثنائية * ؟ إن بعض المبادئ معوّمة بحريــة، ولكــن هناك مبادئ أخرى لا تنطبق إلا على ظروف خاصة محددة جداً. إن تحديد الجنون

---

* من مفارقات أنظمتنا العقلية أن الدول التي تعتبر عقوبة الإعدام ، عقوبة قاسية ، مسؤولة عن عمليات إعدام كثيرة أكثر من غيرها . وبصراحة، فهل كانت أحكام الإعدام التي نفذتها الطائرات الأمريكية في فيتنام أو العراق أو الســودان مجــرد تمثيليات من صنع وسائل الإعلام ؟ أما على الصعيد الداخلي نفسه لكل دولة ، فإن عدم وجود عقوبة رادعة كالإعدام ، تجعل التفكير في القتل أيسر. لو كان القــاتل (يدرك)أنه أمام نظام متماسك ، لن يسمح إلاّ بقتله ، لا ســتصعب القتــل . أمــا الحالات التي يقتضي فيها رفع المسؤولية (كالدفاع عن النفس أو حتى الجنــون) فلا خلاف فيها على مواءمة العقوبة . لنلاحظ هنا دقة التفكير ودقة اللغة – علــى الرغم من كل ما قاله دي . بونو عن اللغة – إن الإسلام عندما وجه اللــوم إلــى الفعل ، خفف العقوبة : " ومن قتل مؤمنا خطأ " ... لم يستخدم في حالــة القتــل الخطأ لفظة القاتل. كذلك " ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنمــا قتل الناس جميعاً " إن الفعل نفسه، ولكن أين هي المبادئ القانونية التي فيها مثل هذا الهامش الواسع لنفس الفعل : من تحرير رقبة ودية إلى القتل ؟ إن الظــروف الموضوعية والذاتية معاً هي التي حكمت .. بصرامة ، وضمن إطار عقلي صارم أيضاً، وبمنتهى المرونة. ويختلف الأمر حين يراد إيقاع العقوبــة بــالمجرم فــي الحالات التي تحتمل التكرار : والسارق (وليس من " ســرق ") وكذلــك الزانــي (وليس من زنى) في إيحاء بأن هذا المجرم لن يرعوي، فتقطع يده لأنه ســارق، وليس لأنه سرق. أما في الحالات السابقة عن القتل فهو يدفع دية لأنه قتل لا لأنه قاتل . الدقة هنا هي في إدانة الفعل أو الفاعل ، وإيقاع العقوبة على الفعل قــد=

في قضية جنائية يبدو في الظاهر أمراً معوماً حيث أن الشخص المجنون غير مسؤول عن أفعاله ، ولكن هذا التعويم ينتهي إلى تحليل تفصيلي للظروف عند تطبيقه عملياً (ومثلاً هل غسل الدماغ أو التنويم المغناطيسي هو شكل من أشكال الجنون ؟) *

=لا يستدعى تعذيب الفاعل (كما في حالة القتل ، أما إيقاع العقوبة على الفاعل فإنه يستدعى ذلك ، كما في عقاب الزناة المحصنين (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين).

*** الإجابة القانونية سهلة، لأن القاعدة القانونية في الإسلام تقوم على أن تعدد الفاعلين لا يؤثر على العقوبة التي يستحقها كل منهم (في حالة التنويم المغناطيسي أو غسل الدماغ)، وإذا كان فعل الشريك (الذي أجرى التنويم أو الغسل) يؤدي إلى جعل المباشر بالفعل مجرد أداة في يد الشريك المتسبب ، فإن الأخير يستحق عقوبة الحدّ والقصاص ، لأنه يعتبر شريكاً مباشراً لا متسبباً – " عبد القادر عودة : التشريع الجنائي في الإسلام (اختصار وتحقيق د. سعيد حوى – "الإسلام " – دار الكتب العلمية – ببيروت، ص. 558 وما بعدها) أما الجنون فقد اعتبر مالك وأبو حنيفة وأحمد أن " عمد المجنون خطأ " ، وتحفظ الشافعي على هذا الرأي . بل إن الجنون يوقف تنفيذ الحكم حتى يفيق المجنون . وبخاصة حين يكون الإقرار هو دليل تنفيذ الحكم . ومن اللافت هنا أن التشريع الإسلامي ميزّ بين المسؤولية الجزائية على المجنون – فأسقطها وبين المسؤولية المدنية – فأبقاها !**

إن المبادئ تحتاج إلى تغذية ، وهي لا توجد إلا عندما نتحدث عنها ،ونؤمن بها، ونستخدمها ، ونتخذ قرارات من خلالها ، حتى عندما تكون تلك القـــرارات لا تحظى بالشعبية وفي مقابل ، قصرية المبادئ والراحة التي توفرها ، تبدو الذرائعية وكان ليس لديها ما تقدمه ، ولكن بوسعنا على أي حال أن نطرح مفهوم الملاءمة ، التي تعتمد على الظروف إلى حدّ بعيد، بمعنى هل يناسب عملٌ ما الظروف أو أنــه لا يناسبها.

إن قتل الأبرياء هو عمل خاطئ ، والمجنون هو شخص بريء طالما هو غـــير مسؤول عن أفعاله ، ولكن إذا كان هناك شخص يهدد أرواح أناس آخريـــن بقنبلـــة على متن طائرة مثلاً ، فهل هناك ما يبرر قتل هذا الشخص ؟ إن الرد على ذلك هو نفس الرد الذي يتعلق بحالة الدفاع عن النفس ، والتي هي تجاوز ذرائعـــي لمبـــدأ أساسي ،

والنقطة الرئيسية هي أن المبادئ المقبولة عموماً تكـــون أيضـــاً جـــزءا مـــن الظروف إذا عرفنا الذرائعية على أنها عمل يناسب الظروف، وليســـت القضيـــة قضية ظرف أو مبدأ ، ولكنها قضية ظرف يتضمن مبدأ ما * .

*** أن لب المشكلة يكمن هنا حيث يرى دي . بونو في أمثال هذه الحالات ظروفـــاً تتضمن مبادئ معينة " . على حين أنها مبادئ عقليـــة محـــددة تواجـــه ظروفـــاً مختلفة. لا بدّ معها من التوسع في فهم المبادئ ، وتصميم مساربها العقلية حتـــى تنجلي عن أكبر قدر ممكن من الفهم لها ولاحتمالاتها، مـــع التوســـع فـــي فـــهم الظروف القائمة ومحاولة رسم (تصميم) ما قد يستجد من ظروف ، والإســـتعداد العقلي لمواجهتها . إن من البدهي جداً أن الاستعداد العقلي برسم السيناريوهات=**

وعلى الرغم من أن فلاسفة من أمثال (وليام جيمس وجون ديوي) كانوا من كبار حماة الذرائعية في أمريكا ، إلا أن الأمريكيين لم يستطلعوا التطبيقات العمليـــة للذرائعية بشكل فعلي خوفاً مما قد يؤدي إليه ذلك الاستطلاع وخوفاً من أن يفقـــدوا إحساسهم بالاستقامة .

=الحاضرة والمستقبلية يساعد الإنسان على مواجهة المشاكل بفاعليـــة أعلـــى ، حتى لو كانت منطلقاته العقلية صارمة جداً . أما حديث دي . بونو اللاحق عـــن الخوف الأمريكي من استطلاع وسائل الذرائعية خوفـــاً مـــن فقـــدان الإحســـاس بالإستقامة، فهو حديث في غير محله . لأنه أدخل موضوع الأخلاق بشكل فجّ إلى موضوع يندرج ضمن زيادة قدرة البشرية على الإحاطة العقلية بما لديـــها مـــن مخزون فكري يتفاعل مع وقائع محددة .

التعقيد الوظيفي (البيروقراطية*) Bureaucracy

تحدث البيروقراطية عندما تقوم هيئة من الناس الذين وجدوا معاً من أجل هدف ما ، بالتحول عن ذلك الهدف ، نحو هدف آخر هو إدامة هذه الهيئة .

إن البيروقراطية هي حالة نموذجية من حالات " قواعد اللعب " ؛ فسرعان ما يصبح البقاء والازدهار هو اللعبة التي يلعبها كل شخص ، الأمر الذي ينطوي على

* لو أخذنا مرادفاً عربياً للكلمة Bureaucracy بدل التعقيد الوظيفي ، مثل "الدواوين "، فإن المعنى قد يصبح أكثر وضوحاً ، إن الدواوين هي آليات عقلية وضعت في الإدارة اعتماداً على مهارات التحليل والتصنيف من أجل تسهيل أعمال الدولة والناس . لكن هذه الآلية تتحول – وبخاصة أيام الركود العقلي والسياسي أو الاقتصادي – إلى كتل مادية تخوض صراعاً من أجل البقاء . وبالمفهوم الإداري تصبح البيروقراطيات / الداووين شركات متعثرة، يقول التحليل بضرورة بيعها ، أو دمجها ، أو تفكيكها ، وتقول المواقف النمطية بضرورة الحفاظ عليها ، إما لموقف سياسي أو فكري، أو من أجل استمرار فرص العمل لعدد من الأفراد . وليست البيروقراطية خطيرة جداً عندما تكون رسمية أو حكومية لأنها لا بد أن تنتهي طال الأمد عليها أم قصر ، إما باقتناع رعاتها بانهائها ، أو نتيجة ضغط فجائي قد لا يخضع للعقل دائماً . أما البيروقراطية كتوجه عقلي (غير حكومي) فهو خطير ، لأنه لا يزال يتمدد في المؤسسات العلمية والخاصة ، وفي رؤوس المبادرين والمبدعين أحياناً .

تجنب المخاطرة، والاقتتال السياسي الداخلي ، والهروب من تحمل المسؤولية، وحصر الأمور في قنوات محددة ، وهو أمر لا يختلف عن قواعد اللعب التي تمارس في آية محنة أخرى ، كما انه ليس أحسن حالاً منها .

إن هدف البيروقراطية هو تجنب الأخطاء ، وهكذا فإن العمل الجيد لها يؤخذ من باب المسلمات ونادراً ما تتم ملاحظته ، أما الأخطاء فتبرز للعيان وتتعرض

---

[*] إن قواعد اللعب عندما تصبح غاية في حدّ ذاتها " اللعب من أجل اللعب " فإنها تشكل تبديداً غير مبرّر للموارد العقلية والمالية على حد سواء . وهكذا ، فإن أقصى طموح القائد البيروقراطي هو أن يظل في موقعه ، عندما يصل أعلى منحنى الجرس أو المنحى الطبيعي ، لأن تجاوز هذه النقطة يعني بداية الإنحدار . إنه يقود مؤسسته كي تظل مكانها ، في وقت يكافح فيه الجميع من حوله كي يتقدموا إلى الأمام . أما هو فلا أمام أمامه . ومن واقع أمثلة دي . بونو فهو أشبه بقائد السيارة ، الذي وصل إلى قناعة مفادها أن أسلم أسلوب يجنبه الحوادث هو إبقاء السيارة في المرآب. ولا يحصل هذا إلاّ عندما يكون قد انتهى من هذا الاستثمار أو أنه لم يدفع ثمنه أصلاً . إن البقاء – مجرد البقاء –هو الانتصار الوحيد في أقصى حالات تفكيره اتساعاً . ولكن من يدفع الثمن مالياً ؟ وهل من يجبر على دفع ثمن كهذا سيظل ساكتاً إلى مالا نهاية وهو يدفع ثمن بقاء ونزوح القيادات البيروقراطية ؟
أما عند الحديث عن تأثير البيروقراطية على سد منافذ الإبداع ، فإن الأمر بحاجة إلى ما هو أكثر من كتاب ، أنه بحاجة إلى ثورة شاملة في مجال المفاهيم لا تحمد عقباها .

للهجوم ، ويظل خطأ البيروقراطي سيفاً مسلطاً على عنقه طيلة عمره الوظيفي ، ولا مفر في البيروقراطية ، خلافاً لمشاريع القطاع الخاص ، حيث يمكن لفشل ما أن يعقبه نجاح ، ففي عالم المشاريع الخاصة ، هناك كثيرون تعرضوا للخسارة أولاً، ولكنهم حصلوا على ثروات كبيرة بعمليات متوالية سريعة لاحقة .

ولنفرض أن لدى بيروقراطي فكرة جيدة ، أليس هذا أمراً جديراً بالثناء ؟ ولكن السؤال الذي سوف يطرح هو : لماذا تأخر طيلة هذا الوقت كله قبل الوصول إلى هذه الفكرة ؟ من الممكن أن مبالغ طائلة كان بالإمكان توفيرها لو أن هذه الفكرة طبقت قبل وقت طويل . ولنفرض أن الفكرة ما كانت ممكنة دون وجود تقنية حاسوب متطورة لم تكن متوفرة قبلاً ، أليس اكتشافها أمراً يستحق المديح ؟ ليس بالضرورة . ففي بعض الدول يتم الاعتراف بمن أوجد فكرة على إنه رجل أفكار ولكن يتم ترفيعه وترقيته إلى أن يصبح رئيساً للدائرة ، المنصب الذي يحتاج شخصاً منضبطاً (وظيفياً) لا يرتكب أبداً أي خطأ ناجم عن صناعة الأفكار .

لقد سبق أن اقترحت ذات يوم ، أن أي بيروقراطي يختار التخلي عن موقعه الوظيفي طوعاً ، يتم إعطاؤه راتباً كاملاً حتى حلول عمره التقاعدي * . ويبدو هذا

*** نعم إنه اقتراح سخيف ، لأن فكرة التقاعد إن لم تكن شاملة وحقاً طبيعياً لكل إنسان على قدم المساواة فهي فكرة لن تستمر طويلاً . إن كل إنسان يعيش في أي مجتمع يجب أن يكون له دور، بصرف النظر عن مهنته ، أو مكانته، أو حتى ديانته . ومشهورة قصة سيدنا عمر بن الخطاب مع الكهل اليهودي عندما أمر بتغطية حاجته " أنأكل شبيته ونخذله عند الهرم " ؟ وإذا كان هناك إنسان لا دور له طيلة سنوات عمره الإنتاجي ، فهذا ليس ذنبه بل ذنب المسؤولين عن وضع=**

الاقتراح سخيفاً ، ولكنه ليس كذلك . إن هذا الراتب سوف يدفع أيضاً إذا لـم يتـم

=خطط التنمية ، ذنب المفكرين الذين يتأخرون في توقع المشكلات ، والرد عليـها بأفكار استتباقية تمنع وقوعها . أما أن يأخذ أي إنسان راتباً لأن خروجـه مـن الوظيفة أقل كلفة من بقائه فيها ، فهو اقتراح سخيف فعلاً . لأن المال – أي مـال – لا بد له من مالك ، لا توجد ثروة تهبط من السماء هكذا ، وهكذا ، فإن مثل هذا الراتب – في ظل محدودية الموارد المالية لمعظم الحكومات البيروقراطية – إنمـا هو مال تعب به إنسان آخر . والبديل السليم يكمن في تعظيم قيم العمل، وتـأهيل البيروقراطيين مهنياً – إن لم يكونوا مؤهلين – من أجل أن يؤدوا دوراً في هـذا المجتمع ، وبخاصة لأن معظمهم يعزفون عن العمل المنتج ، ويحتاجون بطبيعـة الحال – فترة تأهيل – قبل أن يتمكنوا من الإندماج في مجتمع ما بعد التقاعد ، أو ما بعد الخروج من الوظيفة .

إن المشكلة الرئيسية في البيروقراطية ، أن رعاتها لا يؤمنون بحق الإنسان فـي المساواة ، وبالتالي ، فهم يعتقدون أن المحسوبية مثـلاً لا تسـتطيع أن تنظـم الهيكلية الوظيفية لمحطة إذاعة فحسب ، بل يمكنها أن تخلق مذيعاً ناجحاً أيضاً !! ونادراً ما يتحمل القائد البيروقراطي وجود إنسان مبدع ، لأنه يتوجس منه خيفـة دائماً ، ولذلك يحيط نفسه بذوي القدرات الأقل ، والأولوية عنده هي للـولاء ، لا للكفاءة أو الإنتماء . وهناك أخيراً حل (معقول) أكـثر : فـإذا أردنـا أن نكـافئ بيروقراطياً ، فلماذا لا نحسب إجمالي راتبه إلى سن التقاعد، ونعطيه له كقـرض مسترد شريطة أن يبادر بتقديم دراسة جدوى لمشروع يتناسب مع (مسـتحقاته) وهناك يمكنه أن يصرف من جيبه ، وأن يتحمل مسؤولية قراراتـه ، وأن يـأخذ فرصه كاملة نجاحاً كانت أم فشلاً .

التخلي عن الموقع الوظيفي ، أما إذا حصل الشخص على الراتب مقابل عدم قيامه بعمله ، فإن كل الدعم ، وكل نفقات الوظيفة يتم توفيرها ، كما أن الشخص نفسه سوف يصبح حراً أيضاً في الذهاب إلى أعمال أخرى أو التخلي عنها .

إن البيروقراطية لم يتم تصميمها يوماً كآلية للتغيير *، ولكنها وجدت لتطبيق الأشياء كما هي . ومن سوء الطالع أن التغيير غالباً ما يمر عبر البيروقراطية ، إذ

***هذا في عصرنا العقلي الحالي ، ولكن بعض المؤسسات التي تعتبر بيروقراطية الآن، لا بد أن تظل موجودة، ولكن ضمن خطة عقلية مختلفة : إن هناك حاجة ماسة جداً . إلى أقسام التخطيط ، والبحث ، والتطوير في كل المؤسسات الحكومية ، شريطة أن تبتعد عن المفاهيم التي تستحوذ عليها حتى الآن : فالبحث ينبغي أن يكون للمستقبل لا للماضي- أما الأرقام والمعطيات فيجب أن يتم التعامل معها (بحياد تام) لا أن يتم توظيفها من أجل أن تتواءم نتائجها مع السياسات الموضوعة، بل أن تستخدم كمعايير لتوجيه السياسات . ولا بد أن تكون المدخلات Inputs والمعطيات Data محمية من الالتفاف عليها أو توظيفها لأي هوى أو مصلحة ، وذلك بموجب نصوص مكتوبة واضحة . والتطوير يجب أن لا يظل يخجل من التثوير ، فإذا كان هناك خلل فادح، فهل يفترض أن نأخذه بكل الهوادة واللين اللذين يتطلبهما التطوير؟ أم بد من وضع حد له ، بعد تصميم البديل المناسب . إن التخطيط العقلي السليم ، لا يخشى إنفاق المال، لأن المال يجب أن يكون في أيدي الناس أساساً، أما تكديس الثروات في أيدي المؤسسات المصرفية فقد حولها إلى شيء يشبه الكهول الذين لا يعرفون وظيفة للمال إلا حراسته . وهذا (المنطق) الذي نعتقد أنه عصري، عندما نشاهد كل المال في المصارف،لا=**

سريعاً ما تتحول المؤسسات إلى بيروقراطيات ، وبدل أن تصبح مشاريع رأسمالية توفر المال الأساسي اللازم لأفكار جديدة غير تجارية في المجتمع. فإنها تنتهي إلى موقف الحد من المخاطرة اللاي تتخذه المصارف الذي يقوم على الاهتمام بنفس المشاريع المأمونة المخاطر مثل أية مؤسسة تجارية أخرى، ولقد كانت هذه تجربتي الأكيدة مع هذه المشاريع .

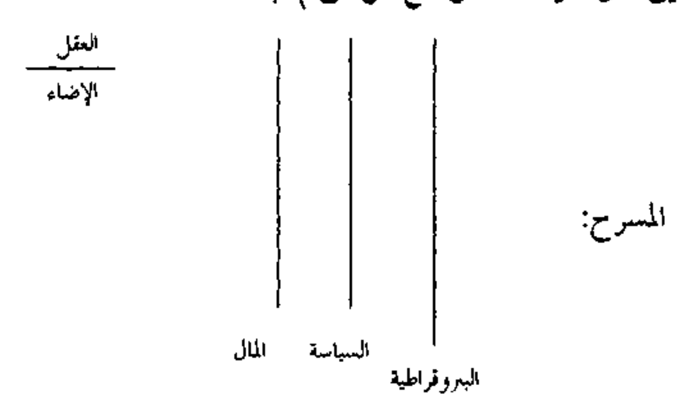
إن كثيراً من آليات التغيير الكامنة للمجتمع موجودة في أيدي البيروقراطيين ، ولا يوجد أي قانون طبيعي يقول إن الأشخاص الذين يدخلون البيروقراطيات ويمكثون فيها هم ذوو مواهب إقل من الآخرين الذين لا يدخلون هذه البيروقراطيات. لا بل إن البيروقراطيين ربما يكونون أذكياء من حيث أنهم اختاروا أن يعيشوا حياة تنخفض فيها حدة التوتر . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الأشخاص ذوي الموهبة والمبادرة يصابون بالإحباط داخل البيروقراطيات ، بل وربما يثيرون عداوات تؤدي إلى لفظهم من داخل هذه البيروقراطيات . وهكذا فحيث يتطلب

=يعبر عن سياسة عقلية تستهدف تشغيل الناس كلاً فيما سخرّه الله له . ورغبة البيروقراطي في تخفيف التوتر والضغط العصبي، تصحبها رغبة المصرف في الحصول على أقصى الضمانات لأمواله، وعندما تلتقيان فلا مجال للمبادرة ، ولا مجال للمبدعين ، ولا مجال لأفكار جديدة عن منتوجات وخدمات وأسواق جديدة فعلاً . لأن كل حزبٍ بما لديهم فرحون . وأي سوق محلية يمكنها احتمال هذا الجمود في ظل التنافس الشديد ، وسرعة الحركة التي يشهدها العالم اليوم؟ وهي سرعة تزداد على شكل متوالية هندسية لا عددية ، وفق ما تقول به كل المؤشرات .

التغيير وجود رؤى ومبادرة ، ولكنه يضطر إلى المرور عبر البيروقراطية ، فـإن النتيجة سوف تكون سلبية على الأرجح . فعندما تجتمع "قوانين لعبة " السياسـيين ، مع قوانين لعبة البيروقراطيين فإن الأمل بالتغيير والابتكار يغدو ضئيلاً جداً : *

لقد اقترحت على الروس ذات مرة أن يقيموا أكاديمية للتغيير بهدف محدد هو رؤية ما سيحدث إذا تم توجيه البيروقراطيين رسمياً في هذه الاتجاه ، كمـا أنني اقترحت أيضا إقامة وزارة للأفكار كطريقة لتركيز الاهتمام على هذه الحاجة بشكل ما . *

ومن باب التمثيل فإن الأمر أشبه ما يكون بحزمه ضوء ينبغي عليها أن تجتاز 3 حواجز حجرية معتمة : حاجز المال ، وحاجز السياسية ، وحاجز البيروقراطيـة (الحارس الأمين لكل سياسات الوضع الراهن).



الآن: ليرقص الجميع في العتمة .

إن مثل هذه الدعوات لا توجه إلى الحكومات ، ولا حتى إلـى الشـركات ، بـل ينبغي طرحها على مستوى العالم . كدعوة ، لأن من يمسكون أعنـة ومقـاليد=

=الأمور، همهم الوحيد الحفاظ على هذه الميزة ولو (أدركوا) أن السؤال عنها سيكون صعباً، لنبذوها سراعاً. ويستدعي الوضوح أن نقول إن أية دولة وطنية، أو قومية، وأية جماعة عرقية ، وأية نظريات مطروحة الآن في أسواق الأسهم الفكرية كلها لن تحلّ مشكلة هذا التحدي الذي يواجه الإنسانية الآن وهو كيف نفيد من كل الطاقات العقلية المتاحة ونحولها من أعباء على الحياة ، إلى وسائل عملية لتحسين هذه الحياة، وإعمار هذا الكوكب؟ كيف نفيد من هذه الطاقات من أجل تجنب الكوارث (لأن المطلوب في قادم الأيام ليس مجرد حل مشكلات)بل التنطح لمواجهة كوارث بعضها قد يكون بيئياً، وبعضها قد يكون سياسياً ، وبعضها قد يكون مالياً(والأهم أن بعضها قد يكون صحياً بحكم أي نوع من أنواع التلوث .

إن السياسات التي أدت إلى وضع الحدود على الأرض وتقسيمها ، هي نفسها التي أدت إلى وضع المحددات والحدود العقلية التي أعاقت التطوير والتنمية العقلية . وبصرف النظر عن كون العولمة دعوة حق قد يراد بها باطل ، إلاّ أننا نجد في التفكير الإسلامي أن الأرض كلها لله ، وأنها واسعة ، والكثير من النصوص التي تقود الإنسان إلى التفكير في هذه الكرة الأرضية ككيان واحد. والتفكير الإسلامي الذي استطاع توحيد وإدارة المناطق الممتدة من الصين إلى أسبانيا ، قبل التقدم العلمي ، يجب أن يكون قادراً في هذه الأيام على تحقيق المزيد ، واختراق الأرض كحدود سياسية ، وكحدود اقتصادية ، وكحدود فكرية . والنظام العقلي الجديد هو نظام منفتح لا مكان فيه لأي انغلاق ، أو تعصب .

لقد كان هنالك الكثير جداً من التصنيفات في الأيام الأولى للطب والعلـوم ، لان الوصف كان كل ما نستطيع عمله . وعندما بدأنا نفهم بعـض الآليـات الأساسـية البارزة ، بدأت التصنيفات تتفكك لأننا استطعنا أن نرى أن الظروف التي سـبق أن صنفناها على أنها مختلفة ، إنما هي انعكاسات لنفس الشيء .

وهكذا ، فإن هنالك اتجاهين متعاكسين أحدهما يتمثل في الإيغال في التخصص والجزيئية ، فمع تزايد المعرفة وتحسن وسائل البحث ، أصبح الشخص قادراً على التركيز على ناحية ضيقة جداً من موضوع ما ، ومتابعتـها مـن خـلال الأدوات المتخصصة المتوفرة الآن . وفي العادة ، فإن المختصين في جزء ما من علم قد لا يستطيعون التواصل حتى مع زملاء لهم في جزء مجاور من نفـس التخصـص ، فاللغة بينهما مختلفة، والمفاهيم كذلك ، والحسابات مختلفة كما الاهتمامات ، وكـل هذا أمر لا مفر منه ، ولا أحد يتحمل وزره . *

*** إن بعض هذه الحواجز التي تحوّل دون تواصل زملاء التخصص الواحـد هـي حواجز نفسية لا علاقة لها بماهية التخصص ، وهذا أمر مألوف فـي الجامعـات ومراكز البحث، وتغذّيه النزعات (الشللية) أحياناً، بكل ما فيها من تنافس علـى المراكز الإدارية، والدعم، وغير ذلك . إضافة ، إلى أن بعـض المـبرزّين فـي مجالاتهم يجنحون إلى الغرور، والاستخفاف بالآخرين، غير مقدرين أن للتواضـع فوائد أكبر بكثير من التعالي ، وأن فوق كل ذي علم عليم ". كما أن الميـل إلـى الإنطواء يسهم في تمتين الحواجز النفسية، وعزل بعض المبرزين عمن حولـهم، إما لعدم التفرغ ، ولعدم توفر الوقت لديهم فعلاً ، أو لأن الأوضـاع الإجتماعيـة والإقتصادية لكثير من العاملين في مجال العلوم لا تتناسـب مـع مؤهلاتـهم ،=**

أما التوجه الثاني فيقوم على أن زيادة معرفتنا ، وقدرتنا على الغـوص فـي أعماق موضوع ما ، تجعلنا نكتشف أن عمليات وأنظمة منظومة ما تتقاطع مع كثير من المجالات ، وفي بعض الأحيان ، فإننا نحتاج كي نفهم ما يجري في مجال ما ، أن نستعير مفاهيم وتقنيات مجال آخر . وربما يحتاج الفلاسفة مستقبلاً لان يكونـوا متخصصين في الأعصاب ، بل إننا رأينا فعلاً ، كيف احتاج علماء الحاسوب إلـى الاستعارة من علم الأعصاب من اجل تصميم أنظمة شبكات عصبية .*

=وبالتالي ، يتولد لدى الواحد من هؤلاء شعور بالظلم الإجتماعي ، لأنه لم " يأخذ المكانة التي يستحق." والمشكلة تكون أعمق في الجامعات العريقة، حيث هنـاك حاجة لقدامى العلماء ، ولكن هؤلاء يميلون إلى (الاستخفاف) بالجيل الجديد والدم الجديد . إنهم يريدون منه (نسخ) تجاربهم في التحصيل والكدح والتفوق .

*** إن الذي يقرّر حاجة هذا الفرع من المعرفة إلى فرع معرفي آخر، هـو إطـار التفكير الذي يحكم الشخص المعنى ، بمعنى أن شخصاً مـا محترفـاً فـي إدارة الاستثمارات العقارية ، قد يشعر أحياناً أنه بحاجة إلى الإحاطة باحتمالات الأوضاع السياسية ، إذا كان يريد أن يواصل نجاحه خلال الخمس سنوات القادمة . لأنـه يدرك أن تطورات سياسية ما في المنطقة التي يعمل فيها ، قد تحدّ مـن الإقبـال على شراء العقارات ، وفجأة يجد هذا الشخص نفسه وقد أصبح تلميذاً للسياسية. كذلك، فإن طبيباً لديه اتجاه عقلي إسلامي ، لا بد أن يشعر بالحاجة إلـى معرفـة الموقف الشرعي من الموت، حتى يتخذ قراراً عليماً بشأن موت الدماغ. وعلى كل فإن هنالك حلولاً انتقالية لهذه القضية منها الميل إلى مدرسة التفكير الإسلامي في العصر العباسي ، حيث كان هنالك المتخصصون ، ولكن كان هنـاك جماعـات=**

إن مشاريع الأبحاث الجديدة تضم في اغلب الأحيان فريقاً مختلطاً يضم علماء رياضيات وفيزياء وأحياء وحاسوب وفيزياء مواد ... الخ.

عندما نبدأ بحفر تحت سطح الآليات الأساسية محاولين فهمها ، فإن الخطوط الفاصلة بين المواضيع قد تختفي هي الأخرى . ومن الواضح أن هناك فوارق من حيث المعيار ، فالفيزيائي المتخصص في الذرات لا يعمل بنفس معايير رجل الاقتصاد ، ورغم ذلك ، فإن الاقتصادي قد يحتاج إلى أن يعرف عن نظرية رياضيات حديثة مثلا، بل إن الاقتصادي قد يحتاج لان يعرف عن الأسس العصبية

=فكرية (Think Tanks) مثل أخوان الصفا مثلاً كانت تطرح الكثير من القضايا وتتداولها بين أفرادها ! ولا بد أن نذكر هنا أن التركيز القرآني في مجال المعارف الدنيوية يركز على الحكمة (بالمعنى الشمولي للمعرفة) كذلك فإن تداخل المعارف جعل المسلمين يتفوقون في وقت مبكر في إصدار المخازن Magazine، كمصنفات تضم بين دفتيها معارف مختلفة التخصصات. إن مسألة تداخل التخصصات ، هي حاجة علمية وعملية، وليست مجرد رغبة ذاتية يقف معها هذا الطرف، ويقف ضدها ذاك الشخص. كما يحصل في التقوقع الأكاديمي الذي نلحظه أحيانا، عندما تبدأ بعرض رأيك في مسألة قانونية وأنت في جلسة تضم محامين، فتفاجأ بأحدهم وهو يطرح سؤالا فجا صار تقليديا: هل أنت محام، أو هل حضرتك طبيب؟ إن احترام التخصص لا يعني احتكار المعرفة أو العلم. وأسئلة مثل هذه تدل على خط تفكير غير ملائم: إنه خط يركز على الشخص لا على الفكرة، وعلى القول لا على القائل. ولكن هذا التوجه لابد أن يتلاشى في عالم الغدّ.

لعمل الدماغ من أجل أن يفهم سلوكيات الإدراك والاختيار التي تؤثر مجتمعة على السلوك الاقتصادي إلى حد كبير

ولكن عمليات التنظيم والتحويل تستند إلى خطوط التجزئة التقليدية ، وبالفعل فإذا كان هنالك مشروع ما يبدو انه سيتجاوز خطة جزئية فإن موارد التمويل قد تنضب ، لأن الموارد تصبح عمل جهة أخرى وسيظل الترتيب الإداري دائماً متخلفاً شاذّاً بعيداً عما يحصل على ارض الواقع .

إن تعيين الأخصائيين ضمن حدود حقل تقليدي ما ، هو عمل سهل ، على حين لا يمكن تعيين أخصائيين في حقل جديد إلى أن يتأسس هذا الحقل ومن الصعب أيضاً تعيين أشخاص ذوي معارف متداخلة بشكل عام ، لأنهم سيظلون على درجة أدنى * إذا قيسوا بالمختصين في أي مجال بعينه .

*** بالنسبة لعمل الخلايا والشبكات العصبية، وآليات عمل العقل عموماً ، فإنها معارف لا بد من محو أمية كل شخص مهما كان علمه أو عمله بشأنها . إن نهاية القرن العشرين شهدت ترسيخ محو الأمية في مجال الحاسوب ، بحيث صار لا بد للشخص أن يكون ملماً بالمباديء العامة لعمل الحاسوب ، في النواحي المتعلقة بعمله أو تخصصه، أو مهنته على الأقل. أما الفترة القادمة ، فسوف يتم التركيز فيها على برامج العقل البشري ، وكيفية تشغيلها ، في الطب، والاقتصاد، والسياسة وكل نواحي الحياة والتخصصات .**

هنا تظهر مسألة الاستعلاء التي عرضنا إليها كحاجز يحد من التواصل بين أهل التخصص العلمي الواحد ، والتخصصات المختلفة أيضاً . المسألة ليست أدنى أو أعلى بل حاجة الموقع . وكمثال ، فإن رئيس مجلس الإدارة يجب أن يكون عليماً

أما في المستقبل ، فمن المرجح أنه سيتعين علينا أن نعيد التفكير في قضية التخصص والتجزئة برمتها ،إذا كنا نريد أن نستخدم إمكانات التقنية الحديثة إلى أقصى مدى لها . وسوف نحتاج إلى خلق تخصصات جزئية متقاطعة ولغات متداخلة تمكن المعرفة من التدفق ، وربما يتعين علينا أيضاً أن نؤسس لعملية التفكير المتعلقة بكل هذه الأمور كفرع قائم بذاته .

بصناعة القرارات الاستراتيجية ، ولكن المدير العام، قد – لا بل يجب – أن يكون أعلم منه بصناعة القرارات التكتيكية المتعلقة بسير العمل اليومي ، فهل نقول إن رئيس مجلس الإدارة أدنى معرفة من المدير العام ؟ كذلك، فإن المدير العام يجب أن يكون ملماً بالحاسوب الموجود في شركته ، ولكن هل يشترط أن يكون أقدر من سكرتيرته على الطباعة حتى نقول إنه أدنى أو أعلى منها . إن هذا الحاجز، غير موجود في التفكير الإسلامي ، أو في بنية العقل الإنساني ، حيث الناس لا يحاسبون إلاّ على أساس التقوى، فالسكرتيرة هنا ليست أدنى من المدير ، لأن السكرتيرة الناجحة ناجحة،والمدير الفاشل فاشل . إضافة إلى قيمة التواضع في البناء العقلي الإسلامي ،والى احترام مدى إجادة العمل، بصرف النظر عن حجمه.

ظهرت الحاجة إلى لغات جديدة ، مع إدخال شبكات الإنترنت إلى العمل الواسع في نهايات القرن العشرين إن لغة الإنترنت هي لغة انجليزية الأصل كما هو معروف ، ولكنها أخذت تفرض نفسها كلهجة علمية متخصصة، لكلماتها معان وظلال معانٍ تختلف عما لهذه الكلمات من معانٍ في اللغة الأم . ويمكننا رصد تطور بعض المصطلحات في مهن وعلوم محددة، فيما تسمى اليوم بالرطانة

Jargon تعبيرا عن المقت لها كلغة اتصال بين أفراد ينتمون إلى قطاعات مختلفة من الحياة .

ولكن هذه الرطانة ستتحول إلى لهجة علمية ، فهل يعيب أحد على سكان مقاطعة ما أن يكون لهم لهجة خاصة تختلف عن اللغة الرسمية ؟ فلماذا لا تتطور لهجات علمية بين أفراد يعملون في نفس المجال ، حتى لو كانت لغاتهم الأصلية مختلفة؟ إن هذا يسهل العمل بين أفراد من خلفيات وألسنة مختلفة ، كما أنه يختصر الوقت داخل المؤسسات الكبيرة ، ويساعد على التوسع في عمليات فرز المصطلحات وتصنيفها وتبويبها أما من حيث التخصصات، فإن الجامعات تفرخ المزيد منها كل يوم استجابة لعمليات التصنيف الواسعة النطاق ، ولا عيب في أن يأتي الجديد من تحليل وتصنيف القديم، ولكن على سبيل المثال، فإن هناك حاجة إلى علم للتواصل بين بني الإنسان وغيرهم من الحيوانات والكائنات ، فماذا لو أصبح لدينا مختصون في التواصل مع كائنات مثل النحل ؟ ألا يعني هذا توسيعا لإنتاج وتصنيع العسل ؟ وماذا لو أقام الإنسان اتصالات من نوع ما مع طيور تمتاز بسرعة تفريخها وهجرتها؟ وماذا لو استطاع استقطاب قطعان من الحيوانات اللاحمة في الغابات إلى مناطق تجميع تأتيها هذه الكائنات طوعا ؟

إن الأبحاث العلمية اللاحقة يجب أن تنفي ما كانت تلحقه بهذه الكائنات من عدم قدرة على التفكير، وإلا لما وقف سيدنا سليمان معلنا للناس " يا أيها الناس علمنا منطق الطير، وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون" 15-18 سورة النمل . وحتى لا يكون هناك لبس حول وجود العلاقة بين=

=المنطق والنطق ، في " منطق الطير " جاء الحديث مع النمل . إن عدم رؤيتنا لأشعة ما لا ينفي وجودها ، وإن عدم قدرتنا على التقاط ذبذبات ما لا يعني عدم وجودها أيضا . وفي النصوص القرآنية الكثير مما يشير إلى قدرة الكائنات على التعلم لتحقيق الغايات المسخرة لها، ومن ذلك " وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون " الآيات 66-69 من سورة النحل . وحتى لو أخذنا الأمر من وجهة نظر التفكير التقليدية ، فلماذا نستبعد مثل هذه الفرضية : إن بالإمكان إقامة اتصال مع كائنات حية في البر والبحر والجو ، من اجل دراسة إمكانية زيادة التعاون معها ، طالما أنها مسخرة أصلا بأمر الله ،وطالما أن الإنسان مستخلف في هذه الأرض ؟

كذلك يمكن التفكير بفروع علمية أخرى مثل الإفادة من البرق ... هذه الطاقة الكهربائية الهائلة ، ما هي حدود تعلمنا منها ؟ وما علاقتنا بها حتى الآن . إن كل مجال يجب أن يكون مفتوحا باتجاه العلوم وتحصيلها والإفادة من كل ما في الكون . وليست مهمة التفكير الديني أن يقف في موقف الدفاع أو رد الفعل لتحليل أو تحريم الاستنساخ . مع أن الأمر بسيط : إن كل عمل لا يصل حد خلق الحياة من عدم ، يظل مباحا ، أما الخلق من العدم فهذا هو موضوع التحدي أو التعدي .

* يرتبط هذا المبحث بالمبحث السابق ، من حيث أن أي قفزة عقلية و / أو علمية جديدة تنال خطا أوفر من النقد الإيجابي والتثمين ، كلما كانت استمرارا تطوريا لما قبلها ، على حين تقابل بالإستهجان إن كانت قفزا في الفراغ، أو رسما لخط=

خذ قلم رصاص وحاول أن تنسخ خطوط شـكل معقـد نسـبياً ذي خطـوط متواصلة . كرر هذه العملية باستخدام سلسلة من النقاط بدل الخط المتواصـل . إن الطريقة الثانية تعطيك شكلاً أفضل في معظم الحالات ، والسبب أن موقع النقطـة التالية التي ترسمها ، يمكن أن يتكيف بسهولة بحيث تلائم الشكل الذي ترسمه بشكل أفضل . إن للخط زخمه واندفاعه الخاص ، ولا يمكن جعله يقفز فجأة إلى ناحيـة معينة – كما في حالة النقطة .

وفي معظم المواقف . فإن الخطوة التالية تتحدد إلى حد كبير بناء على الموقع الذي نكون فيه لحظة البدء وليس بالموقع الذي يجب أن نكون فيه ، أو الموقع الذي نريد الذهاب إليه . إن ما يقرر الخطوة التالية هو موقعنا ، والموقع الذي أتينا منـه للتو ، وكذلك التاريخ الأكثر بعداً . إننا ندفع إلى الأمام بقوة تاريخنا لا بقوة رؤيتنـا التي تجرنا إلى الأمام . إننا نتقدم إلى الأمام ببطء ، وتكون الخطوات الانتقالية اكثر أهمية من التوجهات النهائية بصرف النظر عن مدى جودة هذه التوجهات وتميزها. فالتغييرات في مجال التعليم مثلاً يجب أن تلائم المعلمين ، وأنظمة الامتحانـات ، والطلب الحالي على التعليم ، أما التغييرات في قوانين المحاكم فيجـب أن تسـتند أيضاً إلى البناء القانوني القائم وقواعده .

=جديد مختلف عن خط التفكير أو التطور السائد حتى تلك اللحظة . إن سياسـية النقطة – نقطة في رسم الخطوط لها تطبيقات عملية كثيرة جداً في الإدارة (التغير البطيء) وفي السياسة (سياسة الخطوة – خطوة) وفي التحليلات المالية (كـل وحدة نقد من أين أتت وأين ذهبت).

ويروى أنه كان هنالك مزارع ايرلندي سأله أحدهم عن الاتجاهات التي يجب أن يسير فيها حتى يصل إلى مكان محدد . وبعد أن استغرق الإيرلندي في التفكير عدة لحظات رد قائلا : " لو أنني أريد الذهاب هناك ، لما بدأت طريقي من هنا " . إن هناك تميزا في هذا المنطق ، حتى لو لم يكن التعليق مفيدا (رغم انه كان بمقدور السائق أن يحصل على تعليمات تمكنه من الوصول إلى نقطة البداية الأفضل ، حيث يتقدم بعد ذلك من تلك النقطة) .

وهنالك بعد ذلك قضية (تأثير الحافة) ، والتي تعني أن الطريق واضح ، وأن الاتجاه مرغوب فيه بدرجة كبيرة ، ولكن عدم قدرتك على اتخاذ الخطوة الأولى يعني أن الأمور الأخرى مستحيلة كلها * . إن كل مبادرات السياسة الخارجية

*** إن هذا الطرح يفترض أن التحرك لا يتم إلا بضغط الدوافع الذاتية ، هكذا ، وكان الإنسان – فردا أم تجمعا – حر تمام الحرية في أن يتقدم إلى الأمام، أو أن يظل مكانه . وفي ميدان الأبحاث العلمية فإن هذا هو (منطق) التغير المستقل ، حيث يتم تحييد كل العوامل عدا عاملا واحدا . وهو على أي حال ، منطق غير مستقبلي ، لأن المواضيع التي تبحث لا تكون تحت السيطرة المطلقة للباحث بكل متغيراتها . ومن باب توحيد الأمثلة – وليس حبا في الخوض في تطبيقات السياسة الأمريكية ، فإن المراقب لا بد أن يتتبع الأمر على الشكل التالي : لقد ظلت الولايات المتحدة غير قادرة على اتخاذ خطوة جديدة في المنطقة العربية، خوفا من الأسلوب الذي قد تتعامل به إسرائيل مع هذه الخطوة . إن هذا ربما يكون صحيحا – وربما يكون مغلوطا – فلو سلمنا بصحته ، فإن الموقف الأمريكي سيظل كذلك ، طالما كل العوامل تحت السيطرة الأمريكية ، ولكن ماذا لو كانت=**

الأمريكية في الشرق الأوسط ظلت دائما تواجه مشكلة الخطوة الأولى وهي : كيف ستتعامل إسرائيل مع هذه المبادرة ؟ (وكذلك جماعات الضغط المؤيدة لها في الولايات المتحدة ؟) . وفي أية عملية تطوير صناعي حديثة ، فإن "تحليل التأثير البيئي " هو الخطوة الضرورية الأولى .

=العوامل أكثر تعقيدا ؟ كما لو أن الاتحاد السوفيتي هدد يوما باستخدام السلاح النووي إذا لم تقبل إسرائيل مبدأ مقايضة الأرض المحتلة بالسلام ؟ أو ماذا لو أن العرب المنتجين للنفط أوقفوا تعاملهم النفطي والتجاري ، وقاطع العرب العالم (إضرابا) لحين رد الحقوق العربية المشروعة ؟ وماذا لو أن جماعة معينة هددت بتفجير موجات من العواصف المغناطيسية (المجربة، والموثوق من فاعليتها – على سبيل الافتراض)، في سماء مدينة أمريكية، إذا لم تطلب أمريكا من إسرائيل إطلاق سراح المعتقلين الفلسطينيين لديها ؟ وماذا لو أن المسلمين قرروا جميعا ، ودفعة واحدة استخدام كل إمكانياتهم ضد إسرائيل ؟ وماذا لو فاز في انتخابات الرئاسة الأمريكية مسلم (أصولي)؟ هناك متغيرات وسيناريوهات لا حصر لها ، وأي واحد منها يجعل الولايات المتحدة تغير موقفها القائم على الجمود ، وعدم التدخل الضاغط ، ولكن الأمر كان مرتبطا بالثقة الأمريكية من السيطرة على العوامل الأخرى .

إن المهندسين المعماريين يبنون بناية جديدة من رسم أولـــي ، رغـم أنـــهم يتقيدون بالموقع ، وبالمال المتوفر وبرغبة الزبون . وغالبا ما يكون بنـــاء بنايـــة جديدة أسهل وأرخص من محاولة إعادة تصميم بناية قديمة * .

---

* ولكن اتخاذ القرار النهائي يتوقف في النهاية على تفكير من ســـيمول عمليـــة البناء أو إعادة البناء. إن قناعة المهندس مهمة جدا ، ولكن من المهم أن يقتنـــع بها صاحب البناء أو الجهة التي ستدفع، كما أن التصميم الجديد مهم جدا ، ولكـــن صاحب المال قد يقرر : " إنه تصميم رائع، ولكن من قال إنني مستعد لشراء كـــل الأشياء التي أعتقد أنها رائعة " . ومن هنا تأتي خطورة المثـــال : إن= =كلفـــة التغيير لن تكون محتملة إلا في ظل وجود حكومة مركزية تبحث عن الاعتبـــارات الإستراتيجية ، وعن المنفعة بعيدة المدى ، أو في ظل قدرة المفكرين على تنفيـــذ أفكارهم وتحمل مخاطر الاستثمار فيها . تماما كما حصل مع سيدنا نـــوح عليـــه السلام عندما استثمر جهده في بناء السفينة، وكان معاصروه يهزأون بجـــهوده، ولكن الفكرة – النبوة – الرؤيا – الرؤية – التي كانت تحركه ، إضافة إلى إمتلاكه الخبرة اللازمة للعمل ، قد مكنته كلها من إنجـــاز مشـــروعه ، والإفـــادة منـــه . المشكلة مع مفكرينا ، ومع مخترعينا ، ومع شعرائنا ومع كـــل مبدعينـــا أنـــهم كسالى، يجأرون بالشكوى من البيروقراطية الحكومية، ومن جبـــن رأس المـــال [ليس مصادفة أن كلمة Capital تترجم إلى العربية بكلمة رأس المال ... لا بـــد من رأس ولا بد من مال]، ولم يستفد كل هؤلاء من الدرس الإلهي : لقد أعطـــى الله تعالى أنبياءه علما، ولكنه زودهم بآليات عمل ، فهذا نبـــي / مفكـــر / عـــالم ولكنه حداد، وذاك نبي ولكنه نجار ... الخ / وفي عالم الغـــد ، لا بـــد أن يـــأتي مفكرون يقلبون المعادلة الحالية ... من لديه كنز في رأسه يجب أن يكون جيبـــه=

وفي أغلب الأحيان ، فإنه لا يوجد في المجتمع أي خيار : إذ ينبغي علينا أن نقوم بالخطوة التالية من "موقع الذي نكون فيه في تلك اللحظة ، وربما نشعر أن الجامعات لم تعد بعد الآن تشكل الآلية المثلى للتقدم العقلي ، ولكننا نظل ملتصقين بها ، ولا نستطيع إغلاقها من أجل وضع تصميم جديد .

وبشكل تدريجي ، فإننا قد نجد شركة ما وقد أصابها الترهل،حيث يتم بناء المستقبل خطوة خطوة ولحظة بلحظة على الخط الأساسي الموجود.ولا يمكن أن تتوفر فرصة إعادة البناء بشكل جذري إلا بوجود مدير ديناميكي جديد ، أو ببيع الإدارة ، أو باستيلاء شركة أخرى عليها أو اندماجها بها ، وعند ذلك يمكن بيع أقسام من الشركة ، واقتطاع شرائح من الإدارة الوسيطة . ووقف عمل المشاريع غير المربحة وجلب أناس جدد . لقد مثل ميخائيل غورباتشوف في الاتحاد السوفييتي السابق ، دور المدير الجديد تماما ، والذي أوكلت له مهمة إجراء تغيير جذري في شركة كبيرة جدا ، كانت حتى فترة توليته تجر نفسها على طريق لا يتخذ إلا بالمكان الذي جاءت منه هذه الشركة ، وبالخطوة السهلة التالية *

=في حالة جيدة ، إنه يقود عملية التقدم ، ويجب أن يكون استثماره في رأسه مجديا له ولمن حوله . وعندما يكون المبدع مكتفيا من حيث حاجاته الأساسية على الأقل ، فإن الشاعر لن يظل جائعا بانتظار تعيينه في إحدى محطات الإذاعة ، ولن يظل المخترع يجوب أروقة المؤسسات البيروقراطية، بل سترجع الأمور إلى نصابها ، والمتمثل في قاعدة أن ذا العلم يؤتى ولا يذهب .

*** ولكن خطوات غورباتشيف كانت سهلة أيضا ، ولم يستطع تمويل مشروع إعادة البناء . لقد وثق بالعلاقات العامة كثيرا . ومن مفارقات تفكيرنا السياسي :أن=**

إن مجرى الماء يمكن أن يعثر على الاتجاه الأكثر سهولة في كل لحظة ، ولا يستطيع الماء أن يجري نحو الأعلى لأن هذا سوف يؤدي سريعا إلى انحدار اكبر في المجرى . ولا يستطيع الماء أن يقفز على ضفة النهر ، لأنه يعرف أن هناك سهولا موجودة سوف يغمرها الفيضان . وبشكل مشابه ، وفي عدد من الأمور فإننا ننهج النهج الأسهل والملائم ، والذي نلقى ثوابه فورا . لقد انتقلت الرياضيات بثبات من الأنظمة غير الخطية ، لأنها وجدت مجالات أخرى أسهل لها بكثير . كما أننا

=فشل العلاقات العامة على صعيد تعزيز صورة الدولة والزعيم وتحقيق المكاسب لهما أو لأحدهما، قد جعل كل الدول تلهث وراء محلات العلاقات العامة ، بدل البحث عن مكامن قوتها . لقد كان غورباتشيف منظرا جيدا، ولكنه كان سياسيا فاشلا . المنظر قد يرسم تصميما للبناء كما يقترح إعادة بنائه ، ولكنه لا يستطيع تمويل ذلك . كان غورباتشيف بحاجة إلى سياسي يعلن عن طرح الأسلحة النووية في مزادات دولية إن لم يتم إسعافه بالمال اللازم لتمويل اسقاط إمبراطورية بيروقراطية ، وبناء دولة حديثه . وكان بإمكانه الإعلان عن تأجير القوات المسلحة السوفيتية . سيقول قائل الآن إن هذه سياسة مافيا ، لا سياسة دولة ، ولكن الرد بسيط : أليس وجود دولة لها مافيات، افضل من وجود مافيات لها دولة ؟ محليا ودوليا، وحتى بالمعايير الأخلاقية التقليدية . إن ما حل من تطورات في الكتلة الشرقية (مع وإثر غورباتشيف) كان يجب أن يهز الولايات المتحدة ، لو كانت بعيدة (استخباريا) عن هذه التطورات . ولكن الأمر يبدو فعلا ، وكأن غورباتشيف مجرد (مدير) على رأي دي . بونو ، ومدير تنفيذي في الشرق على رأي الباحث الأمريكي نورد ديفيس في كتاب "درع الصحراء والنظام العالمي الجديد" .

نضع الكثير من الجهد العقلي في التاريخ لأنه خيار اكثر سهولة مـــن كثـير مـن الخيارات الأخرى .

وكلما تقدمنا عبر الطريق ، فإن كل خطوة تبدو هي الخطوة المعقولة اكثر مـن غيرها في الموقع الذي نكون فيه . وربما نجد بعد حين أننا قد انسقنا بعيداً جدا عن الغاية التي بدأنا نشاطنا من أجل الوصول إليها . وهكذا ، فإن البيروقراطيات تنمـو خطوة خطوة حتى تضعف خدمتها للغرض الذي أقيمت لأجله . وهناك طبقات مـن الأنظمة المتراكمة التي كان من المفترض أن تشحذ عملية صنع القرار ،أصبحـت تجعل من المستحيل أن يتم التوصل إلى قرار إطلاقا.

وفي عملية تفكيرنا ، فإننا نجد أنفسنا ننظر بجد اكثر فأكثر فى نفس الاتجـاه ، لأنه هو المكان الذي وضعت فيه خبراتنا ، واستثماراتنا العقلية . وعندها يصبـح الانتقال إلى اتجاه آخر جديد أمرا صعبا، والناس فـي آخـر الأمـر تسـتخدمهم مؤسسات موجودة فعلا وليس مؤسسات ينبغي أن توجد . *

*** الناس دوما أعداء ما جهلوا ، هذا من ناحية الموروث العربي القديم ، أما مـن ناحية علم النفس الإجتماعي فإن كل عوامل التنشئة تتظافر كي تخلق لدى الفـرد ثقة بالنظام القائم (النظام بمعناه الشمولي وليس السياسي فقط) ، ومع الوقـت يكتسب النظام ثقة الأغلبية ، ويظل هنالك المتمردون "أو البط الـبري" ، ومـن أمثلة هذه الثقة (غير المبررة) أحيانا ، أنك لا تثق بأي إنسان بأن يقود سـيارتك (طالما أنك جالس إلى جانبه) ، على حين تستطيع أن تسلم سيارتك لأي موظـف عندك، وهذا من مفارقات الأنظمة الإجتماعية : إنك لا تثق بقدرة نفس الموظـف على القيادة وأنت تجلس معه في السيارة ، ولكنك تثق بقدرته ، وتعطيه السيارة=**

=ليقودها وحيدا . كذلك أنت تثق بمهارة السائق الذي يقود سيارته على الجانب المقابل من الطريق السريع ، وإلا فإنك لن تستطيع قيادة سيارتك إذا كان عليك أن تتوقف كلما شاهدت سيارة مسرعة تسير على الإتجاه المقابل ولا يفصل مسربها عن مسربك المواجه له سوى نصف متر أحيانا ، ولكن ما يحصل أنك تستمر في قيادة سيارتك على مسربك ، ويستمر الآخرون في قيادة سياراتهم على المسرب المواجه ، وإذا حصل أن قفزت سيارة إلى مواجهتك من المسرب المواجه ، فإن ذلك صدفة / حادث وليس قانونا .

كذلك يحصل عندما تسلم أبناءك إلى روضة الأطفال صباحا: إنك لا تكاد تثق بأن يقضي طفلك يوما عند جدته ، ولكنك تسلمه مطمئنا إلى معلمة قد لا تكون تعرف شيئا عنها . وكذلك أيضا . فإنك قد تتردد في تسليم رزمة نقود إلى أي شخص تعرفه ، أما موظف المصرف ، فإنك تسلمه نقودك بكل ثقة واطمئنان . والنظام حريص جدا على هذه الثقة لأنها تعني بقاءه ، وأنت بحاجة إلى عشرات الحوادث حتى تفقد ثقتك بالنظام ، وتبدأ بالبحث عن نظام جديد . يحصل هذا في المؤسسات المحتاجة إلى التغيير ، وفي أساليب وأنظمة التفكير .

و من حسن حظ دعاة التغيير أن هناك كثرة قي المتناقضات التي تعصف بأي نظام مما يبقي نافذة الأمل مفتوحة ، ولنأخذ مثلا : إن بعض الدول تقرر مسؤوليتها عن (حماية) صغار المودعين إذا تعرض مصرف ما للإفلاس فمن أين ستحمي المودعين ؟ إن ذلك سيتم من جيوب مواطنين آخرين ؟ أما هؤلاء الآخرون ، فإنهم لا يجدون نفس الحماية ، ومن ذلك أن مبادرا برأسمال صغير قد ينهار مشروعه ، فلا يجد استعدادا حكوميا لتبني برنامج حماية " صغار المستثمرين " والمفارقة ، أن المستثمر أولى بالحماية من المدخر . وهكذا سيكون أساس=

ولا أريد أن أشير هنا إلى أن هذه عملية انسياق على غير هدى ، فهي ليست كذلك . وكل خطوة يمكن أن تكون لها غاية ، ولكن اتجاه هذه الخطوة يتقرر بشكل كامل تقريبا من خلال رؤية الموقف الراهن وليس من خلال البصيرة الداخلية – Vision .

=التفكير في النظام العقلي الجديد . أو أن تعلن الدولة أنها غير مسؤولة عن حماية صغار ولا كبار المودعين ، لأنها غير مسؤولة عن حماية قرارات الاستثمار ، وهي ليست صندوقا لتحمل المخاطر ، كما أنها ليست صاحبة مال أصلا، ولا يحق لها بموجب تعاقدها مع مواطنيها أن تتصرف ببعض أموالهم دون إذن خاص منهم .

تاسعا: الفراغ غير الموجود

لقد اتخذ أفلاطون موقفا قويا في معارضة أي ابتداع جديد في حقـل التعليـم . وإذا كنت تعرف حسب تعريفك الخاص ، أنك لست مصيبا فحسب ، وإنمـا علـى صواب مطلق ، فإن أي ابتداع لن يكون إلا خطوة إلى الوراء . *

---

* كما سبق القول ، فإن رفض أو عدم رفض التغيير لا يأتي نتيجة الموقف العقلي وحده ، إذن لهان الأمر . ولكن هنالك مصالح على الأرض تحتم منع التغيير . أي أن القضية ليست قضية مفاهيم ، ومقارعة للحجة العقلية بأخرى أقـوى منـها . ومثلا ، إذا كان التغيير في مؤسسة يتطلب تخفيض عـدد مـدراء الدوائـر مـن خمسين إلى عشرة فقط ، فإن الصراع بين الموظفين لا يقـوم علـى أي منطـق عقلي/ إن التبريرات العقلية تأتي لاحقة لتأييد موقف ورفض موقف / ولكنه يقوم على تضارب أو توافق مصالح المدراء المرشـحين للفصـل ، ومصـالح حملـة الأسهم، والنقابة المعنية ومراكز القوى في المؤسسة المعنية .
والمفكرون الذين يفيدون من أي نظام قائم لا بد أن يرفضوا التغيير ، مجندين كـل أمكاناتهم العقلية / على مستوى العقل الباطن أو غير الباطن / . كذلك الحال ، فإن بعض الدول أخرت إدخال الحاسوب إلى دوائرها ، لأن ذلك سيؤدي إلى تخفيـض أعداد الكادر البشري المطلوب ، أي إلى تسريح كثـير مـن الموظفيـن ، ومـن المفارقات أن تجد بعض المؤسسات تعمل بنظامي أرشفة وتوثيق: واحـد ضمـن ملفات ورقية (لملأ وقت بعض الموظفين بالعمل) وآخر ضمن ملفات إلكترونيـة على الحواسيب وغيرها . ويحصل ذلك عندما تتوازن مصالح دعاة التغيير مـع=

وفي مجال الممارسة العملية ، فإن هذا الشعور بأنك على صواب مطلق ، لا يشكل الصعوبة الوحيدة – فيما يتعلق بالإبداع في محال التعليم ، بل إن هناك حقيقة كون المنهاج الدراسي ممتلئا ، ولا توجد فيه مساحات فراغ ، وبالتالي ، فإن أي شيء جديد يجب أن يكون على حساب شيء ما موجود أصلا ولا بد من إزاحته (لإفساح المجال أمام الجديد) . ولماذا يجب أن يزاح شيء ما ؟ إما لأنه سيئ أو لأنه غير فعال . ولكن الحال ليس كذلك في أغلب الأحيان ، فمعظم الأشياء تكون موجودة لان لها قيمة ، أو لان كثيرا من الناس يعتقدون أن لها قيمة – على أهون تقدير .

إن كل معلومة يتم تعليمها هي ذات قيمة ، وكلما زاد ما لديك من معلومات، كلما زادت قيمة كل معلومة منها ، لأنها تبني وتضيف إلى ما هو موجود كائنا ما كان وربما كان من المكن أن تملأ كل ثانية من وقت المنهاج بمزيد من المعلومات، وتظل على الرغم من ذلك بحاجة إلى ثلاثين سنة من التعليم المدرسي كي تتعلم مجرد جزء بسيط من المعلومات المتوفرة * . وما لم نصل إلى حد من الكمال

=رافضيه ، وهذا التوازن ليس شرطا أن ينجم عن تفهم لمصالح المؤسسة المعنية نفسها .

*** في الماضي ، كانت الثروة المعلوماتية قليلة، أي أن المشكلة كانت في ظل النظام العقلي القديم تكمن في كيفية الحصول على كم من المعلومات، أما اليوم، فالمعلومات متاحة وفيها وفرة ولم يعد الحصول عليها مشكلة ، بل صارت المشكلة في كيفية معاملة ومعالجة المعلومات . في الماضي، كان لا بد من استخدام ومعرفة المعلومات الموجودة ، وتصنيفها وتحليلها من أجل توليد=**

والمعرفة الكاملة التى تجعل التفكير ضروريا ، فإننا لا بد أن نصل نقطة يصبح فيها تعليم مهارات التفكير العملياتى (وليس المهارات الانتقادية فقط) عملا اكثر فائدة من اجل تطبيق المعلومات المتوفرة . وعلينا عند هذه النقطة أن نتخذ قرارا بالتخلى عن بعض وقت المعلومات مهما كان ثمينا من أجل تكريس وقت ما لعملية التعليم المباشر للتفكير كمهارة . وقد بدأت بعض الدول الأكثر تنورا وكذلك بعض المدارس بعمل ذلك .

إن هذا المثال من حقل التعليم يكشف عن مشكلة رئيسية من مشاكل التفكير الجديد . فحتى لو كان هنالك شيء جديد لا يقتضي وقف شيء قديم ، فإننا لن نجد متسعا له . ذلك أن الناس والوقت والموارد مجهدة إلى أقصى حد ، بل إن هنالك بالفعل مجالات تتعرض للاقتطاع في الموارد المتاحة لها .

=المزيد من المعلومات منها، أما في المستقبل ، فإن جزءا من المعلومات الموجودة قد يفيد ولا بد من تجاهل معلومات كثيرة أخرى من أجل عدم إثقال الدراسة بآلاف الصفحات . ولهذا تطبيقات عملية مهمة، ففي الماضي كان لا بد لأية أطروحة جامعية أن تورد الدراسات السابقة ! أما اليوم، فإن البحث في الدراسات السابقة في أي موضوع قد يحتاج آلاف الصفحات !! وفي الماضي كان لا بد من التشدد في إيراد المراجع لكل جملة يكتبها الباحث ، لأن المطلوب هو البناء على ما هو قائم ، أما المستقبل فهو بحاجة إلى المعلومة أو الفكرة الجديدة كما هي . إن هذا تطور طبيعي تماما، فعندما تكون المواد الخام محدودة لديك، فإنك تبذل قصارى جهدك في تنويع تصنيعها ، أما إذا كانت المواد الخام كثيرة ، فإنك قد تكتفي بصناعة واحدة من كل مادة خام .

وتكمن المفارقة في أننا كلما تقدمنا على طريق المستقبل ، كلمـــا أصبحــت الحاجة إلى التغيير اكبر واكبر ، وذلك من أجل مواجهة التغيرات في أعداد السكان أو التلوث ... الخ، وكذلك من أجل استخدام تقنياتنا الجديدة إلى أقصى حدودهـــا ، وعلى الرغم من تزايد الحاجة إلى التغيير ، فإن إمكانية حدوثه تقل وتقل ، لأن كل شيء مشغول جدا إلى حده الأقصى .

إن القائد العسكري الحكيم لا يشغل كل جنوده ، ولكنه يبقى علـــى احتيـــاطي استراتيجي يمكن استخدامه عندما تظهر الحاجة أو تسنح الفرصة . أما المجتمع فلا يفعل فعل القائد الحكيم هذا لأننا نعتقد أن كل قواعدنا مغطاة ، وأن التقـــدم ســـوف يحصل من خلال التطور ، ومن صدام الآراء ، ومن مجدد فرد يظهر بيـــن فـــترة وأخرى .

إضافة إلى تخصيص المبالغ للأبحاث ، فـــإن معظـــم الشـــركات الناجحـــة تخصص أيضا مبالغ لأقسام العمل الجديـــدة أو المجموعـــات المخـــاطرة ،وهـــذه المجموعات –مثلها مثل قوات الاحتياطي الاستراتيجي عند القائد –تظـــل خـــارج عمليات القتال اليومية ، باحثة عن فرص جديدة .

ولا تستطيع الديمقراطية أن تحتمل مبدأ الاحتياطي الاستراتيجي هذا بســهولة، لأن الموارد غير المخصصة لأعمال محددة سوف تكون هدفا لكل دائرة أو قضيـــة

تشعر أن تمويلها دون المستوى . صحيح أن هنالك مبالغ للطوارئ ، ولكن ليس ثمة متسع ولا موارد من أجل التغيير * .

---

* إن كل قضية بحاجة إلى مجموعات ضغط تتبناها . والمستقبل العقلي لا يحظى بتأييد جماعات الضغط الموجودة في أي مجتمع لأنها تدافع عن الحاضر فقط . والدليل أن كل الدول تحسب ما لديها من العملات الأجنبية سنتا سنتا ، أو مليما مليما ، ولكن لا توجد أية إحصاءات عن القدرات العقلية المتاحة لهذه الدولة . هل يعرف المسؤولون في الحكومات ، الإمكانات العقلية لأبناء جلدتهم أو مواطنيهم ؟ هل يعرفون كيف ستكون الخارطة العقلية للمواطن بعد خمس سنوات؟ أو كيف سيكون الموقف العقلي (للوطن)ضمن بيئته الإقليمية والدولية بعد خمس سنوات ؟ ؟ هل توجد احصاءات واضحة لمدخلات تشكيل التفكير حتى على مستوى القراءة والمطالعة للناس ومعرفة ما يقراون ؟ وما يكتبون ؟ إن المستقبل العقلي بحاجة إلى جماعة ضغط قوية حتى يمكن لمؤيدي السياسات قصيرة النظر أن يعيدوا تقييم مواقفهم ، لأن القضية ليست قضية موارد كلية، بل هي قضية توزيع موارد ، وليست نقصا في الوقت ، بل هي قضية توزيع وقت. في الحاضر ، يبدو زعماء الدول الأشد فقرا أكثر ثراء (شخصيا) من زعماء الدول الصناعية المتقدمة ، أما في المستقبل ، فإن الوضع لا بد أن يختلف ، لأن النظام العقلي الجديد لا بد أن يحمل آليات مراقبة أداء لكل العاملين مهما كانت مواقعهم. وفي الحاضر ، يحاول المدير أن يشعرك بأن لا وقت لديه، إن ضيق وقته دليل على أهمية المهنية أو العقلية ، أما في ظل النظام العقلي الجديد،فإن المدير الناجح يجب أن يظل لديه متسع من الوقت لكل ما هو جديد، من خلال ابتكار وسائل وآليات عقلية مختلفة لإدارة الوقت . إن مطالعة تقرير من ثلاثين=

إن نفس الشيء ينطبق على مستوى التفكير ، فالشخص الـــذي يعـرف كــل الاجابات ، ولديه رأي في أي موضوع تكون لديه يقينية مدعومة بالجدل وبالتـــالي تقل كثيرا إمكانية إحرازه لأي تقدم جديد . ولا يحتمل أن يخرج مثل هذا الشـــخص من أية مناقشة بأكثر من إعادة التأكيد على انه كان مصيبا طيلة الوقت .

=صفحة، قد تأخذ الآن ساعة من وقت مدير ، ولكن تدريبا مناسبا ، مـــع توفـــير أجهزة عرض مختلفة قد تجعله ينهي العمل في وقت أقل من ذلك بكثـــير، كذلـــك الحال، في إدارة الاجتماعات، لأن القرار الذي يتطلب مناقشة على مدار ساعتين ، قد يكون بالإمكان الوصول إليه خلال خمس دقائق ، باختيار التقنيـــات المناســـبة لعرض وجهات النظر، إذ يمكن الإقلاع عن تقليد مناقشة كـــل شـــيء مواجهـــة ومشافهة ، ومعالجة بعض القضايا من خلال الاقتراع المباشر على اقتراحات كـل منها لا يزيد عن صفحة واحدة . أما في التعليم ، فـــلا أدري مـــن أيـــن يقتنـــع القائمون عليه بأن ابن العاشرة يمكن أن يستمر في الاستماع الإيجابي إلى المعلـــم طيلة 45 دقيقة؟ هل يستطيع البالغ أن يركز جهوده في الإصغاء طيلة هذه الفـترة؟ إن درس التاريخ الذي نطمع أن يستوعبه الطالب يجب أن لا يزيـــد عـــن عشـــر دقائق بأي حال ، لأن المطلوب إثارة ومضات معينة لتعليم أسلوب التعـــامل مـــع الحدث أو الشخص موضع البحث، وليس حفظ المعلومات المتعلقة بالموضوع لأن هناك أماكن أخرى أفضل من فم المعلم لاستخراج هذه المعلومات ، وهناك آليـــات لحفظ التفاصيل أكثر كفاءة من عقل الطالب ، فلهذا العقل وظيفة / وظائف أكـــثر أهمية بكثير .

عاشرا: التغيير بالتطوير ؟

في أحياء الجيتو (اليهودية المغلقة) . فإن الناس الأكثر ذكاء كانوا يميلون إلى البقاء في الغيتو ، لأن ذلك يمكنهم من جعل النظام ينجح * . (إن برنارد شـو) هو الذي قال إن التقدم كان يأتي دوما على أيـدي أنـاس غـير معقوليـن ، لأن المعقولين إنما يريدون أن يستخدموا أي نظام كما هو ، ولا يريدون تغييره .

ومثل ينبوع متموج آخذ في التباطؤ كي يصل إلى حالة مستقرة ، فإننا نعتقـد أن معظم مفاهيمنا ومؤسساتنا تكاد تصل حد الكمال [1] وقد تكون هناك حاجة إلـى

---

* ليس هنا مكان الخوض في البنى العقلية التي أدت إلـى إنشـاء المعـتزلات أو الجيتوهات . فعقليات من بنوا هذه المعتزلات ودوافعهم مختلفة ، وكذلك عقليـات من كانوا يستقرون فيها ، حتى لو توفرت لهم بدائل أخـرى . وإطـلاق أحكـام (مطلقة) من مثل الأكثر ذكاء، وتحديد أنهم كانوا يفضلون البقاء في الجيتو ، ثـم تحديد السبب الكامن وراء ذلك ، وهو الرغبة في جعل ذلك النظام ينجح، كل ذلـك تقرير للتاريخ من وجهة نظر ذاتية .

† هذا على الجانب الفني، كما يقول دي. بونو وغيره ، أما من حيـث الصـورة الشمولية ، فإن عالمنا عملاق في التقنيات، ولكنه لا يزال طفلا فـي المعنويـات والأخلاقيات. لقد حاولنا قصر الحوار على ما يمكن الإتفاق عليه من أطر التفكير ، كي يكون الحوار ممكنا، وكي نجد نقطة بداية . أما عندما يصـل الحـوار إلـى مؤشرات الكمال ، فلا بد من الإشارة إلى أن هذا النظام الحالي نظام دنيوي عاجل، يقصر عن بلوغ الرسالة الأساسية لعمل الإنسان على الأرض ، المتمثل في العمـل على أن تكون كلمة الله هي العليا، ويقصر عن بلوغ الغاية الأساسية للحيـاة ،=

بعض من حل المشاكل هنا وهناك ، أو إلى بعض التعديلات تجاوبا مع الظـــروف المتغيرة ، إلا أننا لا نتصور ، أو حتى لا نرغب في إجراء أية تغييرات رئيســية . وحيث لا توجد ديمقراطية أو عدالة ، فإننا نعبر عن أملنا بحصول هــذه المنـاطق على هذه العادات .

إن المصطلح البارز للتغيير هو التطور التدريجــي ، حيــث أن الضغـوط المختلفة (من بيئية واقتصادية) وكذلك الحاجات المختلفة (من مثل ارتفاع مستوى المعيشة والنوعية العرقية) سوف تشكل عملية تطورنا ، وتدفعها بهذا الاتجـــاه أو ذاك بين فترة وأخرى ، وسوف تتقدم الضغوط على العملية السياسية ، أو أنها على الأرجح سوف تمارس على العملية السياسية جراء التغييرات في الوجدان الشعبي.

أما التغييرات التقنية فسوف تأتي من كبريات الشركات ، والجامعات والمعاهد المهنية المدفوعة والمحركة في هذا الإتجاه . أما التغييرات في الوجــدان الشــعبي

=كمعبر إلى حياة أخرى دائمة . ولذلك يظل حامل الفكر الإســلامي بيــن خــوف ورجاء، ولكنه لا يصل أبدا حد الرضا عن الذات، وعن الإنجازات، لذلك يظل لديــه دافع ذاتي لعمل المزيد ، وللبحث عن الأفضل في كل شيء . وعندما تكون هنـــاك مناطق تفتقر إلى العدالة ، فإن عليه واجبا ، أن يدعو إلى التغيير ، وأن يباشــره إن استطاع فلا توجد في التفكير الإسلامي السليم قضية سياسة خارجية ، وأخرى داخلية ، لأن المطلقات التي يسعى إلى الدعوة لها لا تعترف بـــالحدود الأرضيـــة كحدود أمام عقله وعمله للصالح الإنساني العام . إن كل قضيـــة معانـــاة تعنيـــه مباشرة .

فسوف يقودها أفراد ، ولكنها ستظهر بشكل أكبر من ذلك كتيارات تبـــدأ صغـــيرة وتتصاعد تدريجيا بحيث تصبح نمطا جديدا جبارا .

وسوف يدافع عن النظام دائما أناس لا عد لهم ممن يتمتعون بعقل كــــاف لأن يدافعوا ، ولكنه لا يكفي كي يبدعوا . وسيظل هناك كثير من الناس ، يعتقـــدون أن أي تغيير مهما كان سوف يهدد الأمان الذي يحظون به في مواقعهم . وأبعــد مــن ذلك , فحيث أننا لا نستطيع أن نرى نتائج أي تغيير بشكل كامل قبل وقوع التغيير ، فإننا نفضل أن نتجنب المخاطرة بإجراء ذلك التغيير .

وسوف تحصل أزمات رئيسية تجعل التغيير جبريا ، مثلما حصل عندمـــا ارتفعت أسعار النفط وفرضت الإقتصاد النفطي ، أو مثلما أجـــبر ارتفـــاع اليـــن اليابانيين على تحفيز الطلب المحلي على المنتوجات * . أما من ناحية سياسية ، فإن

***هذه أزمات ولكن لا أدري لماذا اعتبرت أزمات رئيسية : الأزمة الرئيسية يمكـــن أن تحصل إذا انهارت الأسواق المالية بشكل مفاجئ ، نتيجة أخطاء اتصالات ، أو نتيجة مواقف جهات مسيطرة تجعل الإنسحاب من البورصات وسيلة لإحداث ضغط سياسي ما . أو عندما تحصل موجة من الزلازل تطيح ببعض المفاعلات النووية – من جملة ما تطيح به، أو عندما تتم تصفية الأمم المتحدة مثلما تصفـــى أيـــة شركة على شفير الإفلاس ، أو عندما يتم اكتشاف مخـــدر مـــا ســـهل التـــداول والتهريب ، إن ما وصفه دي . بونو بأنه أزمات رئيسية استوجبت التغيير ليســت إلا حوادث عارضة ومشاكل واجهت النظام العام واستطاع التعامل معها ، سلبا أو إيجابا ، ولكنه نجح ، وحافظ على البقاء . أما الأزمات الرئيسية التي نتوقعها فقد تقوض بعض أركان هذا النظام تماما ، إذا أدت إلى هز الثقة بالنظام المـــالي، أو=**

التغيير الذي تفرضه أزمة ما يكون اكثر تقبلا بكثير ، لأنه يكون من الواضح عند حصوله أنه لا بد من عمل شيء ما . كما أن النجاة من أزمة تعتبر انجازا بحد ذاته.

إن بعض الأفكار يمكن أن تبدأ وتنتهي إلى لا شيء ، مثلما حصل مع تبسيط قواعد تهجئة اللغة الإنجليزية . وهناك أفكار أخرى يمكن أن تبدأ وتحرز تقدما ، ثم تموت سريعا . وهناك أفكار قد تثبت أقدامها مثل المحافظة . وهذه هي سنة التطور . كما أن الضغوط التطورية سوف يغذيها التفكير النقدي ، والتصور الذاتي الموجود في معظم الأنظمة ، وكذلك الرضا العام .

فهل ثمة خطأ في مثل هذا النموذج التطوري المريح ؟

تخيل لعبة ما ، يعطيك فيها أحدهم أشكالا من الورق المقوى حيث يعطيك شكلا ما في كل مرة ، وتكون مهمتك هي أن تستخدم الأشكال على أفضل وجه ممكن ، ويعني ذلك أن تصل إلى عمل شكل متماسك يمكن أن تصفه مشافهة على الهاتف . وهكذا ، فإنك تضع القطع الأولى التي تحصل عليها مع تلك التي تحصل عليها بعد ذلك ، من أجل أن يتكون لديك مستطيل آخر اكثر طولا ، وفي الخطوة التالية ، تحاول أن تضيف قطعتين جديدتين ، فتكون النتيجة أن تحصل على شكل غير بسيط . ومن أجل أن تواصل اللعب ، فإن عليك أن تعود وتفكك المستطيل

=الشرعي الدولي ، أو الإجتماعي الداخلي . وعندها فإن التغيير قد لا يكون ممكنا حتى لو كانت الحلول موجودة في تصورات البعض .

الأول ، وتصنع مربعا ، والآن يمكنك أن تضيف القطع الجديدة من أجل أن تحصل على مربع أكبر .

اللعبة بسيطة ، ولكن المبدأ هام جدا ، ذلك أننا في كل مرة نقوم بالعمل المعقـول أكثر من سواه ، ونسعى إلى أن نوحد الجديد الذي يأتينا مع ما لدينا أصلا. ولا مفر في مثل هذا النظام من أن نصل إلى وضع يحتم علينا كي نتقـدم أن نرجـع إلـى الوراء –كي نفكك شيئا ما كان يبدو الخيار الأفضل في حينه . ويحصل هـذا لأن اتجاه التنظيم يعتمد على ما لدينا ، وليس على ما سوف يأتي تاليا . وعلـى سـبيل المثال ، فإن عاداتنا الديمقراطية تعتمد على ما لدينا (لقاءات واجتماعات) وليـس على ما قد تحققه تقنيات الاتصالات .

ولا ينطبق هذا المبدأ على الألعاب المصطنعة بقطع الورق المقـوى فحسـب ، ولكنه ينطبق أيضا على أي نظام واسع ذي خاصتين : توفر المدخلات على فـترة من الزمن ، والحاجة إلى التوصل إلى أفضل استخدام ممكن لما هو متوفر (مـن هذه المدخلات) .

وتكمن المشكلة في أننا لا نستطيع أن نكتفي بالبناء من حيث نحن ، بل ربمـا نحتاج إلى العودة كي نفكك أشياء معينة سبق أن بنيناها ، وذلـك مـن أجـل أن نمضي قدما . وفي كثير من الحالات نجد أننا لا نستطيع أن نرتب القطـع معـا بطريقة جديدة ، إلا عندما نحرر القطع من أسلوب تشكيلها القديم الـذي لا يمكـن تطبيقه (مع الإضافات الجديدة) . والتفكير بطريقة تدعو إلى إزاحة القديم من أجل البدء بالبناء الجديد ، كان يشكل دائما مبررا للثورة . والمشكلة مع الثورة أنها تنحو

إلى استبدال نظام قصري بآخر بكل بساطة ، فرغم أن القطع ربما تكون قد وضعت في أمكنة خطأ إلا أنه لا يوجد وقت لإعادة ترتيبها بطريقة أفضل .

أما المشكلة الثانية مع النموذج الثوري فهى تتمثل بالتالي : كما في عالم الحيوانات ، حيث لا تستطيع الحيوانات عمل الكثير من أجل أن تسيطر على بيئتها. وبالتالي فإن الأنواع التي لا تتكيف بشكل جيد تتعرض إلى الانقراض ، كذلك الحال في عالم البشر حيث يستطيع نظام ما أن يسيطر على البيئة بشكل جيد كي يحافظ على بقائها . كما أن هذا أيضا هو السبب الذي يجعل الماركسية قد تبدو مقبولة كنظام سياسي ، وغير مقبولة كنظام حكم ، لأن الماركسية ما أن تصبح في السلطة حتى تزيل إمكانية إحداث تغيير مستقبلى . إن لكل الأنظمة السياسية نفس الطموح ، والفارق الوحيد يكمن في أن بعضها اكثر فاعلية وفظاظة في تحقيق هذه الطموحات . *

إن هذه السيطرة على البيئة من أجل ضمان بقاء النظام القائم هي نفسها التي تحصل في عملية المعتقدات ، وكما رأينا هناك ، فإن المعتقد يصنع مدركات

---

* **يبدو أن الحديث عن الثورة مقصور على الماركسية ، والحديث عن الماركسية مقصور على الاتحاد السوفييتي . وهذه إحدى إفرازات التشويه المتعمد الذي تحدثه وسائل الإعلام في مدركات البشر . إن معظم سكان العالم قد اقتنعوا أنفسهم بما سمعوه طيلة سنوات التسعينات عن إنهيار دول المعسكر الإشتراكي... وإذا كان يحق للولايات المتحدة أن تنسى الصين ، فلا يحق لها أن تنسى كوبا ، أم لعل فلسفة الحكم في الدولتين رأسمالية ، مثلهما مثل كوريا الشمالية ؟**

تضمن أن ما نراه يؤيد ما نعتقده . كما أن النظام الديمقراطي يقيم صحافة حرة تكون رأسمالية في العادة ، ذلك أن المصلحة أكثر قابلية للبيع من (المبدأ) . أما الأنظمة المستبدة فتقيم صحافة مسيطرا عيها بالتراخيص ، وبتوفر طباعة الأخبار وبالتهديد بفقدان الوظيفة .

إن نظام الاعتقاد المغلق هو نفسه نظام النسق الذي يناقش عادة في العلوم ، فالنسق هو نموذج عقلاني محدد ننظر من خلاله إلى العالم ، والأفكار الجديدة سيتم استبعادها إذا لم تكن تتلاءم مع النموذج الموجود ، إلى أن يصبح الدليل قاطعا على وجود حاجة لإجراء تغيير في النسق .

إننا نستطيع أن نعتقد أن عملية الجدل والاختلافات الطبيعية يمكن أن تحدث تغييرات كبرى ، ولكن تجربة العلوم برهنت على أن الأمر ليس كذلك ، حيث أن الجدل والاختلاف هي عمليات تحصل داخل الإطار الموجود أصلا ، وتنتج تعديلات ثانوية ولكنها لا تحدث تغييرا في النسق بنفس القدر . ولا يمكن أن تقوم بأي نوع من النقاش بين فريقين إذا كان أحدهما يتحدث اللغة الإنجليزية ،على حين يتحدث الفريق الآخر بالفرنسية ، وبشكل مشابه ، فإذا كان كل فريق قد جاء من نسق مختلف عن الآخر ، فلا يمكن أن تتم أية مناقشة بينهما ، كما أن الشخص الذي يعرض النسق الجديد يتم استبعاده بكل بساطة على أنه " مخبول " (كما وصف السيد المسيح عليه السلام من قبل معظم معاصريه) * .

*** هذا الإتهام ووجه به معظم الأنبياء والمصلحون الجذريون / إن مصطلح جذري أشمل لغايات هذه الحوار من مصطلح ثوري / إن الجهات التي يهددها التغيير=**

إن كل التعليقات التي وردت في هذا الكتاب سابقا تجـــاه السـلوك الطبيعـي للأنظمة المنمذجة الذاتية التنظيم في الدماغ ، تنطبق بشكل مساو على المجتمــــع ، فهو أيضا نظام ذاتي التنظيم . وبدل النماذج توجد إدراكات ومؤسسات وإجـراءات، وبسبب قناعتنا بالنموذج التطوري ، (واعتقادنا بأن البديل الوحيد له هو النمـــوذج الثوري) فإننا لم نحاول أبدا أن نفهم بشكل حقيقي عمليات التفكـــر أو التغيـير أو التصميم .

إننا نخشى الأفكار الخيالية المصممة لأنها غير واقعية وغير مجربة وتعتمـد على توقعات منافية للعقل حول السلوك الإنساني ، كما أن من المستحيل التحـــول إليها . إننا نخشى التصميم عموما لأننا نعرف أنه يمكن أن يذهب في اتجاه خاطئ ، على حين أن التطور تحديدا يظل في الاتجاه الصحيح دومـــا . إننـــا نســافر فـي طائرات مصممة ، ولكن ليس لدينا معادلات اجتماعية لمسارات الرياح يمكـــن أن نختبر الأفكار فيها قبل أن نطلقها في الهواء . وهكذا فإننا نقتنع بـــترك الضغــوط تتولى التصميم نيابة عنا مطلقين على هذه العملية اسم التطور .

ولو أن 42 بالمئة من الناخبين تظل لديهم سيطرة مطلقة على الحكم مدة 15 سنة (عبر مثال حكومة تاتشر في بريطانيا)* ، فإن هذا الأمر مقبول ، لأن هذه هـــي

=تسارع إلى إطلاق صفة الجنون على المطالبين بالتغيير ، لأن المطالبة لا بـد أن تنطوي على تغيير في آليات تفكير العقل .

*** مارجريت تاتشر سياسية بريطانية من مواليد سنة 1925 ، ظلت رئيسة للـوزراء طيلة احدى عشرة سنة، وحاولت تشكيل السياسة البريطانية في الثمانينـــات مـــن**

الطريقة التي يقوم عليها النظام حيث أن السيدة تاتشر كانت شخصية بـــارزة ولأن أية حكومة في السلطة يجب أن تأخذ في الحسبان آراء الناخبين كلهم من أجـــل أن تعود إلى السلطة في الانتخابات القادمة , ولكن النظام ليس شيئا لا يطاله التطوير .

وحتى لو كانت الأنظمة من غير المحتمل أن تتغير ، فإن هناك حاجة واعية في أغلب الأحيان لإيجاد أفكار جديدة في مجالات معينة مثل ديـون العـالم الثـالث ، وتكاليف الرعاية الصحية ، والرفاه وإدارة القانون ،وارتفاع معـدلات الجريمـة ، ومشكلة المخدرات ،فمن أين ستأتي الأفكار الجديدة في هذه الأمـور ؟ بالطريقـة المعتادة: من جمع المعلومات، ومن تحليـل المعلومـات ومـن تطبيـق المبـادئ الأساسية، ولكن هذه الأمور لا تزال تصرخ مطالبة بأفكار جديدة ، ولكننا لا نفـهم التفكير القصدي وليس له مكان عندنا ، وأفضل ما نسـتطيع عملـه أن نقـول إن الأفكار سوف تأتي وكل ما يجب علينا عمله هو أن نبقي عيوننا مفتوحة بانتظـار هذه الأفكار . إننا نستطيع القيام بما هو أحسن من ذلك بكثير لو أننـا أدركنـا أن تحليل المعلومات ، من غير المحتمل أن يؤدي من تلقاء ذاته إلى إنتاج أفكار جديدة.

إن الاقتصاد يمكن أن ينجح بوجود بعض الأفكار الجذرية الجديـدة ، فلقـد أصبحنا بارعين في التلاعب بالقطع الموجودة بشكل أسرع وأسرع وكذلـك فـي عمليات التكيف مع أسعار الفائدة وأن تتجاوز معدلات التضخـم ، ومـع أسـعار الصرف ، ومع الاستثمار الإنتاجي ، وقطاع الإسكان إضافة إلى أمور أخرى علـى الرغم من أن عددا من هذه الأمور يتناقض مع عدد آخر منها من الناحية السلوكية.

خلال النهوض الاقتصادي وتهميش دور الاشتراكية ونقابات العمال، وعلى الرغـم من قوة شخصيتها وبلاغتها إلا أنها لم تنجز الكثير على أرض الواقع.

وكذلك ، فإن التطور الالكتروني ربما يسمح لنا بأن ننتقل من اقتصاديات " الماء " إلى اقتصاديات " الجليد " ففي الأولى يكون التدفق حسب درجة الميل أو الانحدار ، على حين يكون في الثانية حسب درجة الحرارة .

إن أية شركة تأخذ تجاه التغيير نفس الموقف الذي يأخذه المجتمع ككل ، سوف تخرج من مجال عملها في غضون سنتين . كما أن المراوحة أماما وفي منتصف المسافات قد تحمينا من الغلواء ومن الكوارث ، ولكنها تمنعنا أيضا من استخدام الموارد المتوفرة * إلى أقصى حد مؤثر لها .

*** هل ندخل في حوار نظري حول تخبط البشرية فكريا من أيام كونفوشيوس مرورا بأفلاطون إلى جان جاك روسو ، وحتى دي . بونو ، كي نخلص إلى القول إن تفكير الإنسان عاجز عن رسم صورة شمولية تفسر له كل شيء ، وأن الأديان جاءت لهذا السبب . سهل مثل هذا الاستنتاج . ولكنه لا يحل المشكلة ، لأن المطلوب هو صيغ محددة، وبدائل يمكن أو لا يمكن التفكير فيها . إن المشاكل كثيرة ، وهي مرشحة للزيادة الأفقية والعمودية معا ، كما أن الكثير من الركام لا بد من إزالته قبل التوصل إلى جوهر الأشياء . إننا بحاجة إلى الاقتناع أولا بوجود هذه المشاكل، وهذه مرحلة لا يمكن أن نفكر فيها إلا ضمن قواعد التفكير المعيارية المقبولة لدى البشر الذين يشتركون معنا في العمل أو التفكير . أما الخطوة الثانية فهي البحث عن حلول ، ولنتذكر أنه كلما زادت حدة المشاكل ، كلما صار الناس أقل ميلا إلى الحوار ، أو حتى التفكير ، وكلما صاروا أحوج إلى خطوات عملية ، وبالتالي ، فإن علينا أن نستعمل الفترة الإنتقالية من أجل= =تطوير آليات ووسائل التفكير . قبل أن يدهمنا الوقت ، فالمشاكل البيئية لم تعد**

مجرد محاولة لإقناع الأولاد بالحفاظ على شجرة على سفح الجبل (مع أن هذه مسؤولية ، ومسؤولية خطيرة) بل صار لا بد من التفكير في الأشعة الشمسية ، أشعة القمر ، والرياح ، والبرق ، والرعد ومدى إمكانية (التعاون) مع هذه الظواهر لحماية الكوكب . والتلوث لم يعد قضية تتعلق بالمحيطات، أو استخدام بعض الدول كمقابر للنفايات السامة، بل صار التلوث خطرا يهدد كل بيت ، حتى من بيوت من حاولوا إبعاد هذه النفايات خارج حدود دورهم . فهل نكتفي بالمراقبة ؟ وترك الأشياء تحدث . أم لا بد من التفكير بما يمكن عمله ؟ ماذا يمكن أن تعنيه عمليات نقل الجليد إلى المناطق الأكثر تصحرا . وما الذي تعنيه عمليات نقل التراب الخصب من مناطق إلى أخرى على هذا الكوكب ؟ وهل بالإمكان ضخ هواء نقي في مناطق طغى عليها التلوث الصناعي؟ هل هناك قدرة على ضخ حزام هواء ما حول الكرة الأرضية؟ هل هناك إمكانية لتنقية الجو من بعض الملوثات؟ هل يمكن أن نفعل عمل دورة الطبيعة أو أن ننشطها بما يتناسب مع زيادة التلوث ؟ هل دورة الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون العادية كافية ؟ ما هي البرامج التفكيرية التي وضعناها حتى الآن من أجل الإفادة من التقنيات ؟ هل بالإمكان تخصيص مساحات من منازلنا لمشاغل صغيرة تحول فيها النفايات إلى مواد مفيدة ؟ ومن هم حلفاؤنا في توفير الغذاء الكافي للبشر ؟ وما هي آليات التفكير التي يجب أن نفعلها لإشباع حاجة الجنس بشكل سوي مقبول بحيث نخفف من المساحة التي يحتلها الجنس الآن في مساحات تفكيرنا؟ كيف يتحول الزواج قبل إنهاء الدراسة الجامعية إلى عمل مقبول ؟ بل لماذا يظل الشباب معالين حتى انتهاء الجامعة ؟ لماذا لا تكون الجامعات مراكز أبحاث علمية= =وتدريب مهني وفرص عمل في نفس الوقت . لنأخذ مثالا : أيهما أفضل: جامعة

فيها عدد من الكليات والتخصصات العلمية والأدبية يتخرج منها طلاب بعد أربع سنوات كما هو النسق الحالي في التفكير والممارسة ، أم جامعة بكلية واحدة للزراعة النباتية ، فيها مزارع تستخدم للأبحاث والتطبيق العملي ويشغل فيها الطلاب ؟ لأن كل طالب يحتاج سنوات خبرة بعد تخرجه يمكن اختصارها في حالة كهذه ؟ كذلك شركات الكومبيوتر : لماذا لا يكون لشركة جامعتها المتخصصة بإنتاج الأجهزة و/ أو البرامج وصيانتها ، وتشغيلها ،وتسويقها ، هل يعقل أن يدرس طالب التسويق تسويق كل شيء ؟ هل يستطيع الإبداع؟ أم لا بدّ أن يتخصص منذ البداية في تسويق أجهزة وبرامج الحاسوب ، فيكتسب تكثيف وقته، وخبرة سنوات الدراسة ، وتوفير النفقات التي يتحملها غيره لتدريسه ، بحيث يتغير النسق كله. حقاً ، إن التقدم الصحي مهم ، ولكن ضغوط العصر تقلل عدد السنوات الإنتاجية للفرد بشكل كبير. وعندما نحسب لدولة صغيرة تتكون من ستة ملايين نسمة فقط ، فإن النتائج تظهر أن لرعبنا ما يبرره :

عدد السكان : 6.000.000

عدد السنوات الإنتاجية : 6000000×25- 150000000

عدد سنوات الإعالة : 6000000×50- 300000000

كما ومن المؤمل أن يحدث بعض التطور من خلال فهم أفضل للتفكير المطلوب للتغيير ، ومن خلال تخصيص اهتمام وموارد محددة لهذا المجال .

ما جدوى الحديث عن زيادة المتوسط العمري للفرد ؟ إنه يعني زيادة سنوات الإعالة التي على المجتمع أن يدفع ثمنها . والآن ، إذا رفعنا عدد السنوات الإنتاجية 7 سنوات [4 سنوات من الدراسات الجامعية + 3 سنوات من التعليم= =المدرسي يتم تحويلها إلى سنوات علم وعمل] فإن الفارق سيكون ضخماً بكل المقاييس ، يكفي عندئذٍ أننا سنحصل على أجيال يرتبط العلم لديها مع العمل ارتباطاً لا فكاك منه لأن طول سنوات التعليم (من دون عمل) ، ثم زيادة سنوات العمل (من دون تعليم ذي بال) تعمق الهوة بين مفهوم العلم (حين يكون الشخص بحاجة إلى حضانة غيره له) وبين مفهوم العمل (حين يكون الشخص فيه مسؤولاً عن إعالة أفراد آخرين) .

كثيرة هي الإطارات والمسارات التي لا بد من تصميمها والتفكير فيها إذا كنا نريد المستقبل أولاً .

حادي عشر : التزيين وقدح الزناد

لو كان مقدارا للإعلان أن يصبح فعالا بشكل حقيقي ، لما استطاع المجتمع تحمله، ولهذا السبب فأننا لم نسمح بالإعلان الذي لا يدخل ضمن نطاق الوعي ، أما في المستقبل ، فربما يكون فهمنا للإدراك جيدا إلى حد يسمح لنا بعمل إعلانات آخاذه لا يجد المشاهد لها مفرا من اتخاذ قرار بشأنها ، والقيام بعمل ما .

لقد أصبحت عملية التغليف لحملة سياسة أو لمرشح ما عملية ماهرة جدا في المجال السياسي ، وأصبحت المعلومات الراجعة أو استطلاعات الرأي العام قادرة على أن تتوقع بالضبط ماهية رد فعل الشعب إزاء أمور معينة . أن لطف مرشحي انتخابات الرئاسة الأمريكية لسنة 1988 يعود إلى هذا العامل الذي كانت له أهمية العوامل الأخرى . وكان مفاد رسالة تلك الحملة هو : " لا تثبط الناس ، ودعهم يقرؤون من أقوالك ما يريدون أن يسمعوا " . وفي الوقت الذي كان فيه الصحفيون يصخبون مطالبين بتصريحات سياسية صارخة من اجل أن يكون لديهم أشياء يكتبون عنها ، فان مديري حملات الترشيح كانوا يعرفون عملهم بشكل افضل. ولقد عرض الرئيس الأمريكي السابق (رونالد ريغان) بما لا لبس فيه ، أمورا كان كل من شاهده على الشاشة يعرفها. ولا يوجد أي شخص يصغي لما يتوجب عليك أن تقول، بل إن الجميع يستجيبون لك كشخص ، وأن مدراء الحملات الانتخابية يعرفون هذا الأمر أيضا ، فليست هذه بالأمور الجديدة ، بل أن الرئيس الأمريكي (روزفلت) كان معتادا على أن يطلب إلى (جورج غالوب) أن ينطلق إلى الشارع من أجل اختبار إحتمالات ردود فعل الناس إزاء خطاب ما مثير للجدل ، فإذا لاحظ (غالوب) أن النتائج سوف تكون إيجابية ، فان الرئيس يدلي عندها بتصريحه أو

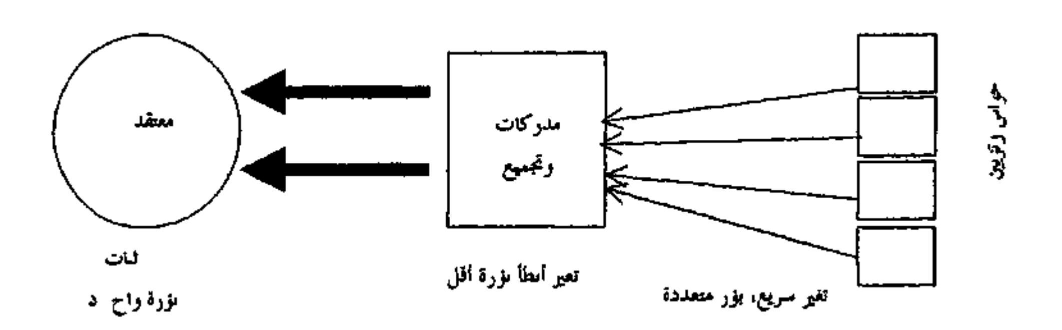
خطابه الشجاع. وكل ما جرى ، هو أن قدراتنا فى هذه الأمور الآن قد تحسنت اكثر من ذي قبل وللمرة الأولى في التاريخ ، أصبحنا قادرين على التوصل إلـــى أدوات إدراكية جبارة ، ولم تعد هناك من حاجة إلى محاولة التوجه إلى الناس من خـــلال المنطق، كما أن الخطاب العاطفي لم يعد ضروريا أيضا ، وسوف تصبح معـــارك السياسة معارك إدراك الأمر الذي يجعلنا بحاجة إلى إيلاء قدر أكبر من الاهتمـــام للنواحي الإدراكية في التفكير. *

---

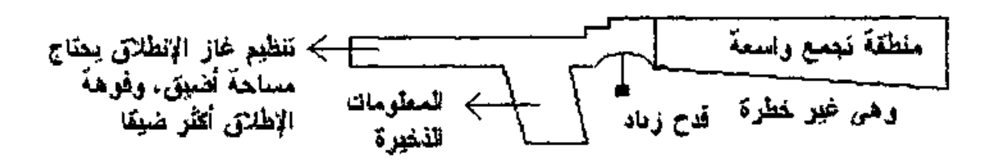
* في عالم الصناعة يقولون إن التغليف هو نصف العملية الصناعية كلها . وفـــي التفكير الإسلامي يستخدم مصطلح التزيين للتعبير عن تغليف الأفكار والمدركـــات والمعتقدات . كما توضح بغض الأمثلة التالية من الآيات القرآنية الكريمة :

- " ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون " الأنعام – 43.
- و" إذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس " الانفـــال – 48 .
- " كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم " الأنعام – 108.
- " إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم " النمل – 4 .
- "ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم " الحجرات – 7 .

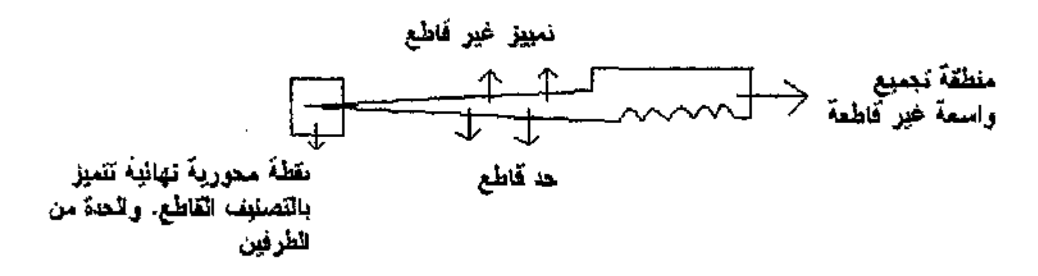
وهكذا فالحملة الانتخابية تزين المرشح في عيـــون النـــاس، ولا تغلفـــه لـــهم . والبطانة تزين الأعمال للحاكم ، والمفكر يزين الأفكار للناس ، وليـــس للكلمـــة مدلول سلبي ، إن التزيين قد يكون سلبيا وقد يكون إيجابيا . ويتوقـــف اســـتخدام كلمة التزيين على المعنى المقصود : أي تشكيل مدركات إيجابية عـــن محتـــوى عقلي عن طريق الحواس أولا . =



=وهكذا يكون التغليف موازيا في اتساعه لمناطق التجميع ومتناسبا في ذلك معها، أما المعتقد فتكون له حدة التصنيفات القطيعة ، وإذا قلنا إن العقل أو الفكــر هــو سلاح خطير، فإنه يشبه بعض الأسلحة أيضا من حيث الشكل :



كذلك هي تشبه السلاح أبيض



=

=ومن المفارقات أيضا أن التعامل مع الحوار العقلي يشبه في نواح كثيرة التعامل مع السلاح ، فهناك منطقة التجميع ولا خطورة فيها ، ويمكن أن يلمسها أي كـان بكل أمان . ومنطقة مجمع الزند – قد يستمر الضغط عليها طويلا حتى تنطلق فـي لحظة واحدة قد تكون إرادية أو غير إرادية ، ولا بد من معلومـات تحـل محـل الذخيرة ، ثم تضيق المساحة ، وتزداد احتمالات الخطورة ، إلى أن نصل الفوهة ، أو رأس الحربة ، وعند هذه النقطة يغدو والخطأ الأول هو الخطأ الأخير . وهنـاك مسافة أمان ، ووسائل أمان لكل حوار ، ومن المفـروض أن الخطـأ لا يحصـل بالصدفة مع من كان بالسلاح خبيرا.

إن هذا في العملية العقلية يدعى تزيينا ، مع أن لا علاقة له بالزينة ، في ظـاهر الأمر .

التزيين مقابل الطبيعي =

يكاد يكون هناك إجماع بين مختلف الثقافات على أن الطبيعـة و الحريـة همـا أمران جيدان . وليس هذا القول بدعة جان جاك روسو في كتاب إميل (التربيـة) بل إنه عامل مشترك في معظم الثقافات منذ القدم وحتى اليوم ، وتكمن المشـكلة في أن التفكير المنطقي التقليدي يؤدي بنا إلى :

الطبيعي جيد > هذا العصير طبيعي > إذن ، هو عصير جيد .

وفي المقابل فإن : –

المصطنع سيئ > هذا العصير مصنع > إذن هو عصير سيئ . =

= كيف تصمم إعلانك ؟ وكيف تبني برامجك التسويقية ، إن كان العصير الذي لديك هو عصير صناعي ؟

هل تقف موقفا سلبيا بأن تقول إن الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وكمثال ، فإن الخشب طبيعي ، والدهان صناعي ، فلماذا يطلون الخشب بالدهان كي يضفوا عليه (قيمة) أكبر . حسنا ، تستطيع عند اكتشاف قضية القيمة أن تجد حلا مناسبا –وهو تخفيض سعر عصيرك الصناعي –لأن قيمته أقل ، وبالتالي سيجد هذا العصير الرخيص زبونا غير مستعد للمخاطرة بنقوده كلها من اجل كأس عصير . ولكن تخفيض السعر لا يحل المشكلة ... إنه أسهل الحلول ، ولكنه أيضا : أسوأ الحلول .

اترك الآن هذا الخط من التفكير ، أو اقطع التسلسل ، ولا تفكر بالزبائن ، بل فكر بشركتك : من أين نأتي بهذه المواد الخام ؟ لا شك أنها مواد طبيعية آخر الأمر ، لا يوجد مادة تخلق في المصانع ، كل المواد موجودة في الأرض / الطبيعية ، إن الشركة يجب أن تحصل على

ثمن المادة الطبيعية + ثمن التصنيع .

أي أن هذا العصير الصناعي (السيئ) يجب أن يكون أعلى سعرا من العصير الطبيعي (الجيد) . إن العصير الذي عندي هو عصير طبيعي مصنع . والقيمة التي يحصل عليها الزبون أعلى من القيمة التي يحصل عليها في حالة العصير الطبيعي . لقد أصبحت اكثر ثقة بمنتوجاتك ، ويمكنك أن تطور هذا الخط من التفكير وتبني عليه

إن الدعوة إلى الحفر العميق لن تؤدي إلى اكتشاف الحقيقة بل جزء من المـــادة الخام المكونة للحقيقة ، ولا داعي لمواصلة الحفر في شخصية إنسان ما لاكتشـــافه بل يمكنك أن تفترض أن الإنسان الحقيقي موجود على السطح ، لأن السطح حقيقي أيضا ، وأنك كلما حفرت عميقا كلما وجدت طبقة سطحية أساسية أخرى لا تدعـــو إلى الاهتمام . وافترض انك قمت بتفكيك بيت فإنك لن تحصل إلا على كومة غـــير ذات أهمية من الطوب ، وافترض أيضا أن كل شخص هو الذي ينتـــج العـــرض الخاص به الذي يقدمه للعالم . وافترض أيضا أن ما نبنيه من خبراتنـــا وتجاربنـــا وشخصيتنا الكيميائية هي القيمة الحقيقية ، وأن نزعها لن يتكشف إلا عـــن حديـــد منصات المسرح .

إن أتباع مذهب (كونفو شيوس) كانوا مهتمين على وجه التحديـــد بـــالمقولات الغربية عن الروح ، وأنك إذا جعلت سلوكك تجاه الآخرين صحيحا وكذلك ســـائر عملك ، فإن المجتمع سوف يسمح عندها بأن تعنى بشؤون روحـــك ، وفـــي كـــل الأحوال ، فإن التفكير الصحيح يتبع العمل الصحيح على الأرجـــح . وربمـــا كنـــا بحاجة لأن نعلم الناس مهارات انتاج مسرحي أفضل ، وأن نحاول الحصول علـــى أفضل ما نستطيع من المنتوجات السيئة الموجودة بدل مواصلة الحفر عميقا تحـــت السطح .

إن التزيين /التغليف حقيقي وملموس ويمكننا أن نتحدى به الافتراض الآخـــر (الذي يقول أن كون الافتراض طبيعيا يعني كونه أفضل) .

إن قدرتنا الرياضية الطبيعية ما كان لها أن توصلنا إلى أي مكان دون وجـود التدوين وأساليب (البحث) . كما أن الإنسان الطبيعي قد يكـــون أنانيـــا وعدوانيـــا ومتعطشا للدماء ، وأن يكون جيدا ومسالما . إن الطبيعة تعطي كلا النموذجين كمـــا أن التجربة الإنسانية يمكن أن تدعم أيا منهما .

أما الأخلاق فهى زيوت التشحيم التى صممتها الحضارة من اجـــل تفـاعل الناس معا ، عندما لا يمكن الاعتماد على الدفء العاطفى والتضـــامن الروحـــي . وسيكون الحال حسنا لو أننا كلنا عاملنا بعضنا كاخوة متحابين ، ولكن التأكيد هنـــا يكون على (التحاب) لأن كثيرا من الاخوة والأخوات يقتتلون ويكره بعضهم بعضا , ولذلك فإن هذا الرأي يشبه القول " إن كل شيء سيكون على ما يرام ، لو أن كـــل شيء كان على ما يرام " .

إن هذا البحث الراقي عن " الطبيعي " هو عمل رائع فى بعض المجالات مثـــل الغذاء والطبيعة ، ولكنه خطر كإدراك شامل .

لقد وجد الشباب أن للمنطق القليل من القيمة ، لأنك تستطيع أن تجادل بشـكل جيد متساو بغض النظر عن الجانب تقف عليه من المسألة شريطة أن تختار قيمـــك ومدركاتك بعناية . كما أن الشباب يرون أن الكبار الذين يبدون منطقيين يتصرفون بطرق غير جذابة . ويعرف الشبان أيضا أن العواطف لا يمكن إخضاعها لســـلطة المنطق . ولذلك فإن الشبان ينصرفون عن المنطق باتجاه العواطف والمشاعر غير

الناضجة، ومن المؤكد أن هناك تساؤلا حول كون هذه العواطف والمشاعر تشكل عوامل إرشاد حقيقية وصحيحة للعمل .

ونجد هنا إخفاقا شاملا في التمييز بين المنطق والإدراك . ويشجع التعليم مثل هذا الإخفاق . فالتعليم نفسه لم يضع أبدا مثل هذا التمييز بين الاثنين .

إن كل العواطف تستند إلى الإدراك ، فأنت تكره شخصا ما لأنه يستثير فيك نمطا مقولبا ما ، أو لأنك تصورت أن هذا الشخص يتصرف بطريقة بغيضة . إن التغيير في الإدراك يعني حدوث تغير في العواطف .

ذات يوم ، كان هناك شاب في مؤسسة للأحداث الجانحين وكان الشاب يقف وراء حارس . وعلى وشك أن يهوي بمطرقة على راس الحارس ، لا شيء إلا لأنه يكره ذلك الرجل . ثم إن الشاب فكر في الدروس التي تلقاها عن تعلم المهارات الفكرية ، وفكر على وجه التحديد بدرس العواقب والنتائج ،وهكذا تراجع الشاب ، ووضع مطرقته من يده ، وسار مبتعدا عن المكان . إن إدراك الشاب للحارس لم يتغير ، ولكن الذي تغير هو إدراكه لطبيعة العمل الذي كان سيقدم عليه.

طالبان يقتتلان في ساحة المدرسة ، فيقترح عليهما وسيط ما أن يمارسا تمرينا إدراكيا بسيطا بحيث ينظر كل منهما إلى وجهة نظر الآخر (وهو درس من دروس تعلم مهارات التفكير) . وهكذا يتم فض النزاع .

إن المنطق يجمد الأشياء ضمن تصنيفات وقوالب نمطية . أمـــا الإدراك فـــهو متغير ويعتمد على الظروف ويمكن تغييره . *

إن قدح الزناد بشكل واع يصل في تأثيره حد السحر ، فالساحر يضغـــط زنــاد نموذج المشاهد في اتجاه معين ، ثم يأخذ الساحر اتجاها آخر مختلفا . وكمثال بسيط

---

* **المبدأ بسيط ويمكن توسيع تطبيقه بحيـث يركـز علـى تعديـل المدركـات ، والخروج من القوالب النمطية التي يضعها المنطق اليونـــاني التقليـدي ، إلــى الإحتمالات العديدة التي يوفرها تعاقب المدركات بشكل سريع ومدروس ، بحيـث ينجم عن ذلك تغيير في المواقف ، الأمر هنا يشبه شعورك بالإمتعــاض لمجــرد رؤية منتوج غذائي معين _(كاللبن) مثلا ، ويمكن أن يستمر هذا الموقف معــك طيلة عمرك ، ولكن عاملا جديدا قد يغير موقفك ، إذ قد يكتشف أحـد المحيطيـن بك أنك تعشق القهوة ، والفواكه ، فيعد لك يوما ، قهوة باللبن ، وعصيرا باللبن، وعصير فواكه يحتوي على اللبن ... ... الخ وهكذا ، ومع تكرار التجارب فــإن المدرك النهائي (الموقف السلبي) من اللبن يتغير . والتجربة العملية عادة مـــا تكون أقوى تأثيرا من المواقف المقولبة أو النمطية السابقة ، شريطة أن تكـــون منسجمة معها من حيث قوة التأثير . إن هذا الخط من التفكير مطلوب ، وبخاصـة عندما تكون لديك سلع تواجه إعراضا من الناس ، نتيجة موقف مسبق مقولب أو نتيجة تحيز غير مبرر . إذ يمكنك في هذه الحالة أن تلجأ إلـــى اسـتئجار اسـم تجاري مقبول أكثر ، (أي تتعامل مع الحالة العقلية للناس كمـــا هـــي) ، أو أن تبذل جهدا أكبر ، من أجل توفير مدركات جاهزة لهم ، عن طريق تجارب حســية تغير مواقفهم .**

واحد ، فإن الساحر ينفذ حيلة ما فورا ، ولكنه بعد ذلك يمضي فى طقس متقن لكيفية اقتراب حصول الحيلة (كما يحدث عند الإخفاء) ،إلى حد أن المشاهد يعتقد أنها قد حصلت فعلا.

في شهر تموز من سنة 1988 ، خرجت مجموعة من أربعة لصوص من مكتب المطار في نيويورك ، وكان أفرادها يحملون معهم مليون دولار . لم يحدث عنف ولا تهديدات ، كل ما هنالك أن اللصوص ارتدوا اللباس الرسمي لسعاة الخدمة الذين يجمعون النقود في مثل ذلك الوقت من اليوم . وعرض اللصوص بطاقات بدت أصلية . إن هذه الأمور تقدح الزناد حول الطريقة التي عوملوا بها .

كما أن الأشكال الموجودة على هذه الصفحة تقدح زناد نماذج معينة تعطينا الكلمات ، والإحساس والمعنى .

إن الضغط على الزناد يمكن أن يكون نفسه ، ولكن ما ينطلق من الفوهة يتباين ،فربما ينطلق من مسدس مائى ، أو طلقة بندقية إطلاق على حمامة برية من الفخار ، أو طلقة رشاش قد تقتل شخصا ما ، وربما ينطلق صاروخ يمكن أن يسقط طائرة .

والى حد كبير ، فإن نظام الزناد في الدماغ هو نظام عظيم الفائدة . فلو لم يكن هذا الزناد، لكان يتعين علينا قضاء وقت طويل للتأكد من نوعية النماذج المطلوبة ، وبدل هذا الاختيار النشط ، هنالك قدح زياد آلى ، فأنت تتذكر صديقا فورا دون أن تحتاج إلى اخذ مقاسات معينة لقياس عرض أنفه أو اتساع عينيه . ويمكن لقدح الزناد أن يكون سريعا جدا ، لقد توقف صديق لي مرة كي يساعد امرأة طرحتها

(سيارة أرضا ولم تتوقف) . وبينما كان صديقي منحنيا لمساعدة المرأة المصابـــة ، عبرت دراجة نارية ، افترض قائدها فورا أن صديقي هو الذي ضـــرب المـــرأة ، حيث أن وجود إنسان مصاب ، ووجود سيارة واحدة فقط قدح زناد رد الفعل عنـــد سائق الدراجة ، الذي اعتراه الغضب فطرح صديقي أرضا فاقدا وعيه.

إن شهود العيان يمكن أن يكونوا غير موثوقين أيضا ، لأن العين ليست آلـــة تصوير، والدماغ هو الذي يعيد بناء ما يحسب الشاهد أنه قد شاهده .

إن الزناد يطلق ما تعتقد انه موجود وليس ما هو موجود فعلا . ولذلك فإن من السهل قدح زناد الأفكار المقولبة تجاه الشعوب ، أو الأعراق ، أو المواقـــف . وان الملصقات ، والشعارات والصور والرموز ، سواء اســـتخدمت فـــي الإعـــلان أو لأغراض سياسية ، فإنها تفيد أيما فائدة من تأثيرات قدح الزناد ، وإعادة البناء .

وحتى الآن ، فإن اكثر عبارة قاتلة للإبداع هى عبارة " إن هذا هو نفس ذاك" إن هذه استجابة أسوأ من القول أن الفكرة سخيفة أو هراء أو مستحيلة . إن عبـــارة "هذا نفس ذاك " تعني أن الفكرة ليست جديدة ، ولذلك لا حاجة إلى مناقشتها علـــى الإطلاق . والذي يحدث أن جزءا من الفكرة المقترحة الجديدة تستثير فكرة موجودة أصلا في عقل المستمع الذي يرفض مواصلة الاستماع إلى المزيد .

إن السؤال الرئيسي هو عما إذا كان قدح زناد النماذج يمكن أن يغير فعلا ممـــا نراه أمامنا . إنها قضية تنافس بين نموذج مخزون وبين الواقع . وهناك اختبـــارات نفسية توحي بأن هذا ممكن (كما يحصل بالفعل مع سحرة المسرح) . ولكن هـــذا ليس أمرا ذا بال ، إذ يكفي أن النموذج المطلق زناده يطلق عواطف وأفكارا مسبقة،

تؤثر بدورها بشكل مباشر على إدراكنا لما هو موجـــود أمامنــا وهــذا الإدراك المتأخر سوف يقرر ما الذي نعيره انتباهنا ، وماهية النمـــاذج المســتخدمة (كمــا سوف نرى لاحقا) . وتكون النتيجة أننا نرى بالفعل أشياء معينة تختلف عما قـــد يراه شخص آخر . وهذا ينطبق على المواقف الفيزيائية المادية ، وينطبق اكـــثر على المواقف الفكرية عندما نستجيب للكلمات أو الطباعة.

لقد اقترحت ذات مرة أن المجرمين المتكرري الإجرام ، يمكن أن يوسموا بوشم من أجل سهولة التعرف عليهم . وقد أثار الاقتراح رد فعل من الرعب . ولم يـــأت الرعب على أساس عدم العدل ، أو قسوة المعاملة ، بل لأن فكرة الوشم ، ضغطـت مباشرة زناد صور وشم معتقلي معسكرات الإبادة النازية ، وكان هذا هو مصـــدر الرعب .

إن ظاهرة الزناد واعادة البناء هي سلوك طبيعي لأي نظام صـــانع للنمـــاذج ، وهي ظاهرة مفيدة جدا بشكل أجمالي ، لأن الحياة ستكون مستحيلة دونها . ورغم ذلك ، فإن ضغط الزناد هو أحد العوامل التي نضمن أن لا توجد أية حقيقة فـــي الإدراك.*

---

* **الأمر الذي يؤدي إلى التشديد على سلامة الإطار أو التصنيف العـــام أو نظـــام المعتقدات ، لأن الإدراك يقوم على الحواس وعلى مجموعة الخبرات الســـابقة . وكما أن وجود خلل في البصر لا يعني إلغاء دور البصـــر فـــي الحصـــول علـــى المعلومات والمعطيات وقبولها ومعاملتها ، بل يعني إصلاح الخلل . ، وما تثيره=**

=من أفكار أو ردود فعل ، بل يعني إصلاح الخلل. إن هذا التوضيح يوضح سبب تفضيل تسمية " قدح زناد الفكر " على مصطلح العصف الفكري ، أو التعصيف الفكري "Brain storming " فكل هذه الأمثلة عن عمل الدماغ لا يمكن أن تأتي من مفهوم العاصفة والعواصف ولكنها تأتي مطواعة في مصطلح قدح زناد الفكر ،وهذا يشير إلى أن اللغة كوعاء ناقل يجب التعامل معها بحذر شديد قبل إطلاق الأحكام النهائية والتسميات النهائية . لأن عملية الترجمة أو التعريب يجب أن تأخذ بالحسبان العوامل الثقافية والمعايير المقبولة في مفاهيم أهل الثقافة، لا أن تقتصر على القياس المبني على المبنى بمعزل عن المعنى.

كذلك ، فإن مصطلح قدح الزناد يبين ضرورة توفر عاملين ذاتي وموضوعي: لا بد من اليد التي تضغط على الزناد بأمر العقل ، ولا بد من وجود مخزن معلوماتي ، (عوامل ذاتية) ، ولا بد أيضا من العوامل الموضوعية الخارجية ، إذ لا بد من وجود هدف . والهدف محكوم بالغاية منه : إن إطلاق الأحكام القطعية قد يقتل فكرة ، فهل يعني ذلك التخلص من هذه الأحكام ، أم يعني الإمعان في دراستها حتى نعرف متى نطلقها ، تماما ، مثلما أن إطلاق ا لنار قد يقتل بريئا ، ولكنه قد يحمي حياة الأبرياء في موقف آخر ، وقد يساء استخدامه بشكل يؤذي دون أن يقتل . إن الغاية مهمة في وجود أو عدم وجود قواعد تصنيف صارمة .

وأيضا ، فإن مصطلح قدح الزناد يسمح بتفسير الظاهرة التالية : ظاهرة التعاقب ، وقد عاملها دي بونو كظاهرة مستقلة من آليات عمل العقل الإنساني ، ولكننا نميل إلى اعتبارها نوعا من التوظيف السريع جدا لقدح الزناد . فإن هناك أسلحة لا بد من ضغط زنادها ، كلما أردنا إطلاق رصاصة ، وكما أن هناك=

الثاني عشر: نماذج التعاقب / الزناد الآلي السريع .

هل تستطيع أن تحتمل قضاء خمس واربعين دقيقة وأنت ترتدي ملابسك كل صباح؟ إن لم تكن تستطيع ذلك ، فكن شاكرا لكون دماغك يستطيع أن يقيم نماذج تعاقب.

لقد أراد شاب – ذات يوم – أن يحسب عدد الطرق التي يستطيع بها ارتداء ملابسه مستخدما نظام لباسه المعياري ذي الإحدى عشرة مادة . وهكذا ، وضع الشاب جهاز حاسوبه الشخصي كي يقوم له بهذا العمل . وعمل الحاسوب مدة خمس وأربعين دقيقة دون توقف كي يبين انه من اصل 39 مليون طريقة محتملة لارتداء أحد عشر مادة من مواد اللباس ، هناك خمسة آلاف طريقة ممكنة (وهناك طرق غير ممكنة كأن تنتعل حذاءك قبل أن ترتدي جواربك) ويمكن الحصول على رقم التسعة وثلاثين مليونا بسهولة ، لأن لديك أحد عشر خيارا للعنصر الأول من اللباس ، وبعد ذلك لكل عنصر من العناصر العشرة المتبقية وهكذا تضرب $11\times10\times9\times8\times7\times6\times5\times4\times3\times2$.

وعندما تصب كأسا من زجاجة فإنك لا تحتاج لأن تحسب أي الطرق هي الصحيحة لوضع الكأس . وعندما تشرب منه ، فإنك لا تحل مسألة الطريقة الأفضل

=أسلحة آلية ولكن وجود مقذوفات غير حقيقية (فيشنغ) فيها يحول دون أن تعمل بشكل آلي ،وانما نضطر لقدح زنادها بعد سحب أقسامها بعد كل طلقة جوفاء، كذلك الحال في آلية التعاقب السريع ، وهي إحدى سمات عمل العقل الإنساني .

لرفع الكأس ، أو ما إذا كان عليك أن تضع الكأس على فمـــك أو أذنـــك , ولعــل نماذجك قد أخبرتك أن هذا عصير أبيض نال استحسان ذوق جماعة ما (أو ربمـــا تكون تؤسس مثل هذا النموذج الآن) .

إن تحديد نموذج تعاقب أمر سهل جدا ، إذ هناك في أية لحظة اتجـــاه واحــد للتغيير يحظى باحتمالية ظهور أعلى من أي اتجاه آخر . وبالنسبة إلى قطار ســكة حديدية يسير على القضبان ، فإن الاحتمال الأعلى في أية لحظة هو أن يسير إلـــى الأمام على القضبان ، بدل الذهاب في أي اتجاه آخر . وفي الدماغ ، فإن التغير من الحالة الراهنة للنشاط إلى الحالة التالية لها من الأرجح أن يحدث في اتجاه ما واحـد (إلى حالة محددة تالية) اكثر من أي اتجاه آخر .

إن السلوك الطبيعي والذي لا مفر منه لنموذج دماغنا الذاتي التنظيم ، هو انـــه صانع نماذج ، ومستخدم نماذج ، وهذا هو نشاطه الطبيعي. إن المطر يتساقط على منظور ارض بكر وحقيقة ، فإن تفاعل المطر مع الأرض هو الذي يشكل الجـداول والأنهار . والمطر الذي يأتي لاحقا يتبع هذه النمادج . هذا هو الســلوك الطبيعــي للنظام . إن شخصا ولد أعمى يصبح قادرا على الإبصار فجأة ولكن هذا الشــخص لا يستطيع أن يرى فعلا لأن كل شيء باهر ، ويحتاج الدماغ إلى وقت ما حتى يقيم نماذج الإبصار .

ولو أن الدماغ لم يكن نظاما صانعاً للنماذج ، لما كنا نســـتطيع أن نقــرأ أو نكتب أو نتحدث . وان كل نشاط ، مثل ارتداء الملابس في الصباح ، سوف يكــون عملا مستهلكا للوقت الكثير . وستكون الرياضة مستحيلة على سبيل المثال . وفكــر في ملايين الناس الذين يقودون سياراتهم يوميا على طول الطرق مستخدمين نماذج

الإدراك ورد الفعل ،ونادرا ما يحتاجون إلى أن يحسبوا الأمور . إن هناك نماذج روتينية للعمل مثل قيادة السيارة أو لعب (الجولف)، وهناك نماذج إدراك روتينية تمكننا من التعرف إلى السكاكين والشوك والناس . وهناك نماذج روتينية للمعاني، تمكننا من الإستماع والقراءة والاتصال. *

---

* إنه سلاح سريع الطلقات جدا ، ويعمل بشكل آلي جدا ، مع أن تصميمه المادي أبسط من تصميم أبسط آلة حاسبة . والمثير حقا ، أن العمل فيه وتطويره لا يحتاج الكثير من الإنفاق ، ولا المرافق الفخمة التي يحتاجها تطوير أي برنامج حاسوب صناعي . ومع ذلك ، فإنه لا يزال عرضة إلى الاهمال . إن الناس الذين يتحدثون عن استغلال مواردهم ، لا يمكن الركون إلى جدية توجهاتهم ، إذا لم يكن هناك استثمارات مناسبة بادية على عقولهم ، وبناهم الفكرية . وكما يخطط صاحب أي مشروع لوضع تزيينات مادية توحي بحجم استثمار كبير في مكاتبه ومرافقه ومظهره ، فإن عليه كي يتعايش مع المستقبل أن يبدي لزواره من مظاهر قدح الزناد ، ما يجعلهم يتيقنون من وجود ثروة عقلية هائلة لديه تسمح بالمخاطرة معه . إن ذلك ترجمة للعبارة التي تقول إن الإنطباع الأول يدوم . ولكنه في المستقبل سيكون انطباعا عقليا في المقام الأول . إن اجهزة الحاسوب التقليدية عليها أن تناضل بكل كد حتى تصنع النماذج وتدركها . أما الدماغ فإنه يصنع النماذج بكل سهولة ويتعرف إليها فورا، وهذه هي الطبيعة الصرفة للدماغ، والتي تنبثق مباشرة عن الطريقة التي تعمل بها الأنظمة ذاتية التنظيم . إن قدح الزناد يثير مدارك مختلفة ، إنه النظر في مكان ما أو على شيء ما ، وسماع=

=شيء ما ، أو طرح علامة استفهام داخلية ، وقد ينجم عن العمل الواحد من هذه إطلاق كم هائل من المدارك المختلفة لدى نفس الشخص ولكنه أيضا قد ينتج كما كبيرا من المدارك المتباينة لدى أشخاص مختلفين ، الأمر الذي يتطلب من المراقب معرفة الجهة التي قدحت الزناد، ومعرفة الهدف الذي اطلقت إليه المدركات . وهكذا ، فإن عملية التحليل ليست كما يتهمها دي بونو عملية سهلة ، أو ميكانيكية ، بل إنها تحتاج إلى تفاعل كيميائي و / أو عصبي داخل عقل الإنسان ، وتحتاج إلى ذخيرة وكم من المعارف والخبرات والتجارب والتصميم التي يأمل العقل أن تثبت جدارتها وتحتاج إلى فهم البيئة العقلية التي يتم إطلاق مثل هذه المدركات فيها ومثلا، فإن الجميع / في ايامنا هذه / لديهم معتقد بأن تشغيل من هم دون سن العمل هو تعد على حقوق الطفولة ، وهكذا ، فإن منظر طفل يعمل حمالا يثير فيهم مشاعر الكراهية لمن يشغلون هذا الطفل . كذلك ، عندما ترد صورة طفل يحمل قاذفا مضادا للدروع ، أما عندما يستطيع طفل أن يعمل طبيبا ، فإنه يصبح طفلا معجزة ، ولكن هل يستمر هذا (الإعجاب) في سنوات العقل الجديد المقبلة ؟ (لنتخيل) أن هذا الطفل الحمال قد أصبح مليونيرا بعد ثلاثين سنة ... ألن يبحث عن تلك الصورة التي نشرتها له وسائل الإعلام وهو يعمل حمالا ، كي (يتباهى) بها دليلا على كفاحه وعصاميته ... الخ ؟

ونوضح اكثر : سنة 1988 ظهرت انتفاضة فلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي ، كان التركيز في متابعتها على نشاط " أطفال الحجارة " ... لقد دخل هؤلاء الأطفال ميدان العمل (السياسي الخطر) قبل بلوغهم سن العمل ، وكانت النتيجة إعجابا بهؤلاء الأطفال على جميع المستويات ، وما من أحد ينكر أنهم

في دولة إسلامية ، إذا جاء شخص مدين لك بمبلغ من المال ، وسلمك رزمة من الأوراق المالية ، فإنك يجب أن تعدها ، ورقة ورقة وامام هذا الشخص أما إذا فعلت نفس الشيء مع شخص ذي ثقافة غربية ، فإنه سيشعر بإنك اعتديت عليه بشكل صارخ . إن العالم الإسلامي مختلف عن العالم الغربي * .

وفي نطاق العمل ، فإن النساء اليابانيات تتم معاملتهن بشكل مرعب (مع أن ذلك آخذ في التغير) ، ففور أن تتزوج النساء اليابانيات يتوقع لهن أن يتركن اعمالهن . وحتى لو لم يتزوجن ، فإنه يلقى بهن إلى الخارج عند عمر الثلاثين ، ويتم احضار نساء اصغر عمرا ، لأن النساء الأصغر أقل أجورا ، إذ أن الأجور ترتفع مع كل سنة من سنوات الاستخدام . ونادرا جدا ما تصل النساء إلى مواقع

حققوا إنجازا ما. الآن ، لو كانت هناك مشاريع مدرسية ضخمة تشغل الطلاب ضمن برامج تعليمية في صفحات إنتاجية ... فهل هذا سيظل يعتبر إساءة للطفولة؟ إن تغير العوالم يخلق الفرق .

*** إن التحقق أمر مطلوب ، وبخاصة في الأمور المالية ، وفي الإتفاقات ، بل إن معظم العاملين في مجال الإتصالات ، والمبيعات ، يؤكدون على أهمية التحقق من الفهم المتبادل بين الطرفين ، بتلخيص ما تم طرحه حتى مرحلة معينة من مراحل النقاش وما إلى ذلك . إن التحقق والتوثيق مهمان في المعاملات الإسلامية ، ولعل آية الدين التي وردت في آخر سورة البقرة، وتوثيق الديون كتابة هي أطول آية في القرآن الكريم . حفاظا على حقوق الآخرين ، وحفاظا على العلاقات واستمرارها . إن الوضوح قاعدة أساسية من قواعد العمل المالي والتجاري .**

رفيعة في الشركات الكبيرة . أما في داخل البيت ، فإن المرأة اليابانية هي المسؤولة الأولى كليا ، فهي تتخذ كل القرارات ، وتتولى تمويل أفراد العائلة ، ومهما كـان موقع الزوج كبيرا ، إلا انه يسلم كل راتبه إلى زوجته ، حيث تنفحه مـا يحتاجـه كمصروف جيب ، لتغطية نفقاته يوما بيوم – (ولهذا السبب فإن حسابات نفقـات الشركات ضخمة جدا) وللأم اليابانية سيطرة مطلقة على تعليم الأطفال ، إن هنالك عالمين مختلفين : عالم العمل ، وعالم البيت . *

وهناك مخلوقات حية على هذا الكوكب لا تعيش على الأوكسجين. إننا معتادون جدا على العالم الذي يتنفس الأوكسجين الذي يشمل الأسماك أيضا ، ولكن هذا ليس ما يحصل في الأجزاء الأكثر عمقا من المحيط الهادي ، حيث توجد مخلوقات تشبه

*** هناك أمثلة أكثر وضوحا من واقع العمل السياسي في الدول كلها ، ففي الدول (النامية) تغدو حقوق الإنسان مهمة جدا ، إذا تعلق الأمر بسائح أجنبي ، أما مـع أبناء تلك الدولة ، فإن حقوق الإنسان تتراجع . أما في الدول (المتقدمـة) فـإن سنوات القرن العشرين شهدت ازدواجية المعايير في تطبيق كثير من المبـادىء ، بما فيها مبادئ القانون الدولي وقواعده المستقرة : فلم تتم الإشارة إلى السـلاح النووي الإسرائيلي ، إلا ربما من باب تخويف العرب وردعهم ، على الرغم مـن رفض (إسرائيل) فتح أبواب منشآتها النووية أمام الهيئات الدوليـة المعنيـة ، ويختلف المقياس عند التعامل مع الدول الأخرى في نفس المنطقة مـن العـالم . والأمثلة كثيرة . عن اختلاف عالم السياسة الخارجية عن عالم السياسة الداخليـة في كل الدول، أهو تناقض ؟ أم محاولة تكيف ؟ أم اختلاف رؤية الأمور وتفـاوت إدراكها ؟.**

الدود لا تعيش على الأوكسجين ، ولكن على سلفايد الهيدروجين الذي يخرج فقاقيع من فوهات البركين . فعلى ذلك العمق ، يقل وجود الأوكسجين كثيرا في الماء . إنه مثال جديد عن عالم مختلف .

إن معظم الشبان الفرنسيين يتعلمون الآن أن يتحدثوا الإنجليزية ، ولكنك قد تجد نفسك في موقف لا يتحدث فيه الناس إلا بالفرنسية وهكذا تجد نفسك تتحدث بالإنجليزية بصوت اكثر علوا ، وأبطأ ، ويبدو انك لا تستوعب حقيقة أن مستمعيك لا يفهمون ما تقول . إنك في عالم مختلف ، وما هو واضح في عالمك ليس له معنى في هذا العالم المختلف .

ولنفترض أن هناك ثلاثة أشخاص يحمل كل واحد ، كتلة صغيرة من خشب الصنوبر . الشخص الأول منهم أطلق الكتلة فسقطت على الأرض . أما الثاني فأطلقها ، فانطلقت إلى الأعلى ، على حين أن الشخص الثالث أطلقها فظلت في نفس المكان الذي أطلقت منه بالضبط . وهناك شخص ما ينقل لك ما يجري بواسطة الهاتف ، ويبدو لك الوضع في الحالة الأولى موافقا للمتوقع ، أما في الحالة الثانية ، فإن الوضع مربك ، ولكن ما حصل في الحالة الثالثة لا يمكن تصديقه . وهذا ناجم عن افتراضك بأن الحالات الثلاثة تحصل في نفس العالم .

ثم يتبين لك أن الشخص الأول يقف على سطح الأرض ، وهكذا تسقط الكتلة الخشبية على الأرض . أما الشخص الثاني فحدث انه كان يقف تحت الماء، وهكذا فمن الطبيعي أن يطفو الخشب صاعدا إلى الأعلى ، وهذا أمر عادي جدا ومنطقي جدا في هذا الموقف . أما الشخص الثالث ففي مركبة فضاء مدارية جاذبيتها صفر،

وهكذا تبقى قطعة الخشب فى نفس المكان الذي أطلقت منه تماما وهذا عادي أيضـا ومنطقي في ذلك العالم .

وفور أن نفهم اختلاف العوالم ، فإننا نفهم السلوك مباشرة . أما إذا لم نعـرف أن هناك اختلافا فى العوالم ، وافترضنا أن الأشخاص الثلاثة كلهم كانوا يقفون على سطح الأرض ، فإننا سنواجه وقتا عصيبا ، ونحن نحاول فهم ما يجري . * .

إن هندسة اقليدس الشهيرة تعمل على سطوح مسطحة فقـط ، ولكنـها لا يمكن أن تعمل على سطوح كروية حيث يمكن للخطوط المتوازية أن تلتقى .

وفي كل ما سبق من أمثلة ، فإننا نرى أن السلوك في عالم مختلـف قـد لا يكون قابلا للاستيعاب إلى أن ندرك انه يقع فى عالم مختلف .

وتخيل انك تقوم بإسقاط بعض الكرات الصغيرة على صينية مليئة بـالرمل . إن كل كرة تسقط تطمر نفسها داخل الرمل تحت موقع إسـقاطها مباشـرة . وإذا نظرنا إلى مواقع الكرات على سطح الرمل ، فإننا نحصل على سجل جيد لكل نقاط الإسقاط . وتبقى الكرات حيث هى دون أن تتحرك وكذلك يبقى سطح الرمل كمـا هو دون تغيير . إن هذا مثال نموذجى على النظام السلبي ، وهو يشمل كل أنظمـة تسجيل المعلومات التي يتم فيها تسجيل المعلومات على سطح محايد لتظل محفوظة عليه كما تم تسجيلها ، وهذا النمط من الأنظمة يشابه الإشارات الإلكترونية التـي

*** هذا يوضح أن المعلومات نفسها ، قد تخلق مدارك مختلفة ، وأن قوانين المنطق الرياضي لا تصلح في عالم الإدراك . ويلعب التزيين / أو التغليف دورا مهما فـي اختلاف المدركات التي يتم التوصل إليها من نفس المعطيات .**

يضعها الحاسوب المتفوق على القرص الممغنط الصلب . فإذا أردنا استخدام هذه المعلومات (المسجلة) ، فإن عاملا خارجيا للتشغيل (مثل دماغ تلميذ المدرسة، أو المعامل المركزي لجهاز الحاسوب) ، يجب أن يقوم بعملية منطقية ما على المعلومات المخزنة .

ولننظر الآن إلى نظام مختلف في عالم مختلف ، وبدل أن نضع رملا في الصينية ، فإننا نأخذ حقيبة مطاطية رخوة مملوءة بسائل زيتي لزج وحيث أن الكرات ذات كثافة أعلى من الزيت ، فإنها تغرق تدريجيا ، وتدفع السطح المطاطي في طريقها إلى أن تستقر في قعر الصينية التي لا يظل سطحها مسطحا بعد ذلك ولكنه ينحدر إلى الأسفل نحو الكرة الأولى . ثم نسقط الكرات الأخرى على السطح، وكلها تتدحرج على المنحدر لتنتهي في مكان يقابل الكرة الأولى. في صينية الرمل كانت الكرات تبقى في المكان الذي أسقطت فيه بالضبط ، أما في الصينية الرخوة، فإن الكرات لا تبقى في المكان الذي أسقطت فيه ، ولكنها تتحرك . في صينية الرمل يظل السطح مسطحا (مستويا) ، أما في الصينية الرخوة فإنه يتغير مع نزول الكرة الأولى عليه، ولأن الكرات تتحرك ، ولان السطح يتغير ، فإننا نسمي هذا السطح سطحا إيجابيا .

في نموذج الرمل (السالب) تبقى الكرات حيث تم إسقاطها ، أما في النظام الإيجابي الرخو ، فإن الكرات كلها تتعنقد (تأخذ شكل العنقود) عند نقطة واحدة من الصينية . وفي الحقيقة ، فإن السطح هو الذي سمح للكرات بأن (تنتظم) أنفسها في مجموعة ، وهذا نموذج بسيط على النظام ذاتي التنظيم . إن تنظيم الكرات في مجموعة لم يحدث بتأثير عامل خارجي ، بل انه سمة طبيعية للنظام نفسه ، وهذه

نقطة مهمة جدا تشير إلى الفارق الرئيسي بين الأنظمة السالبة التى تحتـــاج إلـــى مشغل خارجي لتحريك الاشياء ، وبين الأنظمة الموجبة التي تحرك المعلومات فيها ذاتها .

ولنفكر في نموذجين آخرين : النموذج الأول هو منشفة قماشية تتناولها مـــن الحمام وتضعها على المائدة ، والى جانبها دواة حبر . خذ ملعقة من الحبر وأفرغــها على المنشفة عند نقطة ما . إن بقعة من الحبر تتشـــكل فـــوق المشـــفة كتســـجيل لنشاطك. وفي النهاية ، فإن هذا النظام السلبى يعطي تسجيلا جيدا لنشاطك ، ويظـلى الحبر حيث وضعته .

أما في نموذجنا الإيجابي ، فإننا نستبدل المشفة ، بطبق غير عميق يحتوي مادة الجيلو التي تقدم في حفلات أعياد ميلاد الأطفال، وفي هذه تســـخن دواة الحـــبر ، وعندما تضع ملعقة مليئة بالحبر الساخن على الجيلو ، فإن الحبر يحلـــل الجيلـــو ، ولكن التحليل يتوقف حين يبرد الحبر ، والآن تبعد الحبر البارد والجيلو المتحلـــل ، حيث يظل تأثير ضحل على سطح الجيلو . هو بمثابة العلامة التي تركتـــها علـــى السطح ، وهي تقابل لطخة أو بقعة الحبر في مثال المنشفة ، بعد ذلك تسكب ملعقـــة أخرى من الحبر الساخن على سطح الجيلو ، فإذا كانت قريبة بشكل ما من آثـــار الحبر الأول ، فإنها سوف تسيل داخل خطوط التأثير ، إننا اقتصرنا حتى الآن فـــي كل أنظمة معلوماتنا على استخدام النموذج السالب ، إننا نخزن المعلومات بطريقـــة سالبة ، ثم نحركها ، استنادا إلى بعض القوانين ، وإن كل أنظمة تفكيرنـــــا أيضـــا تستند إلى هذا النموذج . أما الآن فقد اصبح يظهر لنا بشكل متزايد أن الدمـــــاغ لا

يعمل بهذه الطريقة إطلاقا ، بل إنه يعمل كنظام ذاتي التنظيم تنظم فيه المعلومات ذاتها ضمن نماذج معينة .

في أجهزة الحاسوب التقليدية ، كان هناك تخزين للمعلومات ، واستغلال لها. أما في الحواسيب الأكثر حداثة (شبكة الاعصاب الآلية) ، فإن الاسلاك مرتبة بحيث تحاكي الشبكة العصبية فى الدماغ . إنها أنظمة ذاتية التنظيم ، تنظم فيها المعلومات نفسها بنفسها .

الرابع عشر: التعامل مع الإمكانات العقلية الخاصة: حل المشاكل*

---

*لن يظل هناك مجال في أي مجال من مجالات عالم الأعمال أو السياسة أو التربية أو غيرها لأي شخص يعتقد أن الإمكانات العقلية هي (أقدار) تعمل بعيدا عن مراقبتنا وعن تأثيرنا . فالذكي ذكي ولا نملك لهذه الحقيقة تغييرا ، والغبي غبي " ونحن لن نصلح ما أفسد الدهر " ، والإبداع يحصل متى شاء بلا ضوابط أو لا يحصل ، فنحن لا نملك سيطرة عليه مثله مثل الزلازل والبراكين . هذه المواقف السلبية لن تؤهل حاملها للتعامل مع الحياة والعمل في ظل النظام العقلي الجديد ، وسرعان ما سيجد نفسه معزولا ، وخارج سوق العقل والعمل .

إن هناك آليات عمل للعقل الإنساني يمكن التعرف على بعضها ، والإفادة منها أيما فائدة في مجال توقع السلوك العقلي للأفراد والجماعات . ولكن هذا لا يعني أننا أمام علم أصبح مستقرا، له قواعد وأصول تقليدية معروفة . بل إننا أمام تحد كبير يتمثل في التعرف النظري على هذه الآليات العقلية وتطبيقاتها ، الأمر الذي لا بد أن يصاحبه – وليس شرطا أن يسبقه – فهم علمي للخلايا والشبكات العصبية المكونة للدماغ ، ولكيفية عملها ، وعلاقاتها ، والمواد المؤثرة عليها كيميائية وكهربائية ومغناطيسية ... الخ ، وأسلوب بل أساليب تفاعل المناطق الدماغية المختلفة مع هذه المؤثرات . وكيفية توليدها وتوظيفها داخل جسم الإنسان ، بمختلف السبل المتاحة . إن مثل هذه الدراسة ستؤدي إلى تغيير كثير من أنماط التغذية ، وأساليب التغذية للأطفال ، للتركيز على مواد معينة وأنزيمات خاصة لا بد أن يؤدي تناولها إلى زيادة تحسين الأداء العقلي عموما .=

هناك قول بسيط واحد ، كاد وحده أن يدير الصناعة الأساسية للولايات المتحـــدة : "إذا لم يكن مكسورا فلا تصلحه " فلماذا كان لهذا القول المأثور البسيط – بل والذي يبدو معقولا – مثل هذا التأثير التدميري ؟ لقد كانت الدهية الصناعية في أمريكـا تقول : لنستمر في عمل ما نعمله الآن ، وإذا حصل خطأ ما ، فإننا سنصلحه عندئذ ونواصل العمل ، فهذا هو عملنا " . إن هذا هو مفهوم " الصيانة " فـــي الإعمـــال التجارية . وهو مفهوم ظل مسيطرا وفعالا سنوات كثيرة .

وبعد ذلك بدأت المنافسة تظهر من اليابان ، وغيرها من نمور المحيط الـــهادي ومن ألمانيا الغربية ، وأصبح المنافسون يعرفون الآن أن ليس بمقدورهم أن ينافسوا إذا ظلوا يقومون بنفس الأعمال فقط . وهكذا أصبح يتعين عليهم أن يبحثـــوا عـــن التطوير ، الأمر الذي يعني السعي إلى تنفيذ العمل بشكل أفضل ، وليس مجرد حـل المشاكل التي تظهر ومواصلة المسير كالمعتاد . وهكذا بـــدأ رجـــال الصناعـــة

=كذلك فإن هذه المعرفة ستغير الكثير من خطاب وأسلوب الاتصـــال ، وفحـــوى الرسائل الإعلامية والاتصالات ، في وسائل الإعلام ، وفي الأوساط السياســـية ، وفي داخل المؤسسات ، أي أن العلاقات البشرية سوف تتغير إلى حد كبـــير فـــي عصر النظام العقلي الجديد . ولا نقول إن هنالك وصفة جامعة مانعة للتعامل مـــع هذه التغيرات التي قد تكون أوسع من كل ما نتصوره ، وأعمق من كل ما نفكـــر فيه حتى الآن ، ولكن هناك بعض المعلومات الإرشادية العامة المستقاة من واقـــع كون هذا النظام العقلي نظاما قادرا على صناعـــة النمـــاذج ، ويتمتـــع بمســـاقط ومناطق تجميع واسعة جدا ، وقادر على التمييز القطعي الحـــاد بيـــن مختلـــف المواقف والسلوكيات .

يبحثون عن نقاط لا تشكل مشاكل أصلا من مثل : هل نستطيع أن نطور التصميم عند هذه النقطة ؟ أو هل نستطيع جعل هذا المنتوج أرخص سعرا ؟ وكيف نجعل هذا عملا ذا موثوقية أكبر ؟

إن فكhalloرة " إذا لم يكن مكسورا فلا تصلحه * هي المعاكس المقابل تماما للمنافسة[†]، وتفترض هذه الفكرة ثبات هذا العالم ، عند نقطة يظل فيها ما تحمله كافيا

---

* **حل المشاكل Trouble Shooting : سيظل حل المشاكل جزءا أساسيا من عمل العقل البشري يأخذ الكثير من إمكاناته ، لأن المشاكل من الصعب التعايش معها ، إلا عندما لا يكون بالإمكان حلها . ولكن الأولوية التي كانت لحل المشاكل كرافعة للتغيير ، سوف تتراجع . ألا يعني ذلك بالضرورة تراجع دور القائمين بهذه العملية؟ إن أي صناعة تتراجع ، لا بد أن تجعل صانعيها يتراجعون معها. إن المشاكل ستبقى ، ولكن حل قسم كبير منها سيكون أيسر من ناحية تقنية ، بل وربما من ناحية بشرية أيضا . ولكن حلال المشاكل Trouble Shooter لن يظل في مقعد القيادة ، بل إنه سيتراجع لصالح واضعي الأنظمة الجديدة الذين سيصممون أنظمة وتصورات للتجاوب مع المستقبل ، ولتحسين ظروف الحياة والعمل . هل سيتقبل حلال المشاكل هذا التراجع المهني ؟ أم أنه سيتحول إلى صانع مشاكل ؟**

† **ولكن المنافسة هي مشكلة بل إنها المشكلة الأكثر تعقيدا في عالم الأعمال اليوم، فلا الدول ، ولا المؤسسات ،ولا الأفراد استطاعوا حتى الآن تحويل المنافسة إلى تعاون . لأن ذلك يتطلب مرونة عقلية عالية جدا . ولكن المنافسة قد تدمر بعض الصناعات والأعمال إذا استمرت على ما هي عليه اليوم ، ولا بد بالتالي مع وضع تصاميم ومشاريع عمل جديدة إما بمزيد من التخصص، أو بالقدرة على تحويل=**

كافيا دائما وأبدا . وهذه الفكرة هي النقيض للتقدم في أي مجال كان . ولقد تم هضم هذا الدرس الآن في المجال الصناعي ، ولكن لم يتم تعلمه بعد في مجالات التعليم والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية . إننا تميل إلى عقليـــة " حـــل المشـــاكل " مفترضين أن ما نعمله هو عمل مناسب ، وإذا حصل انحراف عن هذا العـــرف ، فإننا يجب أن نصلح هذا الانحراف ، تماما كما يحصل عندما نصلح إطار عجـــل سيارة أفرغ من الهواء . إن هناك عادة مدمرة في علم النفس والتعليم في أمريكـــا

=انتاج الإنتاج والخدمات إلى انتاج مواد وخدمات مختلفة . ولكـــن هـــل نجحـــت شركات إنتاج معدات الإتصال العسكرية في التحول إلى شركات (مدنية) لإنتـــاج الهواتف النقالة؟ لقد هربت هذه الصناعة من حر تنافس الصناعات العسكرية إلـــى جحيم تنافس الصناعات المدنية . كذلك الحال مع بعض مصـــانع المدافـــع التـــي تحولت في عدد من الدول إلى مصانع لإنتاج طناجر الضغط . إن هذه محـــاولات للتكيف مع البيئة – لا تصل حد السيطرة عليها . هل يكون الحل في الإندماج بين بعض المؤسسات ؟ ولكن هذا يشكل استسلاما! ومـــا هـــو دور الحكومـــات ؟ ألا تقتضي المنافسة الشريفة عدم وضع قيود حماية ؟ هل التجســـس الصنـــاعي أو التجاري يحل جزءا من هذه المشكلة ؟ ... إن بيوت الجميع زجاجية . هل تشـــكيل نقابة للعاملين في صناعة معينة تحدد أسعار سلعها وخدماتـــها يمكـــن أن يحـــل المشكلة ؟ أحيانا . وأخيرا ، فهل المنافس عدو ؟ لا أستطيع أن أجتمع معه حتـــى في جمعية أو ناد معين ؟ أم يمكن أن نجتمع هناك كزملاء ، ونواصل عداواتنـــا بعد لقاءات المجاملة ... لقد تطورنا في هذا الاتجاه ، خطوة واحدة . أمـــا فـــي المستقبل ، فإننا يجب أن نقبل بشراكة مربحة بين المتنافسين ، بدل تنافس يلحـــق الخسارة بالطرفين.

من حيث اعتبار كل التفكير هو مجرد حل للمشاكل . لقد صار المربون يتحدثـون الآن عن إدخال حل المشاكل إلى التعليم المدرسي ، لا لشيء إلا لشعورهم بـالحرج من الحديث عن إدخال " مهارات التفكير " ، ومصدر الحرج أن هذه المهارات مـن المفترض أن تشكل منظور العملية التعليمية كلها.

وما من شك في أن حل المشاكل " هو جزء هام من التفكير التطبيقـي ، وان بإمكاننا أن نستخدم هذا المصطلح ككتلة كبيرة ، تضم كل أنواع التفكير الغـائي : "نحن نريد الوصول إلى مكان ما ، فكيف لنا أن نصل ؟ إن علينا أن نحـل هـذه المشكلة " لكن وكما هو الأمر مع كـل الكلمـات الكبـيرة الأخـرى (صعوبـة المستجمعات) فإننا سريعا ما نحصر رؤيتنا بمثال صرف لمشكلة مـا : " هنـاك شيء خاطيء وعلينا أن نصلحه "وبالتالي، فإننا نستبعد فرص التفكـير ، والتفكـير المبادر ، بل وكل أنواع التفكير التى توجب علينا أن نشرع فى التفكير في أمـور ليست خاطئة .

إن حل المشاكل ، والتفكير الإنتقادي هما جزء من نفس الخلفية الثقافيـة التـي تقوم على تصويب الأخطاء ، والتقاط الأخطاء . ولا نستطيع أن ندرك انهما إجراءا صيانة ، يقومان على افتراض أن لدينا نظاما كاملا ، وإن لم يكن كذلـك ، فـهو نظام سوف يتقدم في ذلك الاتجاه من خلال التطوير الدائب ، وكل ما على المفكرين فعله هو أن يحافظوا على بقاء المركبة على الطريق وأن يصلحوا تلك القطع التـي تتعرض للعطب أثناء المسير . أما مقولة التقدم من خلال التغيـير فـي الإدراك ، وتغيير المثال ، والتصميم المتعمد ، فلا يتم طرحها أبدا .

وعندما نشرع في حل المشاكل ، فإننا نستخدم منهجا تقليديا أيضا ، فنحن نحلل الموقف ، ثم نحاول إزالة سبب" المشكلة ، وغالبا ما تؤدي إزالة العلة إلى حل المشكلة : فإذا انغرز مسمار في حذائك ، فإنك تنزع المسمار ، وإذا أدت سهولة الحصول على الأموال الانتمائية إلى زيادة التضخم . فإنك ترفع أسعار الفائدة ، وإذا كانت المياه الملوثة تؤدي إلى انتشار داء الكوليرا ، فإنك تغير إمدادات المياه أو تغليها ، وإذا كانت هناك حلقة تؤدي إلى تسريب في قذيفة ، فإنك تلغيها . ولكن من غير الممكن حل كل المشاكل بإزالة أسبابها ، فقد لا تعثر أبدا على السبب ، وقد تعثر عليه ولكنك تعجز عن إزالته كأن يكون زلازل أو تغيرات مناخية تؤدي إلى الجفاف ، وقد تكون هناك أسباب معقدة التركيب تصعب إزالتها ،كما في حالات أعمال العنف الطائفي .

إن ازالة العلة " ما هي إلا واحدة فقط من المصطلحات المتعلقة بحل المشاكل. ولكن كثيرا من جهودنا تنحصر في هذه النظرة المبسطة بسبب الخلفية الثقافية في المنطق . إن مقولة " العلة والمعلول " البدائية تعني أن لا بد لكل مشكلة من سبب ، وعلينا بالتالي أن نزيل السبب .

فما هي الطرق الأخرى التي قد تكون موجودة ؟ إن هناك طريقة " التصميم " ، ففي التصميم نقول : " هذا هو الموقف ، فكيف يمكننا أن نتقدم ؟ فإذا كنت تريد أن تبني مدينة فوق مستنقع ، فربما تقول " دعونا نزيل علة وجود المستنقع " ، أما إذا كنت تريد أن تبني مدينة جديدة وسط الصحراء ، فإنك لا تشرع في إزالة الرمال ، بل تقول بدلا من ذلك : " إن هذه صحراء ، فكيف لنا أن نصمم بيوتا يمكن أن تقف على الرمل ؟ وهكذا ، فعندما تقف أمام مشكلة مثل المشكلة الطائفية في ايرلندا

الشمالية ، فإنك قد تحاول إزالة الأسباب ، ولكن هذا عمل صعب ، ذلــك أن هــذه الأسباب متأصلة في التاريخ والثقافة ، أو يمكنك أن تصمم وضعا جديدا إلى الأمسلم من الوضع القائم .

وهناك طريقة أخرى تتقاطع مع التصميم ، وهى تغيير النظام إذ يمكننا فــي نظام معقد متفاعل أن نغير الروابط أو العلاقات بان نقطــع بعضــها ، أو نطــرح أخرى ، أو أن نغير مقاييس العلاقات . وإذا غيرت قواعد اللعبة ، فــإن الطبيعــة الإنسانية والشره يؤديان غالبا إلى تشغيل النظام الجديد بشكل جيد ,

إن تقاليدنا في التفكير جعلتنا نفضل دوما اللجوء إلى التحليل وليس التصميــم ، ومن المؤكد أننا لو حللنا شيئا ما بشكل أفضل ، فلا بد أن نعثر على العلة ، وبعــد ذلك يمكننا أن نزيلها . إن هذه المقولة ليست خاطئة ، ولكن مجال تطبيقها محدود ، ومع ذلك ، فإننا نواصل الاعتماد على تعليم التحليل وحده دون التصميم ، ويعــود ذلك إلى أن التحليل كما يبدو لا يحتاج إلا إلى استخدام المنطق (وهو قول زائف ، لأن التحليل يحتاج فعلا إلى الإدراك الإبداعي أيضا) أما التصميم فهو يحتاج إلــى الإبداع ، الذي لا نعرف كيف نتعامل معه . *

*** إن التحليل أنواع ، فمنه الكمي ومنه النوعي ومنه الإحصائي ، ومنه النفســي . لنأخذ أبسط أنواع التحليل عن تحليل العلاقات الداخلية بين الأرقام من ١-9 أفقيــا وعموديا**

1 2 3 4 5 6 7 8 9
2
3
4
5
6

وعند هذه النقطة ، فإن بعض الفلاسفة التقليديين قد يجدون ملاذا لهم في لعبـــة الكلمات بالقول " إن كل شيء يجب أن تكون له علة ، ويجب أن يكون هنالك سبب لكل مشكلة ، فإذا حلت المشكلة ، فإن العلة تكون قد أزيلت على وجه التحديد ، أمـا كيفية إزالة العلة فهي لا تهم ، فالأمر لا يزال نفسه ألا وهو إزالة العلة ". يورد دي بونو المثال التالي الذي يوضح أنه يجب أحيانا الخروج عن المســارات التقليديــة للتحليل :

هناك قصة عن شخص كان يدير بقالة كبرى في نيوجرســي ، اكتشــف أن خسائره الناجمة عن السرقات تصل حدا صارخا يصل إلى ما نسبته عشرين بالمئة،

7
8
9

هل لدينا هنا 18 عنصرا للتحليل ؟ أم 9 ؟ أم احتمالات من الصعب عدهــا ؟ كيــف عندما تتجاوز أرقام الاحتمالات الأفقية والعمودية ضعف أو ضعفي هــذا العــدد . ليس التحليل مسألة سهلة كما يوحي د. بونو . بل إنه غاية فــي التعقيــد حتــى بالنسبة إلى العقل البشري وهنا لا بد أن تتضافر جهود قاعدة المعلومات التقليدية مع شبكات الحاسوب : الأولى ترتب وتصنف ، والثانية تتلقى النواتج مــن أجــل تكوين المدركات . حيث تؤخذ فكرة سماعية أو بصرية عن المعطيات ، وينـــام= =عليها صانع القرار " ثم يعود إليها لاستعراضها من جديد (دون أن يفكــر فيــها تفكيرا واعيا قصديا) إنه موقف الصفر العقلي. وكلما كانت الاحتمالات قليلة العدد ، كلما أمكن مناقشتها. أما كلمة كثرت وتشابكت، فإنك لا تكــاد أن تجــد الوقــت لمناقشتها مع نفسك ، فما بالك بمناقشتها مع الآخرين ؟ مــن حســن الحــظ أن القرارات الكبيرة لا تحتاج دائما إلى إعداد كبيرة من الاحتمالات المتشابكة .

وهكذا شرع في برنامج تحريات شامل وتم فحص كل الأرقام بعناية ، وتمت مراقبة كل العاملين على صناديق الخروج عمدا من أجل التأكد من صحة تسجيل كافة المشتريات ، وصار المحققون يختلطون بالزبائن لمراقبة أية عمليات سرقة كبيرة . ولم يتم التوصل إلى شيء ، فالنظام كان يعمل دون أي تحايل ، ولكن الخسائر تواصلت . وذات يوم ، قام صاحب المتجر بزيارة له: لقد كان لديه شعور غير مريح بأن الأمور ليست على ما يرام ، ولكنه لم يكن قادرا على أن يضع اصبعه على مكان الخطأ وكان ما لديه هو مجرد شعور بعدم الإرتياح . وفجأة صدمه الأمر ، لقد كان قد وضع أربع نقاط محاسبة ، ولكنه يرى الآن خمس نقاط . لقد اتفق العاملون معا ، ووضعوا نقطة محاسبة خامسة كانوا يأخذون كل عوائدها . وهكذا فإن نظام المتجر كان يعمل بشكل تام عند كل نقطة على حدة , ولكنه ليس نفس النظام (الموضوع أساسا). والموقف هنا هو بالضبط نفس الموقف الذي رأيناه في استخدام كلمة " الذكاء " ، حيث أي سلوك جيد ، وفعال ، وفيم هو سلوك ذكي ، ولذلك ؛ فإن الشخص الذكي لا يستطيع أن يفكر بشكل غير فعال وإذا كان هناك شخص ضعيف التفكير ، فإنه لا يعتبر ذكيا بالنص : " لا يمكن أن تكون هناك أية أخطاء في المنطق ، لأن المنطق خلو من الأخطاء ، وإلا فإنه لا يكون منطقا حقيقيا " . إن هذا النوع من الأقوال يرد المرة تلو المرة ، ولكنه مجرد تلاعب وصفي بالكلمات .

إن من المرجح أن هناك أسبابا متعددة لسلوك الشباب عموما بشكل فج في مباريات كرة القدم وغيرها . ومن المحتمل أن هذه الأسباب تشمل فيما تشمل ضعف الروابط العائلية والانضباط ، والموضة وضغوط الأقران ، والملل ، والإغتراب عن تعقيدات المجتمع ، وعدوانية الشباب التي لا تجد لها متنفسا آخر ،

والعنف الذي يعرض على شاشة التلفزة وإلى آخره ، وأنت تستطيع أن تحـاول أن تزيل كل هذه الأسباب ، أو أن تحاول تصميم خطوات جديدة نحو الأمام .*

ومن هنا ، فإن تقليد حل المشاكل وتقليد إزالة الأسباب ، هي تقـاليد صالحـة طالما أنها تنفع ، ولكنها ليست سوى جزء واحد فقط من التفكير المطلوب . وكمـا هو الحال مع معظم تفكيرنا التقليدي ، فإن كل شيء صحيح إلى درجـة معينـة . ولكنه يغدو غير ملائم بعد هذه الدرجة . ومع ذلك ، فإننا نسترضي أنفسنا إلى حـد كبير بشأن تميز ما هو موجود لدينا .

إن ملايين البشر يحلقون شعر ذقونهم يوميا ، ولكن كم مرة فكر شخص ما يستخدم شفرة حلاقة عادية بأن تحريك الرأس قد يكون أسهل من تحريك شفرة الحلاقـة ؟ في الواقع إن تحريك الرأس أفضل بكثير ، ولكن ما من أحد جرب ذلك ، لأنـه لا توجد مشكلة تحتاج إلى حل . إن التقدم لا يحرز بمجرد حل المشاكل.

*** هل تعاقب الأندية ؟ أم تعاقب القائمين على شؤون أمن الملاعب ؟ في التفكـير الإسلامي ، لا مجال لهذا وذاك . بل يمكن أن ينظر إلى هؤلاء على أنهم مشاغبون ، ومع التكرار تتحول صفتهم إلى مفسدين . هنا يأتي دور العقاب . إذ لا يحتـاج الشخص لأن يظل يكرر تجربة محاولة لمس النار، حتى يكون لنفسه معتقدا ، بأن عمله سخيف ، وأن عليه لا يلمس النار ... إنه قد يحتاج تجربة واحدة . وهنـا تأتي فائدة التمييز القطعي الحاد ، وبخاصة إذا كانت قواعد هذا التمييز موضوعـة من قبل جهة ليست ذات مصلحة أو تحيز .**

خمسة عشر: الصفر العقلي/ قرار عقلي*

* لماذا أستمع إلى الطرف الآخر،طالما أنني قادر على إثبات وجهة نظري ؟

* مع اندلاع التضخم المالي ، فليس أمام الناس إلا أن يزيدوا الإنفاق (بما فيه الإستثمار) أو يزيدوا التوفير ، ولا طريق ثالث

* لا يوجد لهذه المشكلة إلا أحد حلين: إما ... أو ....

---

* **لقد أدى اكتشاف " الصفر " في الرياضيات إلى ما يشبه الثورة ، المطلوب الآن لنظام التفكير الجديد أن يحتوي على حالة الصفر ، بمعنى أن تكون هناك معلومات ومعطيات ، لا قيمة لها إلا بناء على وضعها على يمين المعادلة العقلية أو يسارها. إن دي بونو يقترح استخدام مصطلح (Po) كتعبير عن الصفر العقلي zero-hold ، الذي سبق أن تطرقنا إليه قبل قليل .**

ولا يعني الصفر عدم القدرة على الإختيار ، أو حتى الحكم ، ولكنه يعني تأجيل ذلك إلى ما بعد استنفاذ خطوات عقلية أخرى تكفي للوصول إلى قرار . فإذا كان أحد موظفيك يحدث عن قيام محاسبك بسرقتك ، فيمكنك في ظل النظام العقلي القديم أن تتحد موقفا عاطفيا ، وان تقوم برد فعل محدد ، بناء على ما لديك من معلومات ،أما في حالة الصفر العقلي ، فإنك تستمع وتجمع التفاصيل ، وتحاول الحصول على تتمة الحديث من محدثك بعد فاصل بسيط ، تماما كما تبحث عن تتمة خبر سرقة منشور على الصفحة الأولى في جريدة ، وله بقية في إحدى الصفحات الداخلية ,

* أن السوق الياباني ليس منفتحا كما سوقنا ولذلك يجب أن نتخذ بعض اجــراءات الحماية ، أو ننسى ما نقوله عن حرية التجارة .

* إذا كان هذا هو شعور الأغلبية فيجب أن يكون صحيحا .

إننا بحاجة إلى النموذج الذي نراه بوضوح اكبر في لحظة ما ، ممـــا يسـمح لانتباهنا بأن يحصل على المزيد من المعطيات قبل أن يحدد لذاته منطقة يســتقر فيها ، ومما يسمح لنا أيضا بإعادة خلق البراءة والجدة في مناطق نعرفــها معرفــة جيدة ، وكي نكون قادرين أيضا على إطلاق أفكار يقصد بــها عمــدا أن تكــون تحريضية .

وحيث أن أجهزة الحاسوب أخذت تصبح قادرة اكثر فاكثر على القيـــام بتحليـل المعلومات لنا ، فإنه ينبغي علينا أن نطور المزيد والمزيد من النمــاذج الإدراكيـة للحاسوب كي يجربها ، إذ بوسعنا الآن أن نجري التجارب على الحاســوب . لقـد كانت المعطيات السابقة تبين أن الأشخاص الذين يضعون أحزمة الأمـــان ، أقـل تعرضا للوفاة في حوادث السيارات . وكان هذا يبين كما يبـــدو أن وضــع هــذه الأحزمة يزيد من فرص البقاء على قيد الحياة . ولكن مزيدا من التحليـل اللاحــق (لنفس المعلومات) أظهر أن هذه العلاقة (رغم وجودها) إلا أنها ليست على هـذه الدرجة من البساطة فالسائقون الذين يتميزون بالحذر أصلا هم الذي يضعون أحزمة الأمان كما أنهم يقودون سياراتهم بحذر وعناية ، وبالتالى ، فإن حوادثــــهم تــأتي بسيطة ، أما السائقون المهملون فلا يضعون أحزمة الأمـــان ، وتــأتي حوادثـــهم خطيرة، وكلما ازدادت خطورة الحوادث كلما ازدادت احتمــالات أن تــؤدي إلــى

وفيات . ولكن يجب عليك أن تفكر في هذه الإحتمالية أولا من أجل أن تبحث عنها.

كيف يمكن أذن إدخال الصفر العقلي إلى الحاسوب الذكى ؟

ستة عشر: المعقولية *

لقد أخبرت في موسكو أن النجمة الحمراء للجيش السوفييتي قد جاءت فعلا من اهتمام تروتسكي بطقوس منظمة الكابالاه (السرية اليهودية) التي استندت إلى النجمة الخماسية ، وهي واحدة من اكثر الرموز مغزى . والآن ، فإن المؤسسة العسكرية للولايات المتحدة تقطن في بناء مشكل بشكل خماسي ويشار إليها عادة على أنها البنتاغون – أي الخماسية ، هكذا وبكل بساطة . ومن المؤكد انه لا بد من وجود مغزى ما يكمن وراء استخدام مؤسستين عسكريتين متحاربتين نفس الشعار الخماسي . وربما تكون هناك علاقة ، وربما لا تكون ، ولكن للدماغ قدرة حث رائعة على جعل الأمور معقولة .

وعندما تعرض الأمور على الدماغ ، فإنه يحاول جاهدا جعل ما أمامه معقولا. وفي الحقيقة ، فإن الدماغ لا يحاول عمل أي شيء ، والذي يحدث هو أن المدخلات المختلفة إلى النظام الذاتي التنظيم تخلق حالة من النشاط تستقر إلى حالة مستقرة هي " المعقول " .

ولو أننا وجدنا شيئا نتذكره في المنظر الذي نواجه ، فإننا ربما نتجاهل باقي المشهد ونتبع النموذج الذي تعرفنا إليه فقط . أما إذا لم يكن هناك شيء واضح تماما ، أو إذا أردنا أن نحصل على معقولية من الكل ، فإننا نحاول أن نرتب الأمور معا .

---

* **توضح هذه الآلية مدى (منطقية) الصفر في ظل فهم آليات عمل الدفاع .**

وبمصطلحات الدوائر العصبية ، فإن العملية عملية ترابط ، ولطالمـــا تحـــدث الفلاسفة وعلماء النفس عن الارتبـــاط ، وعـــادة مـــا كـــان حديثـــهم معقـــولا . وبمصطلحات فنية. وعلى مستوى مصغر ، فإن ذلك يعني ، أنه إذا جرى تنشـــيط منطقتين من شبكات الأعصاب في نفس الوقت ، فإن معامل ترابط هاتين الشبكتين سيكون أعلى ، مما لو لم يتم تنشيطهما معا . وظهر ذلك الآن علـــى أنـــه حقيقـــة عضوية قائمة . ويتم الحصول على هذا الترابط المتزايد من خلال أنزيـــم خـــاص يتطور عند نقاط التماس من أجل تعزيز عمليات الإرسال /النقل على طـــول ذلـــك الطريق ، وهكذا ، فإن هناك ثلاثة أمور قد تحدث مع المدخلات القادمة إلى الدماغ. إن مستجمعا واسعا قد يؤدي إلى ظهور نموذج محدد . كما أن جزءا ما من الموقف قد يجذب الانتباه , ويؤدي إلى خلق نموذج ما ، أما الجزء الآخر فيكتفى بتجاهلـــه . وربما يمكن جمع شتات الأمر معا كي يبدو معقولا . وكلما مضى بنا العمر ، كلمـــا زاد عدد النماذج الجاهزة المشكلة وهكذا فإن ناحية " التعلم " أو المعقولية تتراجع .

وربما كان المثال الأكثر بساطة على المعقولية هو مثال العلة والمعلـــول / أو السبب والنتيجة / . فإذا تبع شيء ما شيئا ما آخر بشكل دائم ، فإننا نميل إلى القول إن الشيء الأول قد " سبب " الشيء الثاني , وهذا النوع من الترابط طبيعي ، ولعل الفيلسوف " كانت " كان محقا عندما افترض أن لدى الدماغ عددا محددا محدودا من طرق وضع الأمور معا . إن " السبب والنتيجة " يوفر تعاقبا زمنيا يمكن التقاطـــــه وتكراره في فترة التعاقب الزمني لمجرى النموذج في الدماغ وبعد فترة ما ، فـــإن هذا الإدراك الطبيعي للترابط عبر الزمان يترسخ بشكل حازم كمفهوم بحيث أنـــه كلما حدث أمر ما ، فإننا نحاول أن نجد سببه .

وعندما كنت أمارس عمل الطب ، فإن كثيرا من المرضى بالسرطان كانوا يحاولون بجد أن يعثروا على حادث معين كانوا يعتقدون انه سبب السرطان لهم وربما كان ذلك سقوطا من عل ، أو فترة قلق . ولقد أصبحنا تؤمن الآن أن هناك بعضا من حقيقة في القول القائل إن الحالات العقلية تؤدي إلى خفض فعالية نظام الحصانة ، ولكن ما كان واضحا هو الحاجة إلى العثور على سبب .

إن " السبب والنتيجة " هي عملية تجمع عبر الوقت ، وعندما نجمع أشياء في لحظة من الزمن ، فإننا نحصل على أشياء ومواقف وخبرات ومفاهيم يمكن تذكرها، وإن تكرار نفس التجمع يتيح لنا أن نعزل هذه الخبرات المتكررة عن الخبرات التي لم تحدث إلا مرة واحدة . وإذا حصل أنه في نفس وقت تعلمنا للغة ما، حصلت خبرات موضوعية بنفس اللغة . فإننا سوف نحبذها . وإذا حصل أن تناولنا أقراص هلوسة مثل آل. آس .دي ، فإننا ربما نفسد عملية الترزيم هذه من خلال سوء تنسيق الممرات العصبية ، وهكذا لا نعود نرى الأشياء على أساس أنها معروفة ولكن كأشكال ونماذج وألوان ، أو أن نراها " ككل على بعضه " كما يقولون . وأن تكون تلك تجربة مثيرة فهذا ممكن ، وان تكون اقترابا من حقائق اكثر عمقا ، فهذه مسألة اعتقاد فقط ، وأيهما اكثر صحة : جهاز بيانو يعزف أم لا يعزف ؟ إن هذه المقارنة يمكن الرد عليها بشيء آخر : فأيهما الأفضل ، بيانو يعزف لحنا جديدا أم بيانو آخر يعزف لحنا قديما ؟

تخيل أن أمامك عددا من القطع البلاستيكية موضوعة على مائدة أمامك ، وقد طلب إليك أن ترتبها معا على أفضل وجه ممكن كي تشير بها إلى وجه إنساني أو جسر. إنك سوف تلاقي بعض النجاح ، وإذا لم يتم إعطاؤك أية أوامر محددة ، بل

تم الاكتفاء بالطلب منك أن ترتب القطع معا بحيث تحصل منها عل صورة مــــا ، فإنك لا بد أن تحرك القطع.هنا وهناك قليلا إلى أن تشير صورة ما بنفسها عليــــك فتحاول عندئذ أن تكملها ، وإذا لم تشعر بالارتياح لها أو إذا كنت ميـــالا للإبـداع بطبعك ، فإنك قد تحاول مرة وأخرى وأخرى . ومن الممكن تماما أنك قد تبعـــثر القطع عشوائيا ، ثم تنظر لترى ما لديك ، وتدرك أنها صورة (قد تعـــبر عـــن القدمين أو الرأس الخ) وفي أغلب الأحيان ، فإنك ستحرك القطع إلى أن تخـــرج بصورة ما ممكنة تقترح نفسها عليك فتمضي قدما نحو تشكيل تلك الصورة .

إن القطع المذكورة أعلاه لا ينبغي أن تكون واقعية محسوسة ، بـــل يمكـــن أن تكون لديك طائفة من المفاهيم المجردة تحاول بناءها وتحويلها إلى صورة وتجربها بطرق مختلفة بحيث تحصل على صورة مختلفة ، وإذا كانت هناك ثغرات واضحة، فإنك قد تملؤها بمفهوم جديد جاهز . إن هذا النوع من اللعب ، هو ما ظل الفلاسفة يفعلونه بشكل قل أو كثر عبر العصور الماضية من أجل بناء صورة للعالم وهو ما يفعله كل فرد ، يوميا إثر يوم ، على مستوى أقل .

في مرحلة ما من مراحل التاريخ ، كان تاليرناد (في فرنسا) ومترنيخ (فـــي النمسا) خصمين لدودين في الألعاب الدبلوماسية وصراعات القوة التـــي جذبـــت اهتمام أوروبا في ذلك الوقت وعندما مات تاليرناد ، ووصل خبر موته إلى مترنيخ، بكاه ونعاه قائلا : (أنني اعجب مما عناه بقوله : إلكل شيء مغزاه إذا فكرنا فيه)

إن الذين يذهبون إلى العرافين، أو يقرأون حظوظهم، يجدون أن بإمكانهم تمثـــل ما يقال لهم في حياتهم بطريقة تبدو التوقعات معها صحيحة . وعادة ما تكون تلـــك مسألة إيلاء انتباه إلى أشياء بعينها وتجاهل أشياء أخرى ، وايلاء أهمية كبيرة إلـــى

شيء ما . من الممكن أن يتعرض إلى التجاهل بغير ذلك ، بحيث تصبح هذه الأشياء تنبؤات تحقق نفسها ، فلو ذكر أحدهم لك انك سوف تقابل غريبا اسود مهما، فإنك سوف تعامل الغريب الأسود الأول الذي تلاقيه على انه مهم ، الأمر الذي قد يؤدي فعلا إلى إحداث مغزى حقيقى من اللقاء . ولا يثبت هذا أن العرافين مشعوذين ، بل إنه يبين ببساطة أن لدى الدماغ قدرة رائعة على جعل الأمور تبدو معقولة .

إنه التوجه الطبيعي للنظام المنمذج الذاتي التنظيم من أجل الوصول إلى حالة استقرار تنبثق عنها هذه القدرة على جعل الأمور تبدو معقولة .

سبعة عشر: الانتباه

تقف أمام بناية جميلة تبدو معقولة إذا أخذت ككل ، يندفع اهتمامك إلى الأعمدة ، وإلى أوضاع النوافذ ، وربما الأشكال المعمارية ، ثم تعود مرة أخرى إلى إحدى جزيئات الكل ، ثم تذهب إلى تفاصيل درج ما ... تلك هي رقصة الانتباه.

وربما يكون الانتباه هو الناحية الآخاذة في سلوك الإدراك كله . وعندما تقف أمام بناية ، فإنك تشعر أنك تستطيع أن توجه انتباهك إلى أي جزء يستهويك منها ، وتستطيع أن تنظر إلى البوابة الأمامية ، وقد تختار أن تنظر إلى الزاوية اليسرى منها وقد تختار النظر في مدى التناسب الكلي للبناية ، إن هذه القدرة على الاختيار تعزز مقولة " أنا " أو الإرادة الحرة .

وهكذا ، فإن هناك تدفق الانتباه ، وهناك توجه الانتباه ، وأنني ارغب في النظر في توجيه الاهتمام .

أولا : سر داخل غرفة وانظر بثبات إلى الأمام وأنت تكرر القول لنفسك : "المقعد ، المقعد ، المقعد " ، ومالم تقاوم ذلك عن وعي ، فإنك ستجد أن انتباهك قد توجه إلى المقعد الموجود في الغرفة (إذا كان هنالك واحد) ، رغم أنك لا تكون تنظر إليه . إن هذه عملية موازية تماما لأمر الذات بالعثور على ذوي اللباس الأحمر في تجمع رياضي . فالأمر يثير حساسية دوائر (عصبية) محددة ، وهكذا فإن هده النماذج تنشط ، وبالتالي نلحظ هذه الأشياء أو نوجه انتباهنا إليها .

بل إن تعليمات توجيه الانتباه قد تكون أسهل من ذلك بكثير . . إن أحد المكتشفين يعود من بقعة نائية من الأرض ليكتب تقريرا عن بركان نشيط ، وعن

طائر غريب لا يطير ... وماذا غير ذلك ؟ إن اللجنة الراعية لعملية الاكتشاف تريد ما هو اكثر من ذلك بكثير مقابل الأموال التي دفعتها ، ولذلك أعادت المكتشف مرة أخرى وزودته بتعليمات توجيه إنتباه غاية في البساطة لأن " ينظر باتجاه الشمال ويدون ملاحظات بما يراه ! ثم ينظر باتجاه الشرق ، ثم الغرب ، ثم الجنوب ، ويدون ملاحظاته في كل مرة" . وبعد أن زود المكتشف بهذا الإطار الخاص بتوجيه الانتباه ، فإنه عاد بتقرير اكثر مهنية واحترافا . وهذه بالضبط هي الطريقة التي نستخدمها لتعليم التفكير في CoRT / برنامج أبحاث الإدراك المعرفي ، فلدينا في القسم المخصص لزيادة اتساع الإدراك طائفة من الأدوات البسيطة لتوجيه الانتباه ، وعلى سبيل المثال ، فإن هنالك وسيلة لتوجيه الفحص المتمعن المقصود للسلبيات والإيجابيات والنقاط المثيرة لأي اقتراح بحيث أن المفكر يمكنه تقييمه بشكل ملائم بدل التوصل إلى وجهة نظر عاطفية عجلى ، وقصر استخدام التفكير بعد ذلك على مجرد الدفاع عن وجهة النظر تلك . وهناك أيضا أداة (C&S) Consequence and sequence" أو التعاقب والعاقبة " التي تستخدم في إيلاء الانتباه لتعاقبات فعل ما ، وهناك أيضا أداة (OPV) التي تستخدم لإيلاء الاهتمام إلى وجهات نظر الناس الآخرين الذين يعنيهم الموضوع. إن هذه الأدوات تتم ممارستها في مدى واسع من لمواضيع المختلفة بحيث يتم بناء مهارة القدرة على استخدام الأداة المعنية ، حيث يتم بعدئذ نقل ذلك إلى الحياة العملية ومواقفها – وقد صار يجري نقله بالفعل .

إن شخصا ما يقف أمام لوحة فنية ويقول : "إنني أميل إليها " أو " أنني لا أميل إليها " . وبعد أن يأخذ هذا الشخص مساقا في التذوق الفني ، فإنه يقف أمام اللوحة ، ولكن لديه الآن بضعا من أدوات توجيه الانتباه ": انظر إلى التكوين وانظر إلى التلوين ، وانظر إلى الإضاءة والظلال ، وانظر إلى عمل الفرشاة ،وإلى

طريقة معاملة القماش ، وانظر إلى الخلفية والى رموزها، وبعد فترة ، فـــإن هــذا التصوير المتمعن والانتباه الأغنى من قبل يصبح تلقائيا وإضافة إلى ذلـــك ، فـــإن هناك أمورا تتم ملاحظتها الآن قد تشير إلى تفاصيل أبعد مثل فـــترة الرســـم ، أو تناول رسام معين في فترة محددة لأعمال فنية بعينها مثل تناول الفترة الأخيرة في حياة بيكاسو ، أو الفترة المبكرة (لوورهول) .

إننا لا نستطيع أن نرى الاشياء ، إذا لم نكن مستعدين لرؤيتها ، ولهذا السبب، فإن العلم يتقدم على نحو متقطع ويبدأ عندما تتغير النماذج القائمة أي عندما يســـمح لنا بأن نرى الأشياء بشكل مختلف ، ولهذا السبب أيضـــا فـــإن تحليـــل البيانـــات (المعطيات) لا يمكن له أبدا أن ينتج كل الأفكار الموجودة فعلا في تلك المعطيـــات ولهذا السبب فإن التحليل يظل أداة محدودة وليس الأداة الجامعة المانعة التـــي كنـــا نظن. إن الرواد الأوائل في هذا المجال كانوا يعودون للنظر في المعطيات القديمة، ولكنهم ينظرون فيها بمدركات جديدة . بحيث يمكنهم أن يروا أشياء جديدة .

ونعود الآن إلى حساسيات الشبكة العصبية واستعدادها للنشـــــاط ، ولنقـــارن توجيه الانتباه من خلال أوامر ذاتية محددة بالنظر إلى الجانب العلوي اللأيمن مثلا، لجريان الانتباه. إننا ننظر إلى منظر بعقل أثار الجوع حساسيته ، وعندها ، فـــإن انتباهنا سوف ينجذب إلى الطعام فورا . وننظر إلى منظر بعقل أثيرت حساســـيته لالتقاط أدنى إشارة إهانة أو تمييز ، وبالتالي فإننا نلحظ هذه فورا حتى لـــو كـــانت غير مقصودة . إننا نستخدم كلمة " نلاحظ " أحيانا عندما يكون الانتباه جاريا نحـــو منطقة محددة أو عندما نلتقط نحن أمرا محددا .

وعلى ارض الواقع هناك فارق بسيط بين توجيه الانتباه ، وبين جريان الانتبـــاه ، فالتوجيهات تثير حساسية عقولنا بحيث يجري الانتباه في تلك المنطقة . وقد لاحظنا في مثال اللقاء الرياضي ، أن الأمر الذي أعطيناه لأنفسنا قد آثار حساسـية العقـل لملاحظة اللون الأحمر . وهكذا فإن انتباهنا يجري نحو اللباس الأحمر .

إن هناك خاصية أهم من كل ما سبق لم أتطرق لها بعد ، وهي خاصية وحدانية طبيعة الانتباه ، وهي من طبيعة النظام المنمذج الذاتي التنظيم (كما وصفته علـى الأقل) بحيث تكون فيه منطقة استقرار واحدة ، وإذا كانت هناك منطقتان متنافستان في لحظة واحدة ، فإن الكبرى منها سوف تتوسع والصغرى سوف تتلاشى حتى لو كان الفارق بين المنطقتين ضئيلا جدا . إن هذا الأمر يظهر بشكل مباشـر نتيجـة طبيعة تكوين شبكة هذا النظام ، وليس ظرفا مفروضا عليه ، وهو يؤدي إلى وجود منطقة انتباه واحدة في الوقت الواحد . وإن كان ذلك لا يستبعد إمكانية وجود أدمغة متوازية ومختلفة وظائفيا داخل جماجمنا .

ونصل هنا إلى نقطة مثيرة وعلى غاية من الأهمية تتعلق بالإرادة الحـرة ، فمن المرجح ، أننا في الممارسة العملية لا نأبه كثيرا تجاه ما إذا كان لدينـا إرادة حرة ، أو مجرد وهم حول وجودها . لقد سبق أن أعطيت شـخصا منومـا سـلفا اقتراحا حول نشر مظلته خلال حفل غداء بمجرد أن يسمع كلمـة معينـة (كلمـة الزناد) . وقد فعل الشخص ذلك ، وعقلن الأمر فورا على أساس انه تصرف وفقـا لإرادته الحرة ولسبب محدد. ولقد أشارت التجارب التي أجريت مؤخـرا إلـى أن الدماغ يبدأ بالفعل في مباشرة عمل ما ، حتى قبل أن يتخذ صاحبه قـرارا واعيـا

بالقيام بذلك العمل . الأمر الذي يجعل الإرادة الحرة تبدو مجرد وصف لما هو حاصل فعلا . على أي حال .

وتعتبر هذه من بعض نواحيها نقطة أساسية جدا وفلسفية مهمة ، لأن حضارتنا تستند في معظمها إلى مفهوم الإرادة الحرة ، وإن الأديان والثواب والعقاب ، والقوانين تستند كلها إلى هذا الأساس .

وتخيل أن موقفا ما يواجهنا يثير فينا نموذج " أنا" الذي يشبه أي نموذج آخر. إن هذا النموذج الذي يشمل خبراتنا السابقة، وكل معرفتنا بالقوانين والوصايا الدينية...الخ يقوم بإطلاق زناد عاطفة تغير بدورها طريقتنا في رؤية الأمور، وتسمح لنا باتخاذ قرارات قد تبدو مناقضة للميول الطبيعية، وهكذا، فإن عامل "الأنا" هذا هو الذي يقوم باتخاذ القرار، وهذا ما ندعوه بحرية الإرادة، وبالتالي، فإن الأنظمة الصانعة للنماذج لا تستبعد الإرادة الحرة، ولكن نقاش الإرادة الحرة من دون تقدير لسلوك الأنظمة الصانعة للنماذج، تغدو نقاشات لا معنى لها. وباختصار، فإن "أنا" هي عامل سياق.

إن استعداد أي نموذج للخروج أو النشاط أو الإستقرار تقرره عدة عوامل تشكل فى مجملها السياق المقصود، وهي:

*المدخلات الأخرى التى تكون موجودة هناك في نفس الوقت، والتي يطلق زنادها، وتشمل هذه الأوامر الذاتية:

*التاريخ المباشر القريب والذي يتضمن ما سبق أن حدث للتو ، الأمر الذي يؤثر على الاستعداد جراء تعب الدوائر العصبية أو تعافيها .

*الخلفية العامة أو الموقف الإجمالى الذي يؤثر على السياق ، حتى لو تتم ملاحظته على مستوى العقل الواعى .

*العواطف التى من المرجح أنها تعمل من خلال تأثير كيميائي ولكنها أيضا يمكن أن تكون لها روابط عصبية مباشرة .

*الخلفية الكيميائية والتي قد تكون محلية أي موجودة في الدماغ ، أو أنــها تشــكل جزاءا من التركيز الكيميائي العام للجسم .

*ترابط النماذج المختلفة الذي يستند إلى الرابطة التاريخية ، والذي يقـــرر مـــدى الاستعداد " للمباشرة بالخطوة اللاحقة " . (وهذا ليس سياقا كجزء مـــن النمـــودج الممكن توفره).

*التاريخ البعيد أو المعرفة المخزونة التي تقرر مدى الترابط الذي ورد ذكره فـــي الجملة السابقة.

وهكذا يمكننا أن نرى أن هناك الكثير من العوامل التى تحدد الســياق . وبـــهذه الطريقة ، فإن الاستجابة التى قد يقوم بها النظام المنمذج يمكن أن تكون اســـتجابة ثرية جدا . إن هذا النظام أشبه بطائرة منه بقطـــار يجـــب أن يرتبـــط بمســـارات القضبان، أما طريق الطائرة فإنه يتقرر حسب الظروف السائدة في الجو . وأحـــوال الطقس وأحوال المطار ... الخ . وفي الماضى ، كان هناك زعم دائم بأن الأنظمـــة المنمذجة محدودة جدا ومقصورة على وصف مدى ثراء الخبرات الإنسانية ، وكـــان مرد ذلك يعود إلى أن الفلاسفة ، كانوا – ودون أي معرفة بالنظـــــام – يقصـــرون فهمهم للأنظمة المنمذجة على كلمة " نموذج " فقط ، أما الآن ، فإذا أصر الفلاســـفة

على المعنى الضيق لكلمة نموذج ، فإننا يجب أن نصمم كلمة جديدة تعبر عـــن هذه الأنظمة المنمذجة الذاتية التنظيم .

إن هناك قصة ، ومن المرجح أنها غير صحيحة مثل معظم القصص الجيدة، تقول إنه في الأيام الأولى لإجراء الترجمة اللغوية بواسطة الحاسوب ، طلب إلـــى حاسوب ما أن يترجم العبارة التالية من الإنجليزية إلى الروسية " الروح مواتيـــة ، ولكن اللحم واهن " ، ودون أدنى تردد طبع الحاسوب الترجمـــة كمـــا يلـــي : "إن الفودكا لا بأس بها ، ولكن اللحم دون المستوى " ، لقد ظلـــت مشـــكلة الترجمـــة بالحاسوب مشكلة تتعلق بالسياق بالمعنى الحرفى جدا لهذه الكلمـــة . إن الكلمـــات الدائرة فى فلك الإحساس وعنوان أية قطعة تشكل جزءا من السياق وتثير إحسـلس أجزاء من الدماغ ، وبشكل يستثير نماذج الدماغ بالأعمال المتعلقة بالسياق بشـــكل نماذج بعينها بسهولة اكثر من استثارة نماذح أخرى ويقوم الدماغ بالأعمال المتعلقـة بالسياق بشكل تلقائي وبسيط ، بسبب وحود ظاهرة التحسيس هذه والتـــي تعتـبر سلوكا عصبيا طبيعيا .

وأود مرة أخرى أن أؤكد على أن الظواهر الواردة هنا مثل ظـــاهرة الســـياق (التي ترد لاحقا) ليست أشياء خاصة تمت برمجة الدماغ كي يقوم بأدائها ، ولكنـــها تنبثق بشكل مباشر وبسيط ولا مفر منه عن السلوك الطبيعي للنظام العصبى الـــدي وصفته .

هذا وهناك الكثير من الأمور العملية التى يمكن تطويرها إذ وجد الفهم الجيـــد لسياق ، ويستخدم بعض الفنانين ورواة القصص هذا ألفهم بشكل ضمني ، أما أنا ،

فإنني أريد أن أطرح تقنية مبسطة جدا للتفكير تستند بشكل مباشـــر إلـــى ظـــاهرة السياق هذه .

إن نظام " القبعات الستة للتفكير" يتم استخدامه الآن* بشكل فعال من قبل كبريات الشركات ، بما فى ذلك الشركة الأكبر في أسواق الأسهم فـــي العـــالم ، إلا وهـــي شركة " نيبون " للبرق والهاتف في اليابان ، والتى تضم 350,000 موظف .

وفي هذا النظام نضع ستة مفاهيم مصطنعة للتفكير نصفها بأنها ســـت قبعـــات يمكن اعتمارها أو طرحها بشكل رمزي . فهناك القبعة البيضاء للانتباه والحصول على معطيات نقية ومحايدة ، وهناك القبعة الحمراء للسماح بتدفق مدخلات المشاعر والبدهيات التي لا تحتاج أي تبرير ، وهناك القبعة السوداء للمنطق السالب الـــذي يتسم بالحذر وتبيان أسباب عدم القدرة على القيام بعمل ما ، وتقابلها القبعة الصفراء للمنطق الموجب الذي يركز على المزايا والجدوى ، أما من أجل التفكير الإبداعـــي فإن هنالك القبعة الخضراء التي تدعو إلى إيجاد أفكار جديدة وابتداع المزيـــد مـــن البدائل لأي أمر . هنالك القبعة الزرقاء أخيرا وهي للسيطرة على العمليات ، وهـــي لا تنظر في الموضوع ، بل إلى أسلوب التفكير فيه أو المعرفة الشمولية الواسعة .

إن نظام القبعات (الستة) يعمل بشكل مشابه جدا لنظام توجيه الأوامـــر إلـــى الذات فى اللقاء الرياضي ، أي : ابحث عن الناس الذين يرتدون الزي الأحمـــر أو الأصفر الخ . أما القبعات فما هي إلا طقس من الطقوس يطلق السياق . ومن حيث التأثير الفعلى ، فإنها توفر شكلا مصطنعا من العواطف .

---

* خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

إن هناك اقتراحات بان كيمياء الدماغ قد تختلف بدرجة قليلة عندما نفكـــر بشـــكل إيجابي عنها عندما نفكر بشكل سلبي ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن شيئا ما مثل نظام القبعات يغدو ضرورة ، لأننا إذا جربنا أن نقوم بكل أنماط التفكير في نفس اللحظة، فإننا لن نحصل أبدا على الحالة الكيميائية المثالية المطلوبة لكل نمط مـــن أنمـــاط التفكير . وإذا كان هناك حقا مثل هذا التغير الكيميائى ، فإن القبعات يمكن أن تكون وسائط مساعدة على إطلاق الكيميائيات المناسبة لكل حالة .

والأكثر أهمية هو أن النظام البسيط قد نم عن فاعلية عالية عنـــد الممارســـة العملية ، واصبح نطاق استخدامه يتسع بشكل متسارع ويمتد إلى مؤسسات ملت من الطبيعة العقيمة وغير المنتجة للجدل كما كان يحصل فى بعض المحـــاكم عندمـــا يكون هنالك شخص عنده دافع ما لتحدي محاكميه . وهكذا ، فقد كان يتـــم تعييـــن شخص على انه "محامي الشيطان " . للقيام بذلك الدور . ويمكن القـــول أيضـــا إن الكنيسة ما كانت تستطيع أن تستعرض قوة منطقها دون وجود شخص مـــا متعلـــم يهاجم هذا الموقف .

أما في محاكم القانون ، فإن دور الهجوم يسند إلى الإدعاء ، على حين يوكـــل دور الدفاع إلى محامي الدفاع . وكلاهما مدفوع بالشـــعور بـــالعزة المهنيـــة ، أو الرسوم ، أو السمعة ، من أجل القيام بعمل جيد . ونفـــس الشـــيء ينطبـــق علـــى الأحزاب السياسية ، وهكذا ، فإن هناك دافعا للاستطلاع * ، ربما لا يكون إيجـــاده ممكنا بغير هذه الطريقة .

***ولكنه محكوم بوجهة وتوجه محددين هما مصلحة من تراد مصلحته .**

ولو أننا عدنا الآن إلى مفهوم الاستطلاع ، فإننا ربما نجد أن الدافع قد يـؤدي فعلا إلى الحيلولة دون الاستطلاع ، فلو أن نقطة ذات بال تبينت لمحامي دفـاع ، ولكنه وجد أنها ضد مصلحة موكله ، فهل من المحتمل أن يطرح المحـامى هـذه النقطة ؟ وإذا استطاع حزب سياسي معارض أن يرى الاستحقاق الحقيقـي فيمـا تطرحه الحكومة * ، فهل من المحتمل أن تعترف المعارضة للحكومة بهذا الفضـل وتؤسس عليه ؟

إن المحاكم العائلية (أو الشرعية) في كثير من الدول قد بدأت تعمـل وفـق الأساس التالي : الوضع بحاجة إلى استطلاع . وفي النظام القـانونى الـهولندي لا يوجد قاض ، بل ثلاثة لاستطلاع القضية . وهناك تقنيات جبارة للاستطلاع البناء، إن برنامج تعلم التفكير الذي صممته للمدارس يستند إلى الاسـتطلاع الإدراكـي ،

*** إن مستلزمات التفكير الحر يجب أن تفرض تغيير هذا المصطلح " المعارضـة " لأنه لا يعني شيئا . إنه أسلوب " دبلوماسي " لوصف الجهة التي خسرت معركـة الحكم السياسي . وفي الكثير من الأحيان ، فإن تسمية المعارضة تـأتي كصفـة للشخص لا للأفعال ، وبالتالي ، فهي نوع من أنواعا التقسيم النمطي غير المـبرر الذي يركز على الأشخاص لا على الأفعال ، وعلى القائل لا= =على القول . إنـها قضية مواقف (منطقية) مسبقة وليست قضية عقلية تقوم علـى التفكير فـي الأفضل . وبالتالي ، فلا مكان لها في نظام عقلي أكثر فاعلية من نظامنا الحـالي . إن ما يهمني هو مناسبة الموقف المتخذ ضمن معطيات معينة ، وليكن الشـخص ما يريد فهذا شأنه .**

بإعطاء نقاط مختلفة للبوصلة كجهات لاستطلاعها ، ويمكننـــا أن نجيـد تطويـر وممارسة تقنيات الاستطلاع البناء لو أننا هيأنا عقولنا لذلك .

إن دولا مثل اليابان ، لم يسبق أن كانت لها خلفية الجدل الغربية ، قد طورت أنظمتها الخاصة بها . إن المعلومات والقيم لا تطرح في اليابان على أنـــها أفكـار برسم الجدل ، بل على أساس أنها مدخلات، وبشكل تدريجي تلتحم هذه المدخــلات ضمن قرار أو نتيجة . ولقد شكا لي رجال أعمال غربيون من أن أقرانهم اليابانيين بدوا في بداية أحد الاجتماعات محجمين ولا يعرضون شيئا . ولم يكن لدى الغربـي ذي عادات الجدل أي شيء يزرع أنيابه فيه ، ولكن اليابانيين لم يكونوا محجميـن ، بل كان الأمر يتمثل بكل بساطة بأن ليس لديهم موقف أو فكرة محددة عنــد تلـك المرحلة – وهي أمور لا تظهر إلا في وقت متأخر بكثـير . إن وجـهات النظـر المختلفة ، والقيم المختلفة والمقترحات المختلفة ، يمكن أن تطرح كلها على المـائدة جنبا إلى جنب ، وبعد ذلك تجري مقارنتها ، بل وحتى دمجها، وأنت عندما تخطـط لرحلة، فإنك تستخدم خارطة كي ترى الطرق التي ستسلكها في وجـهتك وبدائلـها المحتملة . إن الطرق موجودة كلها هناك على الخارطة ، ولكن طريقا مـا منـها أفضل في الصيف ، على أن طريقا آخر أفضل في ساعات الذروة ، وهناك طريق ثالث أغنى بمناظره ، ولكنك في النهاية تسلك طريقا واحدا ، أو تدمج عدة طـرق كي تصل .

إن هذا الطرح والفحص للبدائل المتوازية يختلف تمام الاختلاف عن الجـدل ، ففي الجدل يجب أن تثبت أن الطرف الآخر مخطئ من أجل أن تثبت انـك علـى صواب . وهذا الموقف الجدالي الأساسي يستند إلى النزاعات الدينية وإلى قوانيـن

البريء والمتهم في المحاكم ، وإلى مطلقات المنطق التقليدي حيث لا يمكن لوجهتي نظر متعاكستين أن تكونا على صواب في نفس الوقت بناء على مبدأ التناقض .

وليس صعبا أن نرى كيف ظهرت عادات الجدل ، ولماذا نقدرها – مخطئين– كل هذا التقدير . وفي الحقيقة ، فإن المجتمع غالبا ما يحصل على جرعة مزدوجة من عادة الجدل هذه ، ويعود ذلك لكون المحامين هم الذين يخوضون غمار السياسة في العادة ، ويجلب هؤلاء عاداتهم في الجدل إلى البرلمانات المقامة أصلا على أساس الجدل .

ثمانية عشر : التدريب والتعليم الارتجاعي*

*لقد افضنا في الحديث عن التعليم المدرسي والجامعي ، ولكن المقصود هنا هو التدريب في الميدان ، سواء في المصانع أم في المؤسسات . وليس الهدف هو وضع مناهج ، وإنما التقاط بعض النقاط ، والأخطاء التي يقع فيها واضعو ومنفذو برامج التدريب على مستوى الإطار العقلي العام . وبخاصة في ظاهرة التعليم الارتجاعي . إن كل عملية تدريب لا بد أن يكون فيها تتابع معين (من الألف الى الياء) ، هكذا هي حروف الأبجدية ، ولكن من يدربوننا في المؤسسات لا يزالون يصرون على أن يسير التدريب من الياء إلى الألف ، كيف ؟

لنأخذ التدريب العسكري ، نجد هنا دائما مبدأ يقول إن " فك وتركيب السلاح هو مبدأ هام من مبادئ التدريب . وان آخر قطعة تفكها تكون أول قطعة تركبها .

اما في المصانع فإن التدريب يأخذ الخطوات التالية :

1- افحص الآلة

2-- شغل الآلة

3- ضع المدخلات المطلوبة

4- أعد الفحص

5- شغل الآلة

=

6- راقب العملية واضبطها .

على أي حال ، ربما نعود إلى أيام الحرف الأولى في التدريب مستقبلا ، فـهناك المحترف ، وهناك المبتدئ ، وهناك " الصانع " وهناك " الصبي " ... في الورش الصغيرة التي خرجت= =أعدادا لا عد لها من أشخاص حذقوا صناعاتـهم التي كانت تتطلب درجة عالية من المهارة اليدوية (بالمناسبة قد يتبين لنا أنه لا توجد مهارة يدوية ، ولا مهارة عقلية ، هناك مهارة فقط تأتي من تناسق عمل الطرفين : إننا لا نستطيع أن نجمع تفاحة +برتقالة على أنهما اثنان . هذا صحيح ، ولكن المهارة العقلية ليست مادة واحدة أصلا وكذلك المهارة اليدوية...لقد تم تصنيع التفاحة والبرتقالة في كوب عصير مشترك).

إن الانطلاق المستقبلي (قد) يتطلب العودة إلى الماضي في التدريب ، وهنا يجري الحديث عن التعلم قدما إلى الأمام ... إن تركيب السلاح يأتي قبل فكه. أما في المصانع فإن التدريب قد يأخذ شكل الخطوات التالية :

1-راقب العملية ، وشارك في ضبطها

2-أوقف الآلة .

3- افحص الآلة .

4-ضع المدخلات المطلوبة

ويوضح دي بونو بعض المفاهيم في هذا الشأن ، كما يلي :-

عندما تتعلم قصيدة طويلة ، فإن بعض العمل التمهيدي الذي قمت به يفيد إن هذه الطريقة تنجح .

وتخيل أننا نتعلم تتابع أ ب ت ث ج حسب الطريقة العادية . فإننا سننتعلم أ أولا . وبعد أن نتعلم ذلك ننتقل إلى ب ، ثم إلى ت . وفي كل حالة ، فإننا ننتقل من شيء نعرفه جيدا إلى شيء نحن نتعلمه للتو ، أو ما يمكن أن نسميه تعليم البناء على القاعدة . ولإننا نتحرك إلى داخل مجال جديد ، فإننا من المحتمل أن نرتكب

5-اعد الفحص .

6-شغل الآلة .

إن هذا التدريب يحتاج إلى التدريب عن طريق الأقران وليس محترفي التدريب ، وفي المؤسسات الكبيرة فإن أقسام البحث والتطوير هي التي تضع فحوى ومحتوى المادة التدريبية على ألسنة محاضرين ومدربين من نفس الشركة. إن هذه البشرى ليست جيدة للشركات التي تحترف تدريب موظفي المبيعات والمدراء . ولكن لهذه الشركات دور استشاري ، اكثر أهمية وأشبه بدور فاحص الحسابات الذي " يقدم رأيا مهنيا ونزيها عن أوضاع المؤسسة كما هي " ، وسيزيد المستقبل جملة أخرى : وكما ينبغي أن تكون عليه ضمن الإمكانات المتاحة " هذه الجملة الأخيرة تزيد من فرص عمل من يحترفون تقديم المحاضرات، مع تعديل وظيفتهم للمشاركة في وضع التصاميم .

خطأ ، أو نأخذ منحنى خاطئا ، وهذا صعب جدا لأن لا نتعلمه ، والآن فلننظر فــي الاتجاه المعاكس .

علينا في البداية أن نتعلم ج ، ثم نتعلم ت وهذا يعنى أننا نتحــرك الآن مــن المجال الذي نتعلمه للتو إلى مجال شيء نعرفه جيدا ، وهكذا ، فإن فرصة ارتكــاب الخطأ تقل إلى حد كبير ، وبعد ذلك نتعلم ت ، ونمضي إلى الأمام بثقة .

والمبدأ العام هو انك إذا كنت تعرف المكان الذي تزمع الذهاب إليه ، ووصلت إليه فعلا ، فإن هذا أفضل بكثير من الانتقال من المعلوم إلى المجهول . ولقد سـبق أن أخبرت أن بعض معلمي الجوقات كانوا يستخدمون هذا الأسلوب تقليديا بمعنــى تعليم الفقرة الأخيرة أولا ، ثم الفقرة قبل الأخيرة، وهكذا فإن أفراد الجوقة يسيرون قدما بثقة مطلقة إلى منطقة يعرفونها . واعتقد أيضا أن البعض قد بدأوا بتعلم لعبــة (الغولف) بهذه الطريقة ، بحيث يبدأ التعليم بنهاية الحركة وليس ببدايتها .

أننا بحاجة إلى المزيد من العمل فى أمور مثل هذه: ولكنها يمكــن أن تحــدث اختلافا عميقا في الأسلوب الذي نتناول التعليم به .وليس من الســـهل إجــراء الانتقال من التتابع البسيط على مدار الوقت إلى أمور ذات تعقيدات مختلفة ، فمـــا الذي يعنيه التعليم الإرتجاعي في أمور التعقيدات المتزايدة ؟ يمكننا أن نتصور ذلك من حيث التصميم المحدد لتتابع المفاهيم .

وهذا مثال آخر على شيء يقابل البديهة ،ولكنه يظهر مباشرة من التفكير فـــي السلوك العرضى للأنظمة المنمذجة ذاتية التنظيم ،، ومرة أخرى ، فإنه أمــر قـد تكون له قيمة عملية بارزة

ويرتبط التعليم الإرتجاعي بمفهوم آخر هو مفهوم التتابع الزمني ، كما يشرحه دي. بونو :-

إذا كنت على وشك بدء العمل في حقل جديد ، فإنه ينبغي عليك أن تبحث هذا الحقل بشكل كامل ، أليس كذلك ؟ إنه ليس كذلك !

النظرة التقليدية تقوم على إنه يجب عليك أن تقرأ كل ما تستطيع من أجل أن تحصل على قاعدة من المعرفة الموجودة ، ثم تتحرك منها إلى الأمام . ولكن هناك خللا في هذه الحجة ، وهو خلل قائم أيضا في المنهج العلمي . إننا لا نحصل على المعرفة فقط ، بل إننا نحصل على معرفة مغلقة كمفاهيم وكمدركات .

وفي نموذج المنطق التقليدي ، فإن المعرفة توجد هناك كمواد على المائدة ، ونستطيع أن نتلاعب بأماكن تواجد هذه المواد . أما في نموذج الأنظمة المنمذجة ذاتية التنظيم ، فإن المعرفة مغلقة بشكل لا مفر منه كمفاهيم وكمدركات ، وهذه المفاهيم والمدركات معا هي التي تقدم النسق كما أسماه (توماس كوهن).

لماذا يأتي التقدم الكبير في أي مجال غالبا من أناس أبرياء في هذا المجال ، أو من أناس لهم حقا عمل مختلف ؟ إن تاريخ العلم الحديث مليء بأمثلة كهذه . وليست المسألة مجرد دفاع من المؤسسة عن تعرفتها الخاصة . بل إن المشكلة تكمن في التعاقب (التتابع). إن آلات النماذج هي فعلا آلات تاريخ ، حيث يتم تشكيل النماذج بشكل مباشر حسب تعاقب التجربة ، ثم يتم تجميع هذه الأجزاء ، وهي ليست حرة في تحويلها كما في نموذج سطح المائدة . وهذا هو جوهر طبيعة الأنظمة الصانعة للنماذج .

في اختبار مدى الحياة أجراه (اجيبانيوس لويولا) (اعطني يافعا حتى يبلغ الســـابعة وأنا سوف أشكل حياته). وهنا يبدو (وفرويد والماركسيون) على صواب . فعندمـا تتدخل في وقت مبكر بالنماذج ، فإن النماذج الجديدة سوف يتم بناؤها علـــى هــذه القاعدة .

وعلى مستوى بحثي ، فإن تاريخ خبراتنا أو أبحاثنا في حقل معين هو الذي يصنـــع نماذجنا . وأحيانا يكون هذا جيدا ، ولكنه يكون سيئا أحيانا. لقد استطاع ألكســـندر (فليمنغ) أن يدرك أهمية التلوث بالبنسلين بسبب خلفيته في حقل الأبحاث المتعلقـــة بالتأثيرات المضادة للبكتيريا .

إن خلفيتي الخاصة في الطب (وبالتحديد فى أنظمة الاندماج، ووظائف الكلى، والسيطرة على الدورة الدموية ، والسيطرة على الجهاز التنفسى ، كانت جوهريـــة في مجال اهتمامي بالأنظمة المنمذجة ذاتية التنظيم . ولو كانت لى خلفية فلسفية، أو منطقية ، أو رياضية أو حاسوبية ،إذا لكنت تناولت أسلوب استغلال الرمز ونموذج سطح المائدة .

وفي مناسبات أخرى ، تكون الخبرة عاملا محددا لأننا نصبح أسارى المفـاهيم القائمة ، وربما يكون الحل المثالي هو أن تقرأ بما يكفي لأن تغدو على تآلف مـــع الموضوع ومن ثم تقوم بوظيفتك فيه ،وعلى أي حال ، فربما تحتاج أن تتعلم أدوات وتقنيات فعالة في ذلك المجال المعني . ولكن هذا قد يكون خطرا ، فإذا كانت لديـك مطرقة ، فربما تعامل كل مشكلة تواجهك كمسمار . إننا ندير خطـــوط الطـيران بالطريقة التي كنا ندير بها سكك الحديد ، لأن سكة الحديد جـــاءت أولا ،فاكتفينـــا بنقل مفاهيم سكة الحديد إلى خطوط الطيران ، رغم أن مفاهيم معينة مثـــل ثبـــات

الطرق ، ونقل المعدات ،ليست غير ضرورية فحسب ، بل إنها مكلفة وغير فعالـــة أيضا .

وحتى الأنظمة المنمذجة من لحظة إلى أحرى ، لديها حساسية تجـــاه التتـــابع ، وفكر في الإعلان التالي ، إذا أذيع في طائرة مليئة بالمسافرين على مدرج مطـــار : " هنا قائد الطائرة يتحدث إليكم ، أنني أخشى أن تكون عندي أخبار سيئة لكم ، إنكم تسمعون عن الازدحام الجوي ، ويؤسفني أن أخبركم أننا قد نتأخر مدة خمس دقائق" إن هذه خبرة (تجربة) حقيقية نجد فيها أن الجزء الأول من المنطوقات اللفظيـــة فيها يجعل المسافرين يتوقعون أن شيئا ما بغيضا سوف يقع ، مثل مشـــكلة فنيـــة كبرى ، ثم تأتي الإشارة إلى الازدحام الجوي لتبدد ذلك القلق ، ولكنها تنبئ عـــن تأخير طويل . إن السفر عن طريق الجو مرهق بما فيه الكفاية ، الأمر الذي يوحي بالحاجة إلى تدريب ما على أسلوب الإعلان ، وكان يمكن لقائد الطـــائرة أن يبـــدأ حديثه بالقول إنه ما قد يحصل تأخير لن تزيد مدته عن خمس دقائق .

دائما ، لتكن الأخبار الجيدة أولا .

تسعة عشر: السياق

أنت توشك على الانتهاء من تناول طعامك في أحد المطاعم ، وأمامك قطعة شوكلاتة بنية على شكل فأر ، وربما يكون رفيقك في الغداء هو الذي طلبها . لننظر فى طائفة من ردود الفعل المحتملة إزاء هذا الموقف:-

" إنني احب شوكولاتة الفئران ، وسوف استمتع بأكل هذه " .

- ربما لا تزال جائعا وحتى لو لم تكن جائعا جدا، فإنك لا تزال قادرا على التمتع بأكل الفأر .

" إننى لا أستطيع تناول أي شيء من أي شيء بتاتا "

- لقد أكلت كثيرا ، وليست لديك الشهية أبدا لشوكولاتة الفئران .

" أودلو أني آكلها ، ولكنني اخضع نفسي لنظام حمية قاس جدا ، ويجب أن اقاوم إغواء التهامها "

- تشعر هنا برغبة في أكلها ، ولكن هناك أوامر صارمة تقود بها ذاتك .

" أود لو أني آكلها ، ولكنني وجدت أن هذه الشوكولاتة تسبب لي الصداع ، كما يحدث مع بعض الناس "

- وهنا ، فإن معلومة ما مسبقة تؤثر على رد فعلك تجاه هذه الفئران .

– حيث أننى اشعر بالاشمئزاز عند رؤيتها ، فإن منظر هذا الفأر يجعلنـــي أشـعر بالمرض .

إن تغيرا فى كيمياء الجسم هو الذي غير شعورك تجاه هذا الفأر .

وفي كل هذه الحالات السابقة ، فإن الفئران وترتيب وضعها هـــي نفسـها بالضبط ، ولكن ردود الفعل عليها مختلفة جدا ، وهكذا نصل هنا إلى نقطة رئيسية: فإذا كان الدماغ حقا هو نظام صانع للنماذج ، وإذا كنا أسارى النماذج ، فمن المؤكد أن شوكولاتة الفئران لا بد أن تقدح زناد نموذج موحد يوجب علينا أن نتصـــرف حياله بالطريقة نفسها تماما في كل مرة نشاهده فيها . إن شيئا ما من هذا القبيـل ، ظل يشكل العقبة الكأداء أمام نمذجة مدركات الدماغ . والعامل الرئيسي هنـــا هــو السياق . إن اختلاف السياق يعني أنه تم اتباع نماذج مختلفة ، ولكن ما الذي يعنيـه السياق من حيث الدوائر العصبية في الدمـاغ ؟ إننـــا نرتبـط هنـا بالاســتعداد وبالحساسية اللذين يتم بناؤهما درجة درجة إلى أن تأتى لحظة الإطلاق للموقف .

دعونا نأخذ مثال الغثيان الذي يقضي على الشهية . هناك تغــيرات كيميائيــة تؤثر على آلية حصول الجوع ، لا يعود الجوع يثير حساسية المناطق الأخـــرى وهكذا ، لا تعود الفئران جذابة . ونفس الشيء يحدث عندما نكون متخمين . أما إذا كنا جياعا ، فإن آلية الجوع تثير حساسية المناطق الأخرى ، وهكذا ينشط نمـــوذج يدعو إلى الاستمتاع بشوكولاتة الفأرة . ويمكن أن يمضي الأمر إلى ماهو أبعــد من ذلك ، فإذا لم نكن نشعر بجوع شديد (ولكننا لا نشعر بالغثيان أو التخمـــة) فإن منظر الفأرة يمكن أن يشغل آلية الجوع ، وهذه تؤدي بدورها إلى جعل الفـأرة جذابة . إننا نرى هنا كيف يمكن للإدراك أن يغير عاطفة " ما ، بالمعنى الكيميـائى

الأوسع لكلمة عاطفة ، وهذا التغير العاطفي يؤثر فيما بعد على الإدراك . وهكـذا ، فإن تغيّر السياق يمكن أن يحصل بواسطة إحداث تغيرات كيميائية فـي الدمـاغ ، ولهذا السبب ، فإن الناس يشعرون به أحيانا بميل جنسي ولا يشعرون به في أحيان أخرى – ولهذا السبب أيضاً فإن الإدراك يمكن أن يغير ذلك الشعور أحياناً .

أن الإستعداد للعمل بين نماذج مختلفة في الدماغ يمكن له أن يتغير أيضـا من خلال دخول مدخلات جديدة إلى الدماغ أو تكون هناك أصلاً ، وتضـم هـذه المدخلات أوامر ذاتية بشأن الحمية ، إضافة إلى معلومات عن علاقة الشـوكولاتة بالصداع النصفي .

وهناك مثال بسيط على الأوامر الذاتية التي تغير الإدراك يتمثل في عمل يمكن لأي شخص أن يقوم بع في أي لقاء رياضي . وكل ما عليك أن تفعلـه هـو أن تجول ببصرك في جمهور ما ، ثم تعطي لنفسك أمراً بالتقاط الناس الذين يرتـدون "الأحمر" . ثم تنظر إلى الجمع مرةً أخرى ، فتلاحظ فجأة ، كـل النـاس الذيـن يرتدون الأحمر . ثم تجرب الأمر مرة أخرى مع الناس الذين يرتدون الأصفر . إن الأمر الذاتي قد غير استعداد الدماغ لملاحظة الأحمر أو الأصفر وتوجيه الانتباه.

عشرون: الرياضيات والاقتصاد

يقال إن الرياضي الفرنسي الكبير – ديكارت – الذي أخذنا منه اسم الاحداثيات الديكارتية – قد رُوي له ذات يوم أن (أرخميدس) نجح كما يقال في إضرام النـــار بالسفن الرومانية الغازية ، وذلك بأن سلط عليها اشعة الشمس المركزة. وحيــث أن (ديكارت) كان رياضياً ، فقد استخلص أن هذه المناورة تتطلب مرآة عملاقة مفعرة قطرها كبير حداً ، وحيث أنه من الواضح تماماً أن هذا كان خارج نطاق المهارات التقنية التي كانت متوفرة في تلك الأيام ، فإن القصة كلها يجب أن تكون مجـــرد أسطورة أخرى قد يؤمن بها غير الرياضيين . وبعد ذلك بحوالي خمسين ســـنة نفذ زميل فرنسي هذه التجربة فعلاً ، وأثبت أنه كان بالإمكان عملـــها ، باســتخدام الدروع اليونانية التي كانت معروفة في تلك الأيام ، وكانت هذه عبارة عـــن قطـــع كبيرة من الحديد ، وكانت النقطة الرئيسية هي انه يمكن صنع تلك (المرآة) من قطع حديد مسطحة ومنفصلة عن بعضها ، وليس شرطاً أن تكون (المرآة) قطعـــة واحدة متصلة ، بل يمكن وبكل بساطة أن يستخدم كل جندي درعه الخاص لعكـــس أشعة الشمس باتجاه نفس البقعة . وهكذا ، فإن رياضيات ديكارت كانت صحيحة ، ولكن افتراضاته الاستهلالية لم تكن كذلك .

وفي عام 1941 شرع رياضي يدعى (كامبل) في محاولة لإثبات أن وصـــول مقذوفٍ إلى القمر يتطلب أن يكون وزن المقذوف بحدود -مليون طن- عند نقطـــة الانطلاق ، ولقد كانت الرياضيات صحيحة هنا أيضاً ، ولكن تقنية الوقود المستخدم في الصواريخ ومفهوم تسيير المراحل مكنت لصواريخ أقل وزناً من ذاك بكثير من الوصول إلى القمر .

ولسنوات طويلة ، ظل كثير من الناس يزعمون أن الطيران البشري مستحيل لأن جسم الإنسان غير قادر على انتاج طاقة محركات كافية للإرتفاع بطائرة قوية بما يكفي لدعم طيران وزن الإنسان . لكن-بول ماك كريدي-نجح في ذلك فعلاً ، وحصل على جائزة كرامر . وحيث أنه بين إمكانية ذلك ، فإن أناساً آخرين قاموا بعد ذلك بنفس العمل . وإن ما تغير هنا هو بعض المفاهيم الأساسية عن الطيران ، إضافة إلى توفر مواد جديدة اكثر قوة وأقل وزناً .

إن هذه القصص الثلاث السابقة تبين أن الرياضيات قد تكون سليمة ، ولكن الافتراضات الاستهلالية والمفاهيم والمعرفة قد لا تكون كذلك .

إن علماء الاقتصاد يبتهجون لبناء نماذج معقدة ذات روابط متعددة تحاكي أوجه النشاط الاقتصادي وهذه النماذج الاقتصادية للقياس يعتقد أنها قيمة في مجال التوقعات حول ما سيحدث مثلاً لأسعار الفائدة ، وما إذا كانت سترتفع بنسبة واحد بالمئة . ونقطة ضعف هذه النماذج هي أنها لا تأخذ بالحسبان سوى افتراضاتنا وإدراكاتنا الحالية . إن ارتفاع أسعار الفائدة في الماضي يجعل الناس يقلعون عن اقتراض المال لتمويل شراء المنازل ، أما الآن ، ومع تزايد التعقيد والتطور المالي لدى الناس ومع الانتشار الواسع للاستشارات والنصائح المالية في الصحف ، فإن ارتفاع أسعار الفائدة قد يثير مخاوف التضخم ، وفي مثل هذه الظروف ، فإن الناس – وعلى النقيض من سلوكهم السابق – قد يرغبون اكثر في وضع أموالهم في المنازل المقاومة للتضخم . وهكذا ، فإن النموذج القديم ، والذي هو تلخيص لعملية تاريخية – يغدو بلا قيمة .

إن السلوك الاقتصادي اليوم هو نفسي وإدراكي في سبعين بالمئة منه ، ورياضي وعقلاني في ثلاثين بالمئة فقط .

ودون الطعن في تميز الرياضيات ، فإن علينا أن نعترف بأن تأثيرها المباشر في الشؤون الإنسانية ضئيل جداً ، لأن مجال الرياضيات محدود ، إضافة إلى صعوبات ترجمة الشؤون الإنسانية بشكل يقيني وتحويلها إلى نماذج تتناسب والمعالجة الرياضية للأمور*.

---

* ولا نصيحة ذهبية في هذا المجال ، ولكن قد يكون تحويل وقت الراحة إلى وقت عمل هو الأنسب ، إن آراء أصدقائنا – من خارج نطاق تخصصاتنا – وكذلك آراء زوجاتنا ، وأبنائنا مهمة جداً من أجل بناء بعض القرارات المهنية . إن الرجال يدفعون ، والنساء يشترين السلع والخدمات، فلماذا لا يقدمن خدمات استشارية عن توجهات الأسواق ، وأذواق الزبائن ؟ إن لمحللي الاقتصاد سمات مشتركة في وسائل الإعلام ، وفي معاهد الابحاث وفي الشركات ... إنهم يتميزون بالصراحة والجدية ، وهذا جيد ، إلا أن ما يحصل في الأسواق أحياناً بكون مهزلة ، بحاجة إلى مشاهدين يتفهمونها ، وليس إلى آراء نقاد متخصصين .

وثب أرخميدس من حمامه عارياً وهو يصرخ وجدتها " ، أما اليكسندر فليمنــغ فإنه رأى فجأة مغزى طبقه الملوث يعفن البسلين ، أما كيكول ، فقد وجــد بشــكل مفاجئ أن حلقة البنزين هي أشبه بأفعى تعض ذيلها . إن لحظة (تجلي) البصــيرة ولحظة " وجدتها " ولحظة " ها... هي " ، قد وثقها مؤرّخو الإنجازات الإبداعيـــة جيداً ، أما تغير النسق (أو المثال) ، فرغم أنه لا يتم بنفس الســـرعة ،إلا انــه يشكل حالات بصيرة أيضاً ، وليست المسألة مسألة تراكم أدلة إضافية جديدة ،بــل إننا ، وبشكل ما نصل إلى رؤية مختلفة للشيء نفسه .

فكيف يمكن للبصيرة أن تحدث في نظام منمذج يجب أن تنساب فيه الاشـــياء عبر نموذج مؤسس ؟ من المؤكد أن النظام المنمذج هو المعاكس المباشر لما يحدث في حالة البصيرة التى نحصل فيها على نموذج مختلف بشكل مفاجئ . والمفارقـــة هنا هي أن انبثاق ظاهرة البصيرة ، إنما يأتي بالضبط من طبيعة الأنظمة المنمذجة، وهنا أيضاً حالة مشابهة لحالة الفكاهة .

فعندما نسير على طول المسار الرئيسي ، فإننا لا نستطيع الوصول إلى الممــر الجانبي ، أما إذا صدف أننا وبطريقة ما ، وفي مناسبة ما ، وصلنا إلى نقطة مـــا على المسار الجانبي أو قربه ، فإننا وخلال لحظة واحدة نسترجع المسار الجــانبي إلى الوراء ، ونرى انه كان يبدو معقولاً . أما كيفية وصولنا إلى هذه النقطة علـــى المسار الجانبي فإنها قد تأتي من ملاحظة عابرة ، أو من معلومة جديـــدة أو مــن شيء غير ذي علاقة بالبيئة المعنية . وان تفاحة نيوتن التى ذهبت مذهب المثــل ، (مــع أنــها تبــدو غــير صحيحــة) إلا إنــــها مثـــال علــــى ذلـــك .

إن الإلهام والبصيرة ليسا نفس الشيء ، فالبصيرة: هي إدراك مفـاجئ ، مثلمـا يحصل مع رياضي أو مبرمج حاسوب ، حين يدرك فجأة أن شيئاً ما يمكن عملـه بشكل اكثر بساطة بكثير، أما الإلهام: فإنه بناء تدريجي لنمادج فـي الخلفيـة ، لا يمكن غالباً التعبير عنه لفظياً أو حتى جعله شعورياً . وفي بعض الأحيـان فـإن نموذجاً رئيسياً يسقط في مكان ما ، ويجعل الشبكة كلها قابلـة للوصـول إليـها ولاستخدامها .

إن بوسعنا أن نتناول ظاهرة البصيرة ونحاول استحضارها بشكل مصطنـع ، فكيف يمكن لنا أن نوفر نقطة بداية ؟ وكيف لنا أن نستبدل عـامل الصدفـة ، أو المعلومة الطارئة التي تؤمن الوصول إلى المسار الجانبي ؟ إن الجواب مدهش فـي بساطته ، وينجم عنه خلق ابسط تقنيات التفكير الجانبي . وهي تقنيـة يسـتخدمها كثيراً أولئك المنشغلون بتصميم منتوجات جديدة ، أو الذين يحتاجون جـدولاً مـن الأفكار الجديدة المتدفقة . ولا نستطيع اختيار نقطة مدخل جديدة (مع أن هذه عملية مفيدة بحد ذاتها) لأن اختيارنا ينجم عادة من وجـود إشـارة مرجعيـة لأفكارنـا الموجودة بشأن الموضوع (المطروق) ، هكذا فإننا بحاجة إلى نقطة دخول جديدة، ولكننا لا نستطيع اختيار واحدة منها ، والرد على ذلك هو الوصول إلى هذه النقطة بالصدفة .

وبهدف ملاءمة التشبيه ، فإننا نستخدم كلمة ما ، ويفضل أن تكون (إسـماً) وتكون ذات وظائف وارتباطات كثيرة ، ونحصل على هذه الكلمة بالصدفة ، بـأن نفتح قاموساً على سبيل المثال _ على أية صفحة ، ونأخذ الكلمة الخاصة من الأدنى

حتى نصل إلى أول اسم ، ثم نرفع تلك الكلمة إلى موقع مقارب لمنطقة التركيز التي نريد الحصول على فكرة جديدة في مجالها .

وعلى سبيل المثال ، فإن منطقة التركيز هي "سيجارة" أما الكلمة العشوائية فكانت " الإشارات الضوئية " وبسرعة تظهر فكرة وضع عصابة حمراء كبيرة حول السجائر على مسافة محددة من عقب السيجارة ، بحيث تقدم لنا هذه العصابة " منطقة خطر " أو منطقة شعور بالذنب " ، ثم " منطقة قرار " بالنسبة إلى المدخنين. فإذا توقفوا عن التدخين قبل الدخول في النطاق الأحمر ، فإن تدخينهم يكون أخف ضرراً ، وهكذا يبدأون في الحصول على سيطرة ما على القرار المتعلق بالتدخين أيضاً . وأولئك الذين يريدون تخفيف تدخينهم ، توضع لهم العصابة على مسافة متقدمة أعلى (أكثر بعداً عن منطقة عقب السيجارة) .

إن هذه التقنية الغاية في البساطة سوف تكون محض هراء في نظام سلبي من أنظمة سطح المائدة ، لأن الكلمة العشوائية على وجه التحديد ليس لها أي ارتباط بمنطقة التركيز. إن نفس الكلمة يمكن أن تتناسب مع أي موضوع آخر ، وأية كلمة أخرى ممكن أن تدبج في أي موضوع مهما كان . وهذا يجب أن يكون هراء في النظام السلبي ، أما في نظام منمذج ذاتي التنظيم ، فإن هذه العملية معقولة تماماً . فعندما تدخل الدائرة من المحيط ، ومن أية نقطة بداية ، فإنك سوف تطرق مسارات ما كان يمكن لك أن تسلكها لو أنك انطلقت من المركز . وهذا الأمر ينبثق بشكل مباشر من لا تساوق النماذج .

وإضافة إلى ذلك ، فإن الكلمة العشوائية تعطي حساسية لنماذج معينة حيث أن "الإشارة الضوئية " تعطي حساسية النماذج مثل السيطرة ، أو الخطر أو

التوقف، وهكذا فإن تدفق الأفكار يمكن أن يطوف بنماذج محددة ، كان يمكـــن أن يتجاوزها لو يكن الحال كذلك . وهذه التقنية فعالة جداً وسهلة الاســتخدام . وهـذا مجرد مثال آخر على القيمة العملية لوجود نموذج نظام يمكننا من المضي قدمــاً نحو انتاج أفكار مفيدة . وكما قلت ، فإن تقنية الكلمة العشوائية ما كان يمكن لها أن تظهر في نموذج سطح المائدة .

إن فعالية تقنية الكلمة العشوائية لا تبرهن بأي شكل على صحة النمــوذج ، لأنه قد تكون هناك نماذج أخرى ربما تنّم عن هذا التأثير أيضاً ، ولكـن النمـوذج تكون له قيمة حقيقية إذا استطاع أن يولد أدوات تفكير عملية يمكن أن نجربها بشكل مباشر . وان هدف أي نموذج عملي هو تقديم قيمة حقيقية ، لا أن يكـون مجـرد وصفٍ آخر جديد .

اثنان وعشرون: منطق الماء في الحياة العملية

إن دي بونو يشير في مواقع مختلفة من كتابه إلى منطق الماء على أنه النقيض لمنطق الصخر في التفكير التقليدي وان الغرض من هذه التسمية (المنطق المائي) هي خلق إنطباع حول الاختلاف ، وعند هذه النقطة فإنني سوف افصل القول في بعض نقاط هذا الاختلاف .

إن الصخرة صلدة ، ودائمة ، وصلبة ، وهذا يشير إلى مطلقات التفكير التقليدي فهي صلدة كالصخر . أما الماء فهو حقيقي مثله مثل الصخر ، ولكنه ليس صلباً ولا صلداً وديمومة الماء لا تتحدد بشكله .

إن للصخرة أطرافاً حادة وشكلاً محدداً ، وهذا يشير إلى التصنيفات المحددة للتفكير التقليدي ، إذ أننا نحكم على ما إذا كان شيء ما يناسب هذا الشكل التصنيفي المحدد أم لا وللماء حدوده أيضاً وله حوافه وهي محددة كتلك التي للصخر تماماً، ولكن هذه الحدود تتباين حسب المجرى الذي يجري فيه هذا الماء .

إن الماء يملأ وعاءً أو بحيرة وهو يتكيف حسب التضاريس وحسب منظور الأرض ، ومنطق الماء يتحدد من خلال الشروط والظروف الموجودة* . أما شكل

*** ولكن هذا التكيف في المقابل لا يعني أن الماء قد خسر شيئاً من وزنه أو حجمه. وعلاوة على ذلك ، فإنه قادر على أن يشكل تياراً بسهولة أكبر من الصخور، وقادر على أن يجوب العالم كله، دون أن يغير خواصه الأخيرة، بل إن الصخر قد يتعرض إلى تغييرات أكثر عنفاً وجذرية، وهو مكانه، ولكن هذا الاختلاف بين منطق قطرة الماء وبين الحجر الذي له مدلول مختلف في التفكير=**

=الاسلامي من حيث أن وجود الإثنين ضروري، وعندها يصبح السؤال عن أيهما أفضل أشبه بالسؤال عن المفاضلة بين يوم ماطر ويـــوم مشـــمس، إن التفكـــير الاسلامي يختلف عن مدارس التفكير الاخرى، من حيث أنــــه لا يلغيـــها كشـــرط لوجوده، بل يترك مجالاً للتفاعل وبخاصة عندما لا يحصل تناقض بين المعطيـــات المطروحة، وبين القيم المطلقة لهذا التفكير، إذ " ما خُيّر رســـول الله صلـــى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ". وإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه ". وفـــي البنـــاء العقلي عند دي.بونو لا بد من الفصل بين الحجر والماء (كمنطقين من عصريـــن مختلفين) أما في البناء العقلي الإسلامي فلا بد من مفاعلة المنطقيـــن معـــاً،كـــي يخرج الماء من الصخر ، وكي يعري الماء الصخر، ويشكله، ويستقر فيه. عنـــد دي .بونو يتم التركيز على المادة الخام (المدخلات) وفي التفكير الاســـلامي يتـــم التركيز على المعاملة والمفاعلة، وبإمكاننا عندئذ أن نتساءل لمن المستقبل في كل النواحي على شكل بعض الأمثلة العملية :

-البائع الذي "يأخذ شكل " الزبون الذي يفاوضه، ويتبنى موقفـــــه، قـــد يرضـــي الزبون، ولكن هل سيحقق ما يرضي طموحه من مبيعات، إنه سيكســـب النـــاس، ولكنه سيخسر الصفقات. كذلك فإن خسارة الناس وكسب الصفقات عملية ليســـت صعبة، ولكن التحدي الحقيقي يتمثل في أن تكسب الصفقات (عملك) وأن تكســـب الزبون (الناس) وأن تكسب نفسك (قيمك المهنية والشخصية). وهكذا، فإنك لا بـــد أن تستخدم كل ما أوتيت من منطق الصخر ، إلى منطق الماء، ويكمن الذكاء فـــي القدرة على التقاط المنطق المناسب في اللحظة المناسبة. إن الزبون الذي لا يدري ما يهدي لابنه في مناسبه تخرجه من الجامعة، وتظهر عليه هـــذه العلامـــات،=

=بحاجة إلى منطق الصخر كي يحزم امره ويتخذ قراراً، أما إذا بقيت تدور معـــه، فلن تصل إلى نتيجة ولا إلى أمر شراء . أما الزبون المتذمر فلا بد أن تحتويه لأن "تبسمك في وجه أخيك صدقة" ولأن الفجور في الخصام مـــن علامـــات النفـــاق وضعف الايمان، ولأن الجدل غير محبوب ولا مطلوب، وبالتالي، فلا بد هنا مـــن منطق الماء .

- في المفاوضات/التجارية والسياسية/هل تستطيع أن تستمر في خط واحد مـــن النقاش؟أم لا بد من عبور النماذج وفق استراتيجية مرسومة مسبقاً عن الخطـوط الحمراء التي لا يمكنك التنازل بعدها؟هل المطلوب أن تتفق مع الطرف الآخـــر؟أم المطلوب أن تحصل منه على شيء ما محدد؟ولا مصلحة لك في علاقة دائمة معه أم لا بد من تطوير العلاقة في هذه الجولة،وترك الأمور الجوهريـــة إلـــى جولـــة لاحقة؟

في حالة الرغبة في تعزيز العلاقة – حتى لو مقابل ثمن مرتفع، فلا بد من منطـق الماء، أماّ في حالة الإنتهاء من ترطيب الأجواء، وترتيب الآراء ، فلا بد من هدف مباشر يلزمه منطق الصخر واحد + واحد = اثنان ، وإلا فإن الطرف الآخر لـــن يأخذ مطالبك على محمل الجد بعد هذه الجولة.

- إذا تعثرت في تسويق مادة خام استوردتها (كميات كبيرة من القماش)، فـــإن منطق الصخر يقول بأن تواصل محاولاتك لتسويقها، بالبحث عن بدائل مـــن حيث طاقم التسويق، أو فريق المبيعات، أو الزبائن، أو حتى الأســـواق. أمـــا منطق الماء، فإنه يطلب منك التكيف مع زيادة العرض بتخفيض الأسعار علـــى الطلبيات الكبيرة. أما عبور النموذجين فيؤدي بك إلى محاولة تصنيع بعـض=

الصخرة فيبقى نفسه بغض النظر عن التضاريس كيف تكون . فإذا وضعت صخرة صغيرة في إناء ، فإنها تحافظ على شكلها ولا تقدم أي تنازل إطلاقاً كي تحاول أن تملأ الإناء . إن مطلقات التفكير التقليدي تنطلق بشكل مقصود كي تظل " مستقلة عن الظروف المحيطة .

ولو انك أضفت المزيد من الماء إلى الماء ، فإن الماء الجديد يصبح جزءاً من الكل . أما إذا أضفت صخرة إلى صخرة ، فلن يكون لديك سوى صخرتين ! إن الإضافة والاستيعاب في منطق الماء يتجاوبان مع عملية الشعر ، حيث يتم استيعاب الصور الجديدة في الكل الموجود .

وبوجود الشروط والظروف ، فإن إضافة ظروف جديدة ، يجعلها تصبح جزءاً من الترتيب الإجمالي للظروف

وفي منطق الصخر التقليدي لدينا أحكام تستند إلى الصواب والخطأ . أما في المنطق الإدراكي (المائي) فإن لدينا مفاهيم (الملاءمة) و (التدفق) ، ويعني مفهوم الملاءمة : هل يلائم هذا الشروط والظروف ؟ أما مفهوم التدفق فيعني : هل تضاريس الأرض ملائمة للتدفق حتى يأخذ مجراه في هذا الاتجاه ؟ فالملاءمة والتدفق يعنيان نفس المعنى، ولكن الملاءمة تغطي الموقف الثابت ، على حين أن

=هذه المواد الخام ، وتجربة نماذج جديدة من الملابس، بحيث تسوق المنتوج النهائي بدل المادة الخام.

- يجب أن يكون هناك منطق سلس كالماء وصلب كالحجر.

التدفق يغطي الموقف المتحرك ، حيث نقول : هل يلائم الماء البحيرة أو الحفـرة ؟ وهل يتدفق النهر في هذا الاتجاه ؟

أما الحقيقة فهي مجموع محدد من الظروف له نتيجة محددة وفي هذا لتعريف للحقيقة يصبح لدينا مفهوما الملاءمة (تجمع الظروف) والتدفق (النتيجة).

وفي موقف تصارعي يجادل فيه كل طرف بأنه على حق ، وهما يستطيعان إبـداء ذلك منطقياً ، يحاول التفكير التقليدي أن يسعى لاكتشاف أي الطرفين على حق حقاً، أما منطق الماء فإنه يعترف أن كلا الطرفين على حق ، ولكن كل نتيجـة متعلقـة بطرف تستند إلى ناحية واحدة محددة من الموقف ، وإلى ظروف محددة ، والـى وجهة نظر محددة *.

---

* **هذا يناسب الطروحات النظرية، ولكن المشكلة تكمن دوماً في كيفية التطبيـق، بمعنى أن لديك مثلاً وجهتي نظر : أحداهما تقول إنك بحاجة إلى برامـج تدريب للعاملين معك بكلفة مئة ألف وحدة نقدية لتشغيل خط عمل معين ، على حين أن استئجارك خط تشغيل من مؤسسة أخرى يكلف مبلغاً أقل بحوالي الثلث، ويريحـك من كل تبعات تشغيل خطك الخاص، الطرف الذي يحمل وجهة النظر الأولى يـرى أن الكلفة توزع على سنوات التشغيل العشرة ، وبالتالي لا مجال لمقارنـة تكلفـة التدريب مع تكلفة استئجار خط . أما الطرف الذي يتبنى وجهة النظـر الثانيـة، فيرى أن القوائم المالية لهذه السنة، يجب أن يظهر فيها أرباح حقيقية توزع على حملة الأسهم، لأنهم لن يتحملوا المزيد من الخسائر هذه السـنة . ولأن توزيـع أرباح الأسهم سيعزز وضع المؤسسة مع بداية السنة المالية الجديدة، وليس بعـد عشر سنوات ... وهكذا يستمر ويتواصل تبادل الآراء. وأنت كصانع قرار : هـل=**

وفي متن هذا الكتاب رأينا المشكلة التي يعانيها التفكير التقليدي مع منحنى لا فر أو منحنى الملح " فإذا كان القانون جيداً ، فإن المزيد من القانون لا بد أن يكون أفضل، وإذا كان الملح جيدا، فإن مزيد من الملح سيكون أفضل . ولا تظهر مثل هذه المشكلة في منطق الماء ، لأن كمية شيء ما هي شرط له كي يأخذ قيمة . والنقطة هي أن منطق الماء يعتمد إلى حدٍّ كبير على ظروف أو شروط محددة ، على حين أن جوهر المنطق التقليدي الصخري يعتمد على كونه مستقلاً عن الظروف .

وينبغي علينا أن نشير إلى أننا مغمورون جداً بنظام منطقنا الصخري إلى حدّ أن المنطق المائي سيبدو لنا في البداية نفعيا جداً إلى حد أن كل شيء يمشي معه " وأن لا سبيل فيه إلى اتخاذ أُحكام أو التوصل إلى قرار، ولكن الأمر ليس كذلك

=تكتفي بأن تقر كل طرف على سلامة وجهة نظره، وتقف مع " الجميع ضد الجميع"؟ أم أن الوضع يتطلب " أن تشاورهم في الأمر " ثم تعزم متوكلاً على الله؟ الحوار يجب أن يجري بمنطق الماء، أما القرار فلا مانع أن يكون حازماً (صلباً). وليس شرطاً أن يأتي منسجماً مع الأشكال التي رسمها أو حفرها أو طورها الماء، بل يمكن أن تقرر عبور هذه النماذج، قبل أن تتمكن وتصبح نماذج نمطية خطرة على مستقبل المؤسسة، هناك حل آخر بسيط يتمثل في استيعاب العاملين في هذا الخط في أماكن أخرى، أو حتى تسريح نسبة محددة منهم، لصالح تعيين عاملين جدد يجيدون تشغيل مثل هذا الخط، ويتولون تدريب العاملين لديك، ولم لا؟ وبخاصة على ضوء حقيقة كون العاملين يتعلمون من أقرانهم أكثر مما يتعلمون من مدربيهم.

على الإطلاق ، فالماء لن يجري إلى أعلى السطح أو ضد المنحنى. إن سلوك الماء محدد جيداً ، وكذا سلوك المنطق المائى . إن الاختلاف بين منطق الصحر ومنطـق الماء سوف يأخذ منا وقتاً طويلاً قبل أن نعتاد عليه .

ولنفكر في المثال التالي حول الاختلاف بين منطق الصخر ومنطـق المـاء: امرأة تأخذ غلايتها الكهربائية إلى متجر ضخم ، حيـث تطلـب منـهم هنـاك أن يستبدلوها لها لأنها لا تعمل .

الموظف(أ) : إنني آسف ، ولكنك لا يمكن أن تكوني قد اشتريت هذه الغلاية مـن هنا لأننا لا نبيع هذه النوع ولذلك لا أستطيع استبدالها .

الموظف(ب) : هل أنت واثقة تماماً انك اشتريتها من هنا ؟ هل لديك إيصـال ؟ إنني آسف إذ لا أستطيع تغييرها قبل أن تريني إثباتاً بأنك اشتريتها من هنا .

نلاحظ أن كلا من الموظفين (ا) و(ب) يبديان منطقاً صخرياً إنهما يريـدان أن يعرفا الحالة التي عليها الأمور .

الموظف (ج) : نعم ، بالطبع ، إننا سوف نغيرها ، وأنا آسـف جـداً لأنـك وقعت في هذه المشكلة .

والآن ، إن الموظف (ج) يعرف أن الغلاية لا يمكن أن يكون قد تم شراؤها من ذلك المتجر ، لأن المتجر لا يبيع تلك العلامة التجارية ، أي أن الموظف يـدرك أن الزبونة على خطأ فعلاً . ولكن الموظف مهتم أيضاً بما يكون الأمر عليه إضافـة إلى اهتمامه بما يمكن أن يؤدي إليه الأمر (الموقف) ، وما يؤدي إليه الموقف هو

الخدمة غير العادية للزبون . وقد يبدو هذا سخيفاً ، ولكن الأبحاث تبين فعـــلاً أن كل دولار ينفق على خدمة الزبائن يسترد خمسة دولارات على شكل زيـــادة فـــي المبيعات وولاء من الزبون .

ولكن ماذا لو تعرضت هذه النزعة الخيرية إلى التعدي ؟ عندها تتعـــامل مـــع التعدي عند ظهوره ، حيث أن الموظفين أحرارٌ أيضاً في اســـتخدام إدراكاتـــهم الخاصة حول ما إذا كان الأمر خطأ حقيقياً أم لا . وإذا كانت لديك قطعـــة مـــن صخر في كأس ورججت الكأس ، فإن قطعة الصخر هذه إما أن تبقى في الكأس أو أن تسقط منه ، فهناك تأثيرٌ يعتمد " الكل أو اللاشيء " وليس الأمر كذلك مع الماء، إذ قد تسكب بعضا منه من الكأس وتحتفظ ببعضه الآخر في الكأس .*

---

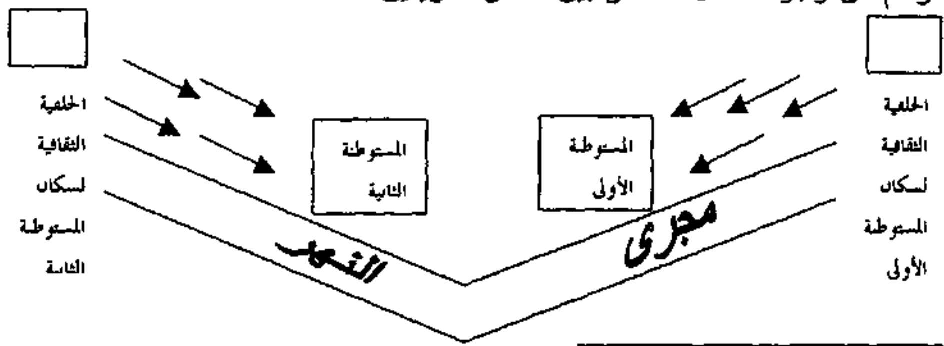
* **إذا مضينا خطوة أبعد فإننا نصل إلى نتيجة مفادها أن الماء بحاجة إلى إنـــاء أو وعاء ، وهذا النظام نظام وجود مادة رخوة داخل وعاء صلب لا يتنـــاقض مـــع (منطق) الأشياء ، ولا مع (منطق) دي . بونو . إن مادة المخ (كمادة) مـــادة رخوة ولكنها تأتي ضمن وعاء صلب ، وكلما كان الماء داخل وعاء أكثر صلابـــة كلما أمكن الإستفادة منه بقدر أكبر ، إلى أن يصبح بخاراً فـــي الـــهواء فتقـــل سيطرة الإنسان عليه إلى جدّ كبير . إن التفاعلات الرخوة يجب أن تكون محفوظة ومغلقة ضمن أطر أكثر صلابة منها ، وهكذا، فإن أنظمة المعتقدات ومـــا ينجـــم عنها من تقسيمات قطعية وحادة تصبح أشبه بالحكومة المركزية التـــي تراقـــب وتوجه وتضبط النشاطات الجارية في بلادها، دون أن تكون طرفاً فيها : إنها تنظم قوانين العمل ، ولكنها ليست الموظف الأكبر في البلاد . وهي تنظـــم الاســـتثمار وتراقبه ، ولكنها ليست المستثمر الأكبر . وهل عظم الجمجمـــة يتدخـــل فـــي=**

=تركيب المخ ؟ وهل يشكل حاجزاً لا بد من إزالته حتى نقلل من محددات التفكير؟ لا بدّ من الماء (للحياة) ولا بد من الحجر لحماية الحياة . وليست كل التصنيفات القطعية الحادة ناجمة عن تشغيل المنطق اليوناني ، بل الأهم منها تلك التصنيفات والقواعد التي جاءت على شكل عقائد غيبية ، أو دينية ، أو سماوية ، أو إلهية... سمّها ما شئت ... فهي من ناحية وظيفية ضوابط التفكير التي تحدد له غايته الأخيرة . وأخيراً : ألا نحتاج أحياناً إلى حجر لعبور الماء .

ثلاثة وعشرون: من أين يأتي التمييز القاطع*؟

لننظر في المثال التالي الذي يورده دي بونو :-

كان أحد علماء الاجتماع منبهراً من قريتين لا تبعد الواحدة منهما عن الأخرى لكثر من نصف ميل ، ولكن سكانهما كانوا يتكلمون لهجتين مختلفتين جداً ، على الرغم من وجود تفاعل مستمر بين سكان القريتين



*كيف يستطيع لاعب أن يركز كل قواه ويسدد ضربة سديدة بشكل مباغت في اللحظة المناسبة؟ لقد لعب بذكاء .

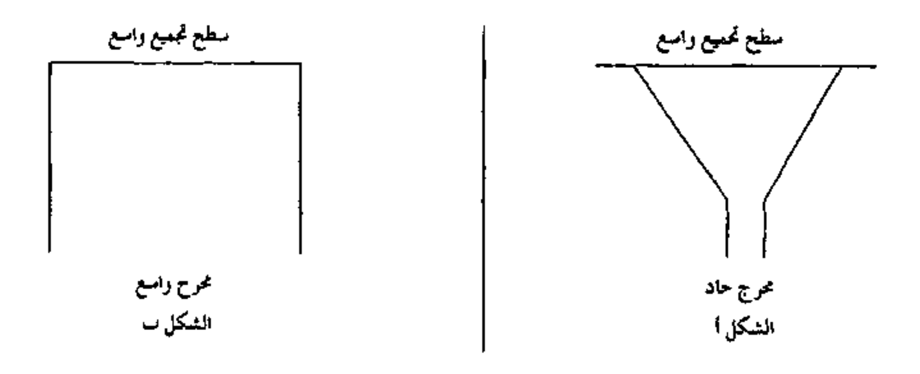
وكيف ينتبه سائق يقود مركبة في لحظة – أو في ما هو أقل من لحظة – ويتفادى حادثاً مروعاً؟ لقد تصرف بذكاء .

كيف يكون سلوك ما موفقاً جداً في وضع ما ، ويكون خائباً جداً في وضع آخر ، مع أنه نفس السلوك ؟

إن السلوك النهائي هو منطقة التجمع العقلية الأخيرة ، وقد تكون هناك منطقتا تجمع متشابهتين ، ولكن روافدهما مختلفة ، بل ومتعاكسة .

من المؤكد أيضاً أن ذلك ينبغي أن يجعلهم يتحدثون بلهجتين متقاربتين فكيف حصل هذا الفارق الكبير بين اللهجتين ؟ إن الرد بسيط : فهناك واديان نهريان وتشكلت المستوطنات على ضفاف الواديين ، وكان الناس يأتون من أعلى ضفة كل وادي ويتواصلون مع الناس في أسفل مجرى ذلك الوادي ، وهكذا تباينت لهجات المستوطنين حول كل ضفة عن الأخرى . ومع الوقت ، امتدت المستوطنات نحو الداخل بعيداً عن الضفتين ، حتى تجاوزت دوائر الانتشار الحدود وصارت هناك قريتان تبعد الواحدة منهما عن الأخرى قدر نصف ميل ، ولكنهما تقعان على أطراف دائرتين مختلفتين ، وبكلمات أخرى ، فإن القريتين لم تكونا تقفان وجهاً لوجه ، وإنما ظهراً لظهر ، وكل منهما تقابل اتجاهات معاكسة للأخرى* .

***إن أتساع مناطق التجميع للآراء والمدركات كلها داخل العقل البشري لا يعني عدم وجود قدرة في العقل على التمييز القاطع بين أمرين، وليس شرطاً أن يعني اتساع مدى (منظور)المدخلات،إتساعاً موازيا في المخرجات. للنظر إلى الشكل =**



أربعة وعشرون: الشبكة العصبية للدماغ أخطبوط حقيقي

سوف أصف هنا نموذجاً مبسطاً* جداً لخلية الشبكة العصبية ، ولكنه علـى أي حالٍ ، يتماشى مع ما نعرفه عن خلايا الشبكات العصبية الحقيقية كمـا هـي فـي

=إن الشكل أ) يمثل آلية عمل العقل البشري، أما الشكل ب) فيمثـل آليـة عمـل التقليدية كما في الحاسوب مثلا

وبفهم ذلك، فإننا نستطيع أن نفهم سببا إضافيا آخر لتوطد الصدامية فـي تفكـير بعض بني الشر، وميلهم لإقامة تصنيفات حادة جدا. إذ لا يعود السبب في ذلك إلى المنطق اليوناني فقط كما يحاول دي.بونو أن يقول، ولكنه أيضا جزء مـن آليـة عمل الدماغ الإنساني نفسه.

والتصنيف الحاد ليس شرا كله، كما سبق أن أوضحنا في مواقع مختلفة، إذ يمكن أن يتباطأ السير باتجاه تطوير سيارة ما، على الرغم من وضوح وجـود عيـوب كثيرة فيها، لأن سطح تجميع المعلومـات واسـع، ومجـرى تحليلـها واسـع، ومخارجها فضفاضة. أما عند وجود التصنيف الحاد، فإن قراراً سريعا قـد يتخـذ بالعمل على تصميم سيارة جديـدة. إن النمـوذج (ب) يعمـل كنظـام أجرائـي بيروقراطي، أما النموذج (أ) فيمكن تطويره إلى نموذج إبداعي يختصر الوقـت، ويتشابه في ذلك مع التفكير الجانبي

* إن ما أورده دي.بونو عن تجربة الأخطبوطات يتفق مع بعض التجارب العلميـة (الطبية)، ويختلف مع بعضها الآخر، وبخاصة في مجال عمل الخلايا العصبية. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أبحاث أخصائي الأعصاب الأسترالي جون أكسلس (جـراح استرالي في مواليد سنة 1903)، وقد وفرت أبحاث هذا العالم وتجاربه= =معلومات

الدماغ . ولأغراض التبسيط ، فإنني لن استخدم المصطلحات العصبية ، لأن القارئ الذي لا يألف علم الأعصاب سوف يتوجب عليه آنذاك أن يرجع باستمرار إلى المراجع لتفسير المصطلحات , والمهم آخر الأمر هو السلوك الوظيفي لهذا النظام .

إن السلوك الوظيفي يغطي مدىً واسعاً من الأنظمة التي تدخل ضمن هذا النمط ، وقد تتغير التفاصيل ، وقد يتبين أن التأثير يمكن أن يحدث بطريقة مختلفة ، ولكن التأثير يظل نفسه ، إن تفاصيل الأنواع المختلفة من مفابس الأضواء الكهربائية قد تتباين ، ولكن التأثير الإجمالي هو نفسه ، والنموذج المطروح هنا هو النموذج الذي تم اقتراحه سنة 1969 من حيث الجوهر وذلك في كتاب " آلية

قيمة حول استجابة خلايا الأعصاب في الحبل الشوكي، وأجرى تجاربه على المخيخ أيضا، ومعروف أن المخيخ ينظم حركات الإنسان ووضع قامته. المثير في تجارب أكسلس العملية أنه أعتبر الخلايا العصبية في الجهاز العصبي غير متصلة، بل إن الإشارات العصبية تنتقل من خلية إلى أخرى عبر فراغات دقيقة جدا تعرف "بمواضع الإشتباك" حيث تقفز الإشارة العصبية من خلية إلى أخرى ولقد نجح أكسلس في إدخال أقطاب كهربائية دقيقة جدا في الخلايا المفردة للحبل الشكوي، وراقب القوى الكهربائية الكامنة فيها، ثم قاس بدقة التغيرات التي تحدث في تلك القوى عند إشارة الخلايا العصبية عبر مجالات الإشتباك، وقاس أيضا التغيرات التي تحدث عند (قمع) الإشارات العصبية. ونلاحظ أن تصورات دي.بونو التوضيحية غير بعيده عن هذه النتائج العلمية وهي تعطي صورة توضيحية لعمل شبكات الخلايا العصبية.

الدماغ"، وإن محاكاة الحاسوب لهذا النموذج قد بينت انه يعمل فعلاً كما هو متوقع منه إلى حد كبير .

في أي نموذج من هذا النوع ، فإن الحالة السلوكية الفعلية تعتمد إلى حد كبير على إحداثيات تغير القيمة ، أي الكميات المخصصة للتفاعلات المختلفة . ولم ادرج هذه هنا ، ولذلك فإنني سوف أصف سلوك النموذج بأعلى الإحداثيات مهما كانت . كما أنني اعتقد أن الدماغ – كما أي مكان آخر من الجسد ، يحتوي على طبقات من الأنظمة المحلية للتغذية الراجعة التي تبقي الأحداثيات ضمن أقصى مدى لها .

تخيل الخلية العصبية كأخطبوط ذي عدد كبير من المجسات (وليس مجرد ثمان مجسات كما هو معروف) ، وبعض هذه المجسات قد تكون طويلة جداً ، وكل واحدٍ منها يقع على جسم اخطبوط آخر ، ويمكن له أن ينقل صدمة كهربائية إلى الاخطبوط الآخر . ويتم هذا النقل من خلال إطلاق مادة كيميائية من أحد طرفي المجس (كمقابل للإرسال العصبي) وإذا تلقى اخطبوط ما عدداً كافياً من الصدمات ، فإنه يصحو ، ويمضي ليصدم بدوره اخطبوطاً آخر . والشاطئ مليئ بأعداد كبيرة من هذه الاخطبوطات ، وكلها مترابطة مع بعضها البعض بهذه الطريقة وأي اخطبوط منها يمكن أن يكون مرتبطاً فعلاً بواسطة المجسات الطويلة باخطبوط آخر بعيد عنه تماماً ، ولكننا لأغراض المواءمة سوف نفترض أن كل اخطبوط مرتبط بجيرانه فى الجوار الفيزيائى فقط .

والآن ، إذا أثرنا مجموعة من الاخطبوطات من خلال إضاءة ضوء ساطع من طائرة سمتية فى الأعلى مثلاً ، فإن الاخطبوطات تصبح نشطة وتبدأ بإطلاق صدمات كهربائية على طول مجساتها . ومن أحل رؤية ما يحدث ، فإننا يجب أن

نفترض انه عندما يستيقظ اخطبوط ، فإن لونه يتغير من الأخضر الداكن إلى الأصفر الفاقع . وهكذا، فإننا نرى الآن مجموعة من الأصفر تنتشر من خارج المجموعة التي خفزناها (أثرناها) بالضوء الساطع . ويمكن أن يستمر انتشار الرقعة الصفراء إلى أن تغطي شاطئ الاخطبوطات بأكمله . وهكذا يتم تفعيل كل الأنظمة .

لنضف الآن مظهراً آخر ، فعندما يستيقظ أخطبوط ، (ويصفر لونه) ، فإنه يطلق أيضاً رائحة نفاذه – تشبه خليطاً من رائحة السمك المتعفن والأمونيا –– وهي رائحة جد كريهة لكل الأخطبوطات الأخرى ، بحيث انه إذا وصلت حدتها مستوىً معين ، فإن الاخطبوطات ترفض أن تستيقظ . وهكذا فعندما تصل رقعة الأصفر الفاقع حداً معيناً في الانتشار ، فإن حدة الرائحة تصل مستوى محدداً . وعند هذا الحد لن يصحو أي أخطبوط جديد آخر ، وهكذا تبقى مساحة الأصفر الفاقع محدودة بذلك الحد.

ومن حيث الخلايا العصبية ، فإن لدينا تفعيل منتشر ويتم مع انتشاره بناء مانع ، ويمكن الحصول على هذا المانع بوساطة مركب من الكيميائيات أو من التغذية الراجعة السلبية مباشرة ، والتي تحملها طائفة أخرى من الأعصاب . إن العمل الوظيفي هو نفسه .

فإذا كان هذا هو غاية ما في الأمر ، فإن رقعة الإصفرار ، سوف تبقى دائرية دائماً حول الاخطبوطات التي أضاءها نور الطائرة السمتية اولاً . ولذلك دعونا نضيف تأثير عامل آخر . إذا استيقظ الاخطبوط فعلاً عندما يتلقى الصدمة الكهربائية عبر المجس ، فإن رقعة الجلد الموجودة تحت المجس تنتفخ اكثر ، وهذا

الانتفاخ يعني أن لدى الاخطبوط الآن احتمالا أعلى لأن يستجيب لأية صدمة مـــن خلال هذا المجس المحدد . وهذا يعنى انه إذا ايقظت حزمتان ضوئيتان من الطائرة مجموعتين محددتين متجاورتين من الاخطبوطات ، فـــإن الرابطـــة بيـــن هـــاتين المجموعتين مستقبلاً ، ستكون اقوى من روابط المجموعات الأخـــرى . إن هـــذا التأثير يثير ظاهرة الإرتباط ، وكذلك اعادة البناء (التركيب) . ولقد توقعت ســـنة 1969 أن هذا الأمر جزء ضروري للنظام ، وجاءت الابحاث اللاحقة التى اجراهـــا آخرون لتبين أن هناك فعلاً تغيراً فى الإنزيم (كالبين) يؤكد أن الترابطيـــة بيـــن الاعصاب التي تستثار في نفس الوقت أعلى منها مع الأعصاب الأخرى .

وعودة إلى الاخطبوطات ، فإذا استخدمت اضواء طائرتين سمتيتين بـــهذه الطريقة ، ثم استخدمت اضواء طائرة واحدة بعد ذلك ، فإن الاحتمال يزداد فـــي أن تنتشر البقعة الصفراء ضمن المجموعة ذات الترابط الأقوى من غيرها وهكذا يعـــاد خلق الموقف ، كما لو كان هناك بقعتان من الضوء هذه المرة ، ولم تنتشر الرقعـــة الصفراء على شكل دائرة بسيطة حول نقطة المؤثر، ولكنها سارت علـــــى مســـار الترابط المتزايد الذي يعتمد هو نفسه أصلاً على الخبرة السابقة . وبهده الطريقـــة ، فإن جموع الاخطبوطات يمكن أن تكرر النموذج ، أو أن تعيد بناءه ، وحتى لو لـــم تكن المدخلات نفسها تماماً هذه المرة ، فإنه يمكن انتـــاج نفـــس الشـــكل للرقعـــة الصفراء.

وهذا أصبح لدينا الآن تكرار للنموذج ، أو اعادة بناء له الأمر الهام جداً كجـــزء من النظام .

فما الذي يحدث تالياً ؟ تتوقف الرقعة الصفراء عن الانتشار ، بـــل تصبـــح محدودة (بمنطقة التلوث) ، لقد اتبعت خط الخبرة السابقة ، والآن ، أصبح لـــدى الاخطبوطات النشطة (مثلها مثل مدمني التلفزيون هذه الأيام) فترة انتباه قصـــيرة جداً ، ولذلك فهي تبدأ تشعر بالملل ، أو التعب . ومع بداية هذا الشعور بـــالملل ، فإن حدة الرائحة التي تطلقها تخف إلـــى حـــد كبـــير ، الأمـــر الـــذي يعنـــي أن الاخطبوطات الأخرى خارج الرقعة الصفراء الأولى والتي تتلقى صدمـــات كافيـــة لأن توقظها ، ولكنها لم تتشجع حتى الآن نتيجة الرائحة الكريهة قد أصبح يمكنـــها أن تصحو وان تنشط ، على حين أن المجموعة الأصلية قـــد استســـلمت للنـــوم ، واختفت بقعتها الصفراء . وهكذا فإن الرقعة الصفراء تنتقل إلى المجموعة الأخـــيرة التي استيقظت للتو من بين هذه الاخطبوطات .

وهكذا حصلنا الأن على انتقال للرقعة الصفراء من مجموعة إلـــى مجموعـــة أخرى . وتظل الرقعة الصفراء محدودة المساحة ، بتأثير من الرائحـــة الكريهـــة ، وتواصل تنقلها على الشاطئ وإذا كانت ثمة مجموعة مرتبطة جيـــداً مـــن خـــلال مجسات طويلة مع مجموعة بعيدة ، فإن الرقعة الصفراء قد تختفي فـــي منطقـــة ، وتظهر في منطقة بعيدة . إن الطريقة التي يتلاحق بها تحول منطقة ما إلى الأصفر لتتبعها منطقة أخرى بعد ذلك هي عبارة عن تتابع أو نموذج ، ومع توافر شـــروط محددة ، فإن هذا النوذج يصبح ثابتاً .

وبالنسبة إلى أي اخطبوط فإن استيقاظه ونشاطه يعتمدان على عدد الصدمـــات التي يتلقاها من اخطبوطات سبقته في الاستيقاظ (وبكلمات أخرى ، اعتماداً علـــى عدد المحسات التي تأتي من المجموعة المستيقظة لتستقر على جسده) ، وكذلـــك

على درجة إنتفاخ هذه المجسات (أو بكلمات أخرى ، اعتماداً على التاريخ الماضي الذي يحدد مدى ارتباط الاخطبوط بنشاط هذه المجموعة) . ويأتي التأثير الإجمالي للرائحة الكريهة ، كعامل مضاد لعوامل التحفيز السابقة ، ومعه عامل السأم أو التعب بحيث تحد كلها من نشاط الاخطبوط .

وينبغي على أن اشير عند هذه النقطة إلى أن العلاقة بين عوامل الإيقاظ أو التحفيز ، وبين الاستيقاظ الفعلي للأخطبوط ليست علاقة خط منتظم (خطية) بل إنها عبارة عن تأثير متاخم ، ويعتبر نموذجاً بشكل مطلق لما يحصل في الجهاز العصبي . ويعني ذلك ، أننا نصل إلى نقطة لا يعود عندها أي تأثير لزيادة الحفز على الإطلاق، لكن وبعد تجاوز تلك النقطة ، فإن الاخطبوط سوف ينتعش في نشاط كامل . إنها عملية أشبه بالوخز إذ يمكنك أن توخز شخصاً ما بقوة اكبر واكبر دون أن يحدث الوخز أي تأثير ، وفجأة ، ينفجر الشخص ضاحكاً ، إن هذا تأثير غير خطي* ، وهو جزء مهم جداً من سلوك الشبكات العصبية ، وينبغي أن لا نستبعده من الحساب عند دراسة سلوك هذه الشبكات . إن الأمر يشبه زيادة الضغط على الزناد ، إلى أن يصبح الضغط – وبشكل مفاجئ – كافياً لإطلاق قوة البندقية على اطلاقها . فما الذي يحدث لمجموعة الاخطبوطات التي أصابها الملل ، بعد أن تمت استثارتها بشكل أولي ؟. هل تبقى على مللها وتتساقط إلى الأبد ؟ بعد فترة من الوقت ، يتم تجاوز الملل ، ولا يتم تجاوزه وكفى ، بل تعقب ذلك فترة قصيرة من الاستيقاظ المتزايد .

*** يحصل هذا أيضا مع الماء عند تسخينه، فأنت ترفع حرارته درجة درجة دون أن يغلي، وعند درجة معينة فإنه يبدأ بالغليان مرة واحدة**

إن التعب ، وفترة عدم التجاوب مع المثير ، ثم تزايد الإستثارة ، كلها سـلوك طبيعي لأنظمة الأعصاب. إن الاستيقاظ المتزايد للمجموعة المستثارة الأولى يعني أن الرقعة الصفراء للنشاط قد تعود بشكل جيد إلى هذه المجموعة حيث أن لها الآن ميزة أفضل قليلاً من المجموعات الأخرى. مما سوف يؤدي بدوره إلـى دائريـة النموذج ، أي أن الرقعة الصفراء سوف تبدأ في المنطقة الواقعـة مباشـرة تحـت المثير المباشر في جزء ما من الشاطئ ، ومن ثم سوف تتجول هذه الرقعة حـول الشاطئ ، ثم تعود بعد ذلك إلى البقعة الأصلية التي بدأت عندها، وتعيد الدائـرة . ومن المرجح ، ان هذه الدائرية هي التي تشكل الفكرة في الدماغ .

فما الذي سيحدث إذا كانت هناك طائرتان سمتيتان كلاهما تسـلطان الأضـواء على أجزاء مختلفة من الشاطئ في نفس الوقت ؟ سوف تبدأ رقعتان صفراوان معاً، تحاولان الإمتداد ، ولكن الرائحة النفاذة الكريهة سوف تزداد ، والمجموعة "الأقوى (من حيث زيادة ترابطها ، وكبر حجمها) سوف تستمر في ا لانتشار على حيـن أن المجموعة الأصغر سوف تكبحها الرائحة . وهكذا ، فعند أية نقطة سـنجد أن هناك منطقة واحدة من النشاط ورقعة صفراء واحدة . ويقابل هذا فـي الدمـاغ ، وجود مجال واحد للتركيز في نفس الوقت .

بعد ذلك ، نكتشف أن هذه الاخطبوطات الممتدة على الشاطئ مثقفة اكثر مما نظن ، إن بعضها يستجيب للموسيقى ، وبعض من أولئـك الاخطبوطـات التـي تتجاوب مع الموسيقى يحب الجاز ، ويبدو أن بعضها الآخـر يحـب الموسـيقى الريفية، أو الغربية ، بل إن بعضها لا يتجاوب إلا مع موسيقى موزارت . ويـأخذ التجاوب شكل تزايد الاستيقاظ .

ويحدث أن نجد اسفل الشاطئ مجموعة متنزهين تحلقت رافعة عقيرتها بالغناء، وفي لحظة ما تعزف موسيقى الجاز حيث تنتعش مجموعة الاخطبوطات الحساسة لموسيقى الجاز ، تصبح هذه المجموعة اكثر استعداداً لان تنشط من المجموعات الأخرى . ويضاف هذا الاستعداد الذي تحثه الموسيقى ، إلى عوامل استعداد أخرى سبق أن ذكرناها ، و(مثل الترابط ودرجة الإثارة الراهنة ، والملل. الخ) مما يعني أن رقعة النشاط الصفراء سوف تنتقل إلى هذه المجموعة شبه المستيقظة ، فإذا عزفت الموسيقى الريفية أو الغربية ، فإن افضلية النشاط تميل لصالح الاخطبوطات التي تحب ذلك النوع ولو عزفت موسيقى موزارت، فإن نحبه الأخطبوطات ستكون لها الأفضلية .

وهكذا ، فإن موسيقى الخلفية تزيد حساسية مجموعات مختلفة ، وزيادة الحساسية أو الاستعداد للنشاط ، يعني أن تعاقب النموذج (انتقال رقعة النشاط الصفراء) سوف يختلف عند عزف الموسيقى عنه عند عدم عزفها . وهذا نقطة هامة حقاً .

وبمصطلحات الدماغ ، فإننا ننظر فى تأثير "العواطف " أو التغيرات الكيميائية للخلفية ، والتي تميل لصالح منطقة ما أو أخرى من مناطق الأعصاب . ويعني ذلك أن النماذج من المحتمل أن تنساب في هذه ا لمناطق اكثر من غيرها . وهكذا فإن الاستجابات لنفس المؤثرات بالضبط ، سوف تتباين حسب الحالة الكيميائية للخلفية ، والتى تتقرر بدورها حسب حالة العواطف . ويمكن للتأثير العاطفي أن يكون عصبياً ، كما يمكن له أن يكون كيميائياً – ولا فرق بين الحالين .

ويمكن التوصل إلى هذا الاستعداد لدى مجموعة محددة من الاخطبوطات للإستيقاظ بطريقة أخرى . لقد رأينا كيف أن رقعة ثانية من اللون الأصفر اوجدتها أضواء طائرة سمتية ثانية بعيدة عن الأولى ، قد يخمدها النموذج الأول الأقوى منها. ولكن استعداد هذه المجموعة المفموعة للنشاط سوف يظل يعزز وضعها الاستعدادي اكثر من المجموعات الأخرى ، ولذلك فإن رقعة النشاط الصفراء من المرجح أن تنتقل في اتجاه هذه المجموعة . وبهذه الطريقة ، فإن السطح يأخذ في حسبانه عوامل ومدخلات أخرى قد تحدث في نفس ذلك الوقت ، ولنلاحظ انه إذا كانت أضواء الطائرتين متقاربة ، فإن مجموعتي النشاط الصفراويتين قد تندمجان معاً لتشكلا رقعة صفراء واحدة .

والآن ،يمكننا أن نلخص استعداد آية مجموعة اخطبوطات محددة للاستيقاظ والنشاط كالتالي :

-الإثارة المباشرة

-الإثارة الآتية من اخطبوطات أخرى ، درجة الترابط بينهما (والتي تعتمد على التاريخ الماضي)

- ازدياد التيقظ بعد مرحلة الملل.

- موسيقى الخلفية

إن العوامل السلبية للملل والرائحة الكريهة لا تزال على حالها .

فإين الذاكرة من هذا النموذج ؟ إن الانتفاخ الذي هو اساس زيادة الترابط يصبح دائماً . وفي عالم الأعصاب ، فإن هذا الترابط المتزايد يصبح دائماً . وفي عالم الأعصاب ، فإن هذا الترابط المتزايد قد يتحقق من خلال التغير في الانزيمات، وبطرح بروتينات جديدة ، أو بإضافة مجسات إضافية أخرى فعلياً .

ويمكننا أن نوجز صفات هذا النظام ، بالتالى :-

1-إن نشاط اخطبوط يمكن أن يستثير نشاط اخطبوطات أخرى ، إذا كان هناك ترابط بينهما (النشاط يظهر بتغيرات اللون الأصفر).

2- الحجم الإجمالي للمجموعة المنشطة تقيده (تحد منه) التغذية الراجعة السلبية (الرائحة آلكريهة)

3- عامل التعب أو الملل يعني أن النشاط سوف ينتقل من المجموعة المثارة ، إلى المجموعة التالية المستعدة للإثارة .

4- الإثارة تتم على أسس المتاخمة وليس الخطوط الطولية .

5- أية اخطبوطات تمّ تنشيطها في نفس الوقت -سوف يزداد الترابط بينها (تأثير الانتفاخ).

ونتيجة لهذه الصفات البسيطة يصبح النظام قادرا على أداء السلوك العام التالى :

1.انتباه وحدوي

2.إدراك للنماذج وإعادة بنائها .

3.دمج المدخلات المختلفة .

4.خلق نماذج تعاقب تستحضر الخبرات السابقة .

5.خلق نماذج دائرية متكررة .

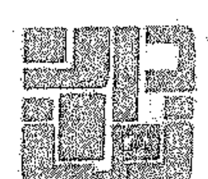
6.التجاوب المختلف مع المثير الواحد استناداً إلـــى نشـــاط الخلفيـــة أو التـــأثيرات الكيميائية .

إن كل هذه هي تأثيرات فعالة ، وتضيف إلى سلوك النظام ذاتي التنظيم ، الخـــالق للنماذج ، المستخدم لها .

إنها تضيف إلى سلوك الإدراك .

متخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي





الأردن - عمان هاتف ٥٣٣١٢٨٩